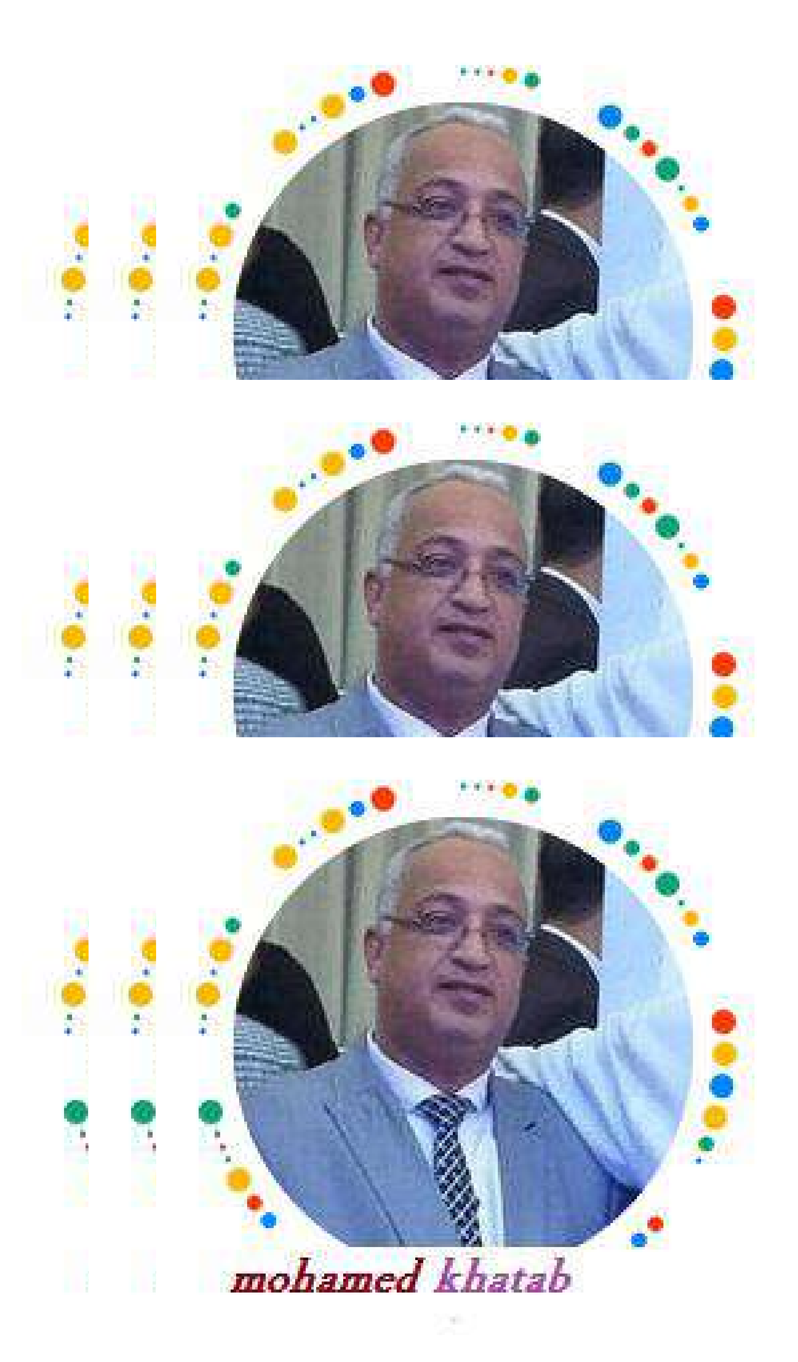
خورخيه كومنسال

الطفرات

ترجمة: أمل فارس



منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING


mohamed khatab

خورخيه كومنسال



الطفرات

رواية

ترجمتها عن الإسبانية

أمل فارس



الكاتب: خورخيه كومنسال
عنوان الكتاب: الطفرات
ترجمة: أمل فارس

العنوان باللغة الأصلية: **Las mutaciones**
الكاتب: **Jorge Comensal**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-58-8
الطبعة الأولى - سبتمبر/ أيلول - 2020
2000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +


publishing@takweenkw.com
www.takweenkw.com


takweenkw
@takweenKw

إلى نبضِ روحي بناتي الثّلاث جولي وسارة وإليسا اللواتي كنّ معي وساندنني خلال اشتغالي على العمل.

إلى أمّي التي لا أعرف إن كنت سألتقيها مجددًا وأخوتي الأعـزّاء وعائلتي في بلدي سـوريا وأصدقائي جميعًا في فنزويلا البلد التي أدينُ له بالكثير.

إلى جميع الأصدقاء الذين تحمّسوا لهذا العمل وساعدوا بملاحظاتهم أن يخرج بأتقن صورة وأخص بالذكر الصديق العزيز والشّاعر المتميّز طلال الماغوط.

إلى القرّاء الأعزّاء كل المحبة.

أمل فارس Amal Fares

الجزء الأوّل

«ويُخالِجك ذاك الشعور الحزين بأنّ خطأً ما قد تسلّلَ وسط الكلمات المُتقاطعة ليجعل منها عصيّة على الحلّ».

روساريو كاستيجانو

(١)

واقفاً أمام المرآة، فتح رامون فمهُ كقردِ البابون الغاضِب من نفسه، كان يُحاول أن يتفحّص لوزتيه، أن يراهما في المرآة، لكنّ الضوء الخافِت داخل حمّام مقصفِ الجبل لم يكن كافياً لكشفِ موضِع الألم الحادّ والمُتواصل، ذاك الألمُ الشبيه بالمغصِ الذي تُسبّبهُ حصى المرارة. حالما أغلق فمهُ مُجدّداً، انتبه إلى أنّ الألم منعهُ من تناولِ خبزِ بيبل المحشيّ بلحمِ الخنزير الذي كان قد طلبه، صلّح ربطة عنقهِ مستاءً بفعلِ الألم، أدار ظهرهُ لانعكاسِ صورتهِ في المرآة، وخرج من الحمّام. على الطاولة جلس أحدُ زبائنهِ بانتظاره، كان قد قدِم معهُ للاحتفالِ بحكمِ القاضي الإداريّ لصالحه. أشار رامون للنادِل وطلب إليهِ أن يلفَّ لهُ الخبز كي يأخذهُ معهُ ويُحضِر لهُ بدلاً عنهُ حساء الدجاج والليمون. كان الكلامُ يُسبّبُ لهُ ألماً كالدبابيس في اللسان. عليهِ الآن أن يكون بخيلاً في الكلامِ والاكتفاء بالحساء المُتواضع الذي قُدّم لهُ للتوّ. قبل أن يبدأ بتناولِ طعامهِ رفع الزبون كأس تيكيلا ليشربا معاً نخب النصرِ الذي حقّقاهُ في المحكمة. رامون قلّدهُ برفعِ كأسهِ قائلاً: «Salud، نخبك»، دون أن يخطر لهُ أنّهُ

في الصباح التالي سوف يستيقظُ بلسانٍ مشلولٍ عاجزٍ عن لفظِ تلك الأحرف الساكنة اللازمة لنطقِ الكلمات الجميلة.

ذُعرت كارميلا زوجةُ رامون منذ ما يقارب العشرين عاماً عندما سمعتهُ يقول: «إيو ميو بيودي أبواغا»، وبدل أن تعطيهِ ملعقةً من شرابِ السعال حجزت لهُ موعداً مُستعجلاً مع طبيبِ العائلة الذي اعتادت أن تصطحب إليهِ باولينا وماثيو ولديها المراهقين عندما كانا يُصابان بزكامٍ قويٍّ أو عندما يحتاجُ أحدهما إلى تقريرٍ مرضيّ يُبرّر غيابه عن المدرسة.

حسب ما أخبرتني به السيدة، قال الطبيب: يُحتملُ أن نكون أمام حالةِ التهابٍ خفيفٍ للغدّة الدرقيّة، ألم تشعر بأيّ تنميلٍ أو دغدغةٍ في أصابعِ اليدين أو القدمين؟ نفى رامون ذلك بتحريكِ رأسه.

حسناً.. لِنفحص موضِع الألم. أخرج الطبيبُ مِصباحاً صغيراً كالذي يلبسهُ عُمّال المناجم وأحكم تثبيتهُ على جبينهِ بواسطةِ شريطين من المطّاط.

«سنفتحُ الفم كبيراً لو سمحت». الطبيب الذي اعتاد التعامل مع الأطفالِ المزكومين خاطب رامون بتلطّفٍ زائد ما بدا له مُهيناً بعض الشيء.

«هكذا، نعم، جيّد».

في هذهِ اللحظة عاد قردُ البابون للظهور ثانية، أدخل الطبيب بين فكّيهِ المفتوحين أقصاهما أداةً خشبيّةً لتثبيت اللسان، ما أن

لامست العضو المُتألّم العاجز عن الحركة، حتّى غدت وكأنّها آلة صعقٍ كهربائيّ. شعر رامون كما لو أنّ الطبيب يفحصهُ بآلةِ تكسيرِ الثلج. خطرت لهُ تلك الأدوات التي يستخدمها المحقّقون لاستجوابِ المُشتبهِ بهم وكان يجزم بأنّهُ سيعترف بأيّ شيءٍ في سبيلِ أن يُوقفوا تعذيبهُ بتلك الطريقة.

لو حصل ذلك لاعترف بأنّه لطالما رغِب بأخت زوجتهِ أنخيليكا، أو حتّى بأنّه من قتل المُرشّح الرئاسيّ لويس دونالدو كولوسيو في تيخوانا. لكنّ الطبيب بلا شكّ يبحثُ عن سِرٍّ ليس بإمكانِ رامون الاعتراف به.

«لدينا التهابٌ من نوعٍ غريبٍ بعض الشيء». استنتج الطبيب بعد أن أخرج أداة تثبيتِ اللسان، «يلزمُ أن نُصوّر العضو صورة أشعّة فوق صوتيّة لنكشف نوع الالتهابِ بالضبط». أضاف الطبيب بأنّه من المُحتمل أن تكون هذهِ الأعراض شبيهة بأعراضِ مرض الحصى اللعابيّة، وهو نوعٌ من الالتهاب الحاصلِ نتيجة تكلّسٍ في القنواتِ اللعابيّة.

انقضت أسابيعُ ثلاثة في محاولةِ إثباتِ صِحّةِ هذا التشخيص. خلال ذلك تضخّمت تلك الحصاة المزعومة وزادت من تورّمِ اللسان بتسارعٍ مُريبٍ، وعندما انتبه لذلك قام الطبيب بإحالتهِ إلى الطبيب خواكين ألدما «طبيبُ أورامٍ مُختصّ وذو خبرةٍ واسعة».

فكرةُ الذهابِ إلى عيادةِ طبيب الأورام أرعبت رامون وكارميلا إلى حدّ تجاوزِ قدرتهما على الإفصاح، كانا يُعانيان من القلق ويقضيانهِ

بصمتٍ على الرغم من محاولتهما بذل جهدٍ في عدمِ إعطاءِ أهميّة لذلك الموعد الذي تحدّد في الرابعِ من ديسمبر، فضّلا كتم الأمرِ عن ولديهما إذ كانا في فترةِ الامتحانات الأخيرة، كان ماثيو يُقدّمُ امتحانات الثانويّة العامّة النهائيّة، أما باولينا فكانت في طورِ اجتياز امتحانات السنة الثانويّة الأولى.

بينما جاهد ماثيو، ضمن حدود قدراته، لاجتياز امتحانات المواد الأربع التي لطالما رسب فيها، الرياضيات والكيمياء والفيزياء والتاريخ، تركّز طموح باولينا بالتفوق لهدفٍ بعينه وهو التغلب على منافسها الوحيد القزم المُتغطرِس خيسوس غاليندو.

ماثيو وباولينا كانا في أوجِ التركيز على تحقيقِ الأهداف التعليميّة لكن بالطبع دون إهمالِ مُمارسة العادة السريّة وحفلاتِ الكاريوكي وكلّ ما هو مُتعلّق باللهو والمُتعة، إلّا أنّهما أيضاً كانا في غفلةٍ تامّة عن الاضطراب الذي أصاب والديهما.

في مقرّ المُحامي رامون (رامون وشركاؤه) راحت القضايا تتراكم تدريجيّاً ووُجِدت تفاصيلُ لم يكن بإمكان أحدٍ سوى رامون أن يحلّها، وخاصّة تلك المُترافقة مع شربِ الكحول. مُوكّله ماريو إنريكي لوبيز مالك محال ساهيتاريو للأثاث، على سبيل المثال، قبل أن يُقدِم على اتّخاذ أيّ قرار حاسم يقوم بكرعِ نصف زجاجةٍ من الرمّ على الأقلّ.

العلاقات العامّة في مكتبِ المُحاماة اعتمدت بشكلٍ كاملٍ على فصاحةِ وكاريزما المُحامي مارتينيز، لكنّ مصاب اللسان أودى

بهذهِ الميزات إلى غيرِ رجعة. لدى سماعهِ لصوتهِ الغريب اعتقد بأنّ لصّاً أصمّ وأبكمَ قد احتلّ جسده، ولمّا نظر في المرآةِ اصطدم بوجهٍ منتفخٍ بشكلٍ زائدٍ عن المُعتاد مُتكدّرٍ ومُتمرمِر مع فمٍ ملوثٍ بالحلوى.

أمام عجزهِ عن رفعِ صوتهِ كما اعتاد أن يفعل، أفرغ رامون غِلّهُ في مِقود السيارة جاعِلاً من سيّارته تنفعلُ بدلاً منه فانهال يضربُ منبّه السيّارة قاصداً بذلك ضرب السائقين الغافِلين عن المتابعة إذا ما سمحت الإشارة الضوئيّة، ثمّ أيضاً ليُبعِد المُشاة المُتباطِئين في العبور، أو ببساطةٍ ليُفرغ غضبهُ تماماً عند ساعةِ الذروة للازدحام المروري. صوتُ الزمّور الحادّ والمتواصل كان تذكيراً مُزعِجاً بأنّهُ لم يكن خلف مقودِ السيارة الألمانيّة الفخمة التي رغب دائماً باقتنائِها، إنّما على متنِ النسخة اليابانيّة المُقلّدة ذات قوّة الدفعِ الرباعيّة مع مقاعد من الجلد المُقلّد.

يوم الجمعة، الخامس عشر من ديسمبر، انتهت أخيراً أطولُ فترةِ انتظارٍ وُجِدت في التاريخ. خضع رامون لعمليّةِ تنظيرٍ مُؤلمة حيثُ استأصلوا لهُ بعض الميلّيمترات من اللسان بواسطةِ إبرةٍ غليظة. في الطابق الارضيّ للمستشفى قام فريقٌ من المختصّين في علمِ الأمراضِ والأوبئة بتحليل العيّنة بواسطة بعضِ المُستضّدات من أجلِ الكشف عن طبيعتها تحت ضوءِ الميكروسكوب. أُرسِل التقرير إلى عيادة طبيب الأورام. هناك على سطح مكتبه قبع ينتظرُ أن يُفتح ليشرح الطبيب النتائج أمام مريضه. من أجل أن يتمّ ذلك لا بدّ من الانتظار مُجدّداً لساعاتٍ إضافيّة.

وصلا مُبكّرَين إلى الموعِدِ المُحدّد وجلسا إلى جانبِ حوضِ السمك الكبير الذي زيّن الصالة. تناولت كارميلا مجلّة وبدأت بتصفّحها بينما حدّق رامون في حوضِ السمك وبدأ يُفكّر بالآثارِ السلبيّة لتغيّبِهِ عن العمل، وبدا لهُ أنّهُ من المُهمّ -وقد اقترب عيد الميلاد- أن يُبادر بإهداءِ زبائنِهِ سلالاً غذائيّة كعرفانٍ وشكرٍ لهم على صبرهم ووفائهم للمكتب. كان رامون يتميّزُ بحسنِ تعاملِهِ مع زبائنه، أسلوبٌ مزج فيه بتوازنٍ فريد بين المديح والاستخفاف. بنظرِ الآخرين لم يكن مُتملّقاً ولا انتهازيّاً أو فاسِداً. عمل دوماً بالتزامٍ كبيرٍ تجاه القوانين التي احتوت على ثغرات يُمكن من خلالها أن تُخترق. القوانين المحليّة والاتّحاديّة كانت تعجّ بالثغرات والتناقضات لدرجةِ أنّ أضلع القُضاةِ والمحلّفين وأقدرهم لم يكن بإمكانهم محاربتها دون جدل. رامون كان على ثقةٍ تامّة بأن -بفضل سجلّه النظيف- سمعتهُ لن تتضرّر بفعلِ هذهِ الانتكاسة المرضيّة.

حوضُ السمكِ شغل رامون للحظات، في داخلِهِ سبحت عشراتُ الأسماكِ المُلوّنة بشكلٍ دائريّ فوق صخورٍ صغيرةٍ وشِعابٍ مرجانيّةٍ مُثبّتةٍ في القاع كرقصةٍ تبعث على النعاس. كيف يُمكن أن يُوجد في البِحار ذلك الكمّ من التنوع الزخرفيّ الهائل؟ عزا البيولوجيون ذلك لِقوى الطبيعة، قوّة بطيئةٌ وعشوائيةٌ راحت تُشكّلُ وتُكوّنُ شيئاً فشيئاً وجه جميعِ الحيوانات، وكانت قادرةً على تحويلِ أعتى الديناصورات المُتوحّشة إلى مُجرّد دجاجات مُدجّنة. كل دجاجةٍ مشويّةٍ هي بمثابة تذكير مؤلم كيف أنّ الحياة تدور دورتها. قاطعت كارميلا تأمّلاتِهِ بأنّ أمسكتهُ من ذراعِهِ بحميميّة وقالت: انظر! بينما

أرتهُ صورةً في المجلّة المفتوحة بين يديها لزوجينِ شابّينِ أمام قصرٍ ما. أتذكُر؟ أطرق رامون رأسهُ وراح يتذكّرُ رحلة شهرِ عسلهِ إلى فرنسا. قلبت كارميلا الصفحة فظهر الزوجانِ في مكانٍ آخر عاريين تقريباً مُتمدّدين تحت أشعّة الشمس على متنِ يختٍ، وحسب ما ذيّلت به الصفحة كانا من نبلاء إسبانيا خلال شهر عسل.

مفهوم «النبلاء» من وجهةِ نظر رامون كان مفهوماً رجعيّاً ومثيراً للاشمئزاز. رامون وكارميلا كانا قد تعارفا قبل عشرين عاماً أمام واجهةٍ زُجاجيّةٍ عُرِضت داخلها بعض الحلويّات، في حفلةِ عيد ميلاد لويس صديقه في دراسة المُحاماة، لفتت انتباههُ منذ أن وصلت. بكأسٍ من الشراب في يده انتظر اللحظة المناسبة ليقترب منها، وعندما رآها تفترقُ عن أصدقائها وتتّجه نحو طاولته فاجأها قائلاً:

«هل تذوقتِ شطيرة النقانق؟»، سألها بنبرةِ صديقة جازماً بأنّ أفضل طريقةٍ لكسرِ الحواجز هي عن طريق المِعدة.

كان هنالك احتمالان لا ثالث لهما لإجابتها: أن تكون قد تذوّقت شطيرة النقانق أو ببساطة أنّها لم تفعل، النباتيّة لم تكن ظاهرةً معروفةً في ذلك الوقت، لذلك لم يكن هذا واحداً من الاحتمالات المطروحة. بالتالي تتمخّضُ عن هذينِ الاحتمالين أربعُ إجاباتٍ مُحتملة: إن أجابت بنعم أي أنّها فعلاً تذوّقت شطيرة النقانق وقد أعجبتها ففي هذهِ الحالة يُمكن للمغازلة أن تستمرّ مُتّخذة شكلاً جريئاً. إن كانت تذوّقتها ولا تريدُ التعليق على الأمر فعلى رامون في هذه الحالة أن

يتقدّم بِحذر. أما إن لم تكن قد جرّبتهُ بعد وتُفضّلُ ألّا تفعل، توجّب عندها إجهاضُ المحاولة. الاحتمالُ الأخيرُ أن تكون لم تتذوّقهُ بعد وأنّها في طريقها إلى فعلِ ذلك، وفي هذه الحالة لم يتبقّ سوى القليل لإحراز النصر. لطالما اعتقد رامون بامتلاكهِ السيطرة التامّة على جميعِ العوالمِ المُحتملة لكنّهُ لم يتوقّع بأنّ جوابها سيكون تحليليّاً:

«أجل، النقانقُ كانت جيّدة لكن الشطيرةُ لم تكن كذلك!».

«حقّاً؟»، سأل رامون مُتفاجئاً.

«كانت كالعلكة!»، أضافت تشرح.

«لِنرَ!»، قال بكبرياءٍ مُحطّم، «سأتذوّقُ شطيرةً أُخرى لأتأكّد من ذلك».

«أجل، تأكّد من ذلك»، أضافت، ثم أدارت ظهرها وانصرفت إلى زاويةٍ أخرى في الحفلة.

بقي رامون بمفردهِ مع طبقٍ بلاستيكيٍّ طافِحٍ بأطايبِ الطعام المكسيكيّ واتّخذ في وقوفهِ المُنفرد نقطةً استراتيجيّة بحيثُ يمكنهُ أن يرى كارميلا دون أن يزيح نظرهُ عنها.

أدخل رامون الشطيرة في فمهِ وعلكها ببطء، ثمّ ترك طبقهُ وحيداً على أحدِ الرفوفِ واقترب إلى حيثُ تقفُ كارميلا.

«المعذرة!»، قاطعها، «أريدُ أن أخبركِ بأنّه كان لديكِ كلّ الحقّ في ما قلتِه عن الشطيرة، ما حدث هو أنّ الشطيرة قد بردت ولم يعُد لها الطعم الشهيّ ذاته. الحقيقة أنا من أحضر الشطائر».

«آه اعذرني لم أكن أعلم ذلك!»، قالت مُتفاجئةً بهذا الشاب الذي بدل أن يصِل الحفل وبيدهِ زجاجة ڤودكا وكيسٌ من الثلج، قد كلّف نفسهُ بإحضارِ شطائرِ النقانق.

«لا عليك، على العكس من الجيّد أنّكِ أخبرتِني، لا يُمكن أن تتخيّلي كم كان طعمُها لذيذاً عندما انتهيتُ من تحضيرها، لقد قلتُ لِلويس، بالمناسبة هو صديق الروح: لا تقلق أبداً سأحضرُ معي أفضل شطائرِ نقانق في البلد بأكمله، لا بل في المُقاطعةِ قاطبة».

«إلى هذا الحد؟».

«وأبصم لكِ على ذلك عند كاتبِ العدلِ أيضاً!»، أجاب، «لكن طبعاً بشرطِ أن تكون طازجة!».

هي، التي كانت محاميةً أيضاً ورئيسها في العملِ كان كاتب عدل؛ انفجرت بالضحكِ عندما تخيّلت فكرة أنّ كاتب العدلِ هو من سيُحدِّدُ جودة الشطيرة.

ضحكةُ كارميلا الجريئة عطّلت خطّة رامون وبقي هناك متأملاً باندهاش وإعجابٍ رسم شفتيها وصفّ الأسنانِ الأنيقة المُتناسِقة والتظليل أعلى عينيها المصريّتين الفرعونيّتين وكأنّ جمراً اشتعل في صدره. ظلّ صامتاً وحاول إخفاء نظراتِهِ بالتحديقِ في أرابسك السجّادة. ماذا أقولُ الآن يا ترى؟

لكنّها قالت:

«من أين اشتريتها؟».

«إنّهُ سِر!»، أجاب بوضوحٍ مُفاجِئ.

«آه! هكذا إذن؟».

«حتى أنّي لا أعرفُ اسمك..».

«كارميلا.. وأنت؟».

منذ تلك اللحظة لم يتعثّر رامون مُجدّداً وصار مُثيراً ولمّاحاً وظريفاً. جمع في حديثِهِ بين الحكايةِ الطريفة وأسئلةِ المُلاطفة وأتقن كبح الإسهابِ الذي كان أحد صفاتِهِ المُميّزة. حدّثتهُ كارميلا عن مشاريعها المُستقبليّة كمُحامية مدنيّة، كانت حادّة الذكاء وكان رامون سعيداً بِرفقتها لدرجةِ أنّهُ لم يُجازِف بالعودةِ إلى طاولةِ الحلويات كي لا تضيع منهُ. وعلى الرغم من أنّهُ في النهاية لم يحصُل على الكثيرِ من الطعام واكتفى بأقلّ كميّةٍ منهُ، إلّا أنّهُ خرج من الحفل مُنتشياً. في يوم الإثنين التالي تلقّت كارميلا باقةً من الزهور في مكتبِ العدلِ مُرفقةً ببطاقةٍ تعريفيّة كُتِب عليها بأحرفٍ مطبوعةٍ ومُنمّقة «من المُحامي رامون مارتينيز» وفي أسفلِ البطاقة كُتِب بخطّ اليدِ اقتباسٌ من أغنيةٍ لأرماندو مانسانيرو «إذا ما رأيتُ الوردَ أكثر جمالاً واحمراراً فذلك لأنّي أُفكّرُ بك». لم تعرِف هي من كان صاحب المقولة، وفي نفس الوقت لم تكن مُهتمّة بمعرفةِ ذلك على الرغم من أنّ ثقافتها الرومانسيّة كانت ترجعُ لفرقِ كميكانو وبرسينتوس أمبليكادوس (تورّط مزعوم) المُصنّفين كطرازٍ قديمٍ شبيهٍ بطرازِ فرق موسيقى البوليرو المحليّين. عندما اتّصل رامون في اليوم التالي لمعرفةِ إن كانت قد تلقّت الزهور، شكرتهُ بصوتٍ

يشي بالخجلِ، وبعدها دعاها إلى تناولِ العشاء مساء الجمعة فقبِلت الدعوة.

وصل رامون إلى منزلِها في الوقتِ المُحدّد لاصطحابها. أنطونيا، والدة كارميلا، فتحت الباب وبالطبع من وقف أمامها لم يكن ذاك الشاب الأنيق الوقور الذي تخيّلتهُ، بل شاباً خلاسيّاً مع ابتسامةٍ تنتمي إلى الطبقةِ الوسطى، وبالتأكيد لونُ بشرتهِ السمراء كان مُعاكِساً لتوقّعاتِها العُنصريّة. لم تعرض عليهِ الانتظار في الداخل، «انتظر دقيقةً من فضلك»، قالت لهُ حماته المُستقبليّة وتقصّدت أن تترك الباب نصف مفتوحٍ في وجهه.

كان رامون يقفُ على الرصيف بانتظارِ أن تخرج كارميلا من منزلِ أهلها عندما مرّ من أمامهِ زوجانِ عجوزانِ دخلا كطيفٍ بطيءٍ إلى صالةِ الانتظار في عيادةِ الطبيب. ألقيا تحيّةً حميميّةً على سكرتيرة الدكتور ألداما وجلسا مقابل كارميلا ورامون. مُراقِباً ببطءِ الرجل وحذره عند الجلوس، توقّع رامون أنّهُ يُعاني من سرطانِ البروستات. يا لهُ من عجوزٍ مسكين، فكّر رامون مُتعاطِفاً، عليهِ أن يجلس حتّى يتمكّن من التبوّل. عليّ أن أُراجِع طبيب البوليّة، لا بدّ أنّ البروستات قد بدأت بالتضخّم عندي أيضاً، إنّهُ أمرٌ طبيعيّ لكنّ التفكير في أمرِ أنّهم سيُدخِلون أصابعهم.. أتمنّى ألّا يُعجبني ذلك.

ما أبعدهُ في هذه اللحظة، حيثُ ينتظرُ برفقةِ كارميلا ليدخُلا إلى طبيب الأورام، عن ذلك الشاب رامون الذي كان يتهيّجُ لمُجرّد رؤيتها تخرج من مكتبِ العدل مُرتديةً الروب الأسود. بعد مرورِ

شهرين على اللقاءاتِ العظيمةِ كانت هي من عرضت عليه «دعنا نذهبُ إلى مكانٍ آخر». أخذها رامون إلى فندقٍ على الطراز الرومانيّ وتعرّيا دون أية إضاءةٍ بين ملاءات السرير الأنيقة لغرفةِ النزل المُظلمة بينما راح يُقبّلها بعطشِ ثمانية وعشرين عاماً. سمع صوت السكرتيرة المُرتفِع يُنادي باسمهِ بعد عشرين عاماً على تلك الليلة مُعلنةً أنّ دورهُ قد حان لاستشارةِ الطبيب ألداما.

(٢)

تيريزا دي لا فيغا، المُحلّلة النفسيّة، تستقبلُ مرضاها في عيادةٍ تُطلّ على البيتِ القديم الذي أورثها إيّاهُ والداها. في عمر الرابعة والأربعين خضعت لعمليّةٍ استئصال غدد الثديين، أربع عشرة من الغدد اللمفاويّة مع الحلمتين والثديين. كانت نظرتها الثاقبة والعميقة نظرة من تذوّق طعم الجمالِ والذكاءِ لكن ليس السعادة. زواجها الوحيد الذي تمّ قبل خمسة عشر عاماً انتهى بعد ثمانيةِ عشر شهراً من حدوثه وذلك بسببِ شخصيّةِ زوجها الفصاميّة، كان طبيباً نفسيّاً مُدمِناً على المُخدّرات وأيضاً بسببِ علاقةٍ رومانسيّةٍ لتيريزا مع طبيبٍ نفسيٍّ أكثر شهرةً وجاذبيّةً من الأخير. لم تُنجب أطفالاً من زوجها. بعد طلاقِها تابعت تيريزا لقاءاتها مع عشيقها في السرّ، فقد كان متزوّجاً أيضاً وفي مناسباتٍ مُعيّنة عندما كان يُداعِبُ صدرها بعنفٍ كانت تشعرُ وكأنّ يدهُ ترتدّ عن صدرها برعبِ من لامس حشرة فكان العشيقُ يستمرُّ بتعرِيتها ومُداعبتِها دون أن يعود إلى ذلك الجزء مُجدّداً.

ذات مرّة تظاهرت بوصولِها إلى النشوة لكي ينتهي الجماعُ سريعاً، دخلت الحمّام وبدأت بلمسِ وتفحّصِ جسدِها أمام المرآة، وحالما لامست تكتّلاً صغيراً وقاسياً عرفت بأنّ الحِكاية ستتكرّر، فأمّها وأختها كانتا قد أصيبتا بسرطانِ الثدي. خوفها من المرضِ كان كبيراً جدّاً لدرجة أنّها بدلاً من متابعتهِ وإجراءِ الفُحوصات الدوريّة اللازمة والأشعّة، دائماً ما تجنّبَت لمس ثدييها، لم تكن تتخيّل أن يكون ذلك الرجل الڤيتناميّ ذو الكفّين الشبيهتين بكفّي خبّاز، هو من سيضعها مباشرةً ودون قصدٍ مع ذلك الحظّ التعيسِ بجذورهِ المُمتدّة إلى ما هو أبعد من تلك الذكرى المؤلمة التي احتفظت بها عن والدتها ممدّدة على سريرِ المرض، بل ربّما أبعد بكثير ليصِل إلى القبائل اليهوديّة في إسرائيل قبل ثلاثةِ آلافِ عامٍ على ميلاد تيريزا. هنالك على ضفّة نهر الأردن عاشت جدّتها البعيدة التي كانت ربّما راعيةً أو حائكةً للصّوف، محاربةً أو عاهرةً، والتي هي موطن الطفرة الجينيّة الأساسيّة. هل كان في زمن العهد الثاني للمُلكيّة خلال عهدِ الأمازيغيّين؟ ربّما من يدري. حدث أنّهُ في لحظةٍ غير مُحدّدة في أحدِ الصباحات وبينما كانت في طريقِ ذهابِها أو إيّابِها من أو إلى النبع أو عندما كانت تُصلّي أو وقت إعداد الطعام أو عندما كانت تُحيك ثيابها، بدأت إحدى خلاياها الجرثوميّة بالانقسام، وعلى مدارِ يومٍ كاملٍ عملت تلك الخلايا على طباعةِ المعلوماتِ وكتابةِ القوانين التوراتيّة الجينيّة، ثمّ في خضّم كل هذا تسلّل خطأ شبيه بالخطأِ الحاصلِ إذا ما نسي ناسِخُ نصِّ الوصايا المُقدّسة أن يكتب الـ«لا» التي تظهرُ في الجزءِ رقم ٢٠ ترنيمة ١٣ لتُصبِح الوصيّة

المُقدّسة «ستقتُل». كانت نسبة احتمالِ تكرارِ هذا الخطأ ضئيلة وهذا يعودُ لكونِ الخليّة حقيقيّة النواة تمتلكُ خدعاً لتصحيح الجينات وفي حالِ كانت تلك الجينات خاطئةً لدرجةٍ غير قابلةٍ للتّصحيح على الإطلاق فهي لا تتردّدُ في الإقدامِ على الانتحار انتحاراً مُبرمجاً وإيثاريّاً، لكن تلك الخطيئة الإنجيليّة انتحرت بالتحديد في رحلةٍ مُخصّصةٍ لمنعِ الخلايا المغلوطة من الانتشار وإقامةِ وحداتٍ عشوائيّة في ثدي إحدى الحيوانات المنويّة.

الجين المُتورّط في ذلك تمكّن من تسجيلِ نفسهِ في لغةِ العلم عام ١٩٩٠، وأُطلِق عليه دون عناءٍ أو تمحيص سرطان الثدي Brest cancer. لقد حدثت الطفرة الجينيّة الأولى نتيجة نسيان مجرّد حرفين بسيطين (الأدنين والجوانين)[1]، يتواجدان عادةً على مقربةٍ من بدايةِ انقسام الجين المغلوط. النصّ الخاطئ تحوّل إلى خطأٍ أبديٍّ بسببِ أنّ مضيفهُ أحدث مسافاتٍ طِباعيّةٍ مُتباعدةٍ ليصِل أخيراً إلى جسدِ معالجةٍ نفسيّةٍ شابّة في المكسيك.

عندما كان العظيم نبوخذنصّر قد وصل إلى عرشِ مملكةِ يهوذا، كان أولادُ تلك الطفرة الجينية قد تكاثروا والكثير منهم كانوا قد وقعوا أسرى واقتيدوا إلى خارجِ حدودها حيثُ توجد بابل. هنا بدأ انتشارُ الجين الخاطئ في أراضي إيران ومصر وإيبيريا وهولندا وبلغاريا، إذا ما بحثنا ضمن جماعة يهود السفارديم في منطقة بحر

(١) الأدنين والجوانين: من ضمن القواعد النيتروجينيّة الأربع التي تدخل في تركيب الدنا (الحمض الريبي النووي منقوص الأكسجين).

إيجة أو اليهود الأشكناز في نيويورك سنجدُ ذاك الجين الخاطئ في واحدٍ على الأقلّ من كلّ مئة مريض من المحافظين على تقليدِ يوم الشبات (طقوس يوم السبت اليهودي). لكن تيريزا دي لا ڤيغا لم تكن يهوديّة، أبواها كانا مسيحيّين كاثوليكيّين بعيدين عن التعصب، يُؤمنان بالعذراء غوادا لوبي، قوميين أيضاً، بالإضافةِ إلى أنّهما، ولأسبابٍ غامضةٍ، كانا مُعادِيين للسّامية.

لم تتخيّل يوماً أنّه ستوجد في شجرةِ عائلتها أصولٌ من مجموعةِ يهود قشتالة الأوائل، ممن هاجروا من زمن الحقبةِ الرومانيّة وسكنوا المدن. المحافظون الذين ظلوا على مسافةٍ من حركاتِ المقاومةِ الشعبيّة، كانوا أوفياء للقوط وللخليفة على حد سواء. أولئك الذين على هامش الحياة اشتغلوا وتعلّموا القراءة والكتابة وتزاوجوا في ما بينهم سرّاً وكوّنُوا ثرواتٍ وصاغوا عاداتٍ وتقاليدَ وتزايد عددُهم؛ نضج الحسد تجاههم وشهِد على ذلك القرن الخامس عشر، فقد اتُّهموا وأُدينوا بقتلِ يسوع المسيح وكذلك اتُّهموا بالازدهار والغِنى وبأكلِ أطفالِ طليطلة وبسحر عذراوات إشبيلية وبحرقِ الصليب كما بامتلاكِ أنوفٍ كبيرةٍ وباللواط وبأنّهم لا يأكلون لحم الخنزير ويشتركون في أعمالِ الربا مع لوسيفر سارق النار.

في العام ٥٢٥٢ في التقويم العبري أعطاهم فرناندو الثاني ملك أراغون وإيزابيلا الأولى ملكة قشتالة مهلة أربعة أشهر فإمّا أن ينبذوا دينهم اليهوديّ ويتخلوا عنه أو أن يرحلوا. ضِمن جماعةِ المُرتدّين، البائسين ربّما، وُجِدت امرأةٌ مُعمّرة طويلة القامة تدعى لورنسا، جارة سُوزيا، هي أمٌّ لأحد عشر من الأولاد، أرملةُ رجلٍ

يُدعى مانويل، وعلى وشكِ أن تُكمِل عامها السبعين. بدأت تشعرُ بعوارضِ ألمٍ حارقٍ في مُقدّمةِ وأسفلِ الثدي ومرّت الأسابيع والألمُ الحارق يشتدّ ويمتدّ حتّى الإبطين. هرعت لورنسا إلى هرمينا تاڤاريس، مسيحيّة مُنفتحة ومُشعوذة لتجد لها دواءً للألم والانتفاخ. هرمينا حضّرت لها جرعةً من الدواء مقابل ثلاث قطعٍ نقديّةٍ من المرافيدي (دينار مرابطي أندلسي) وقرأت لها تعويذة ليذهب الحزن والمزاج السيّئ. عندما بدأت لورنسا تُعالِج السرطان بمرهمِ الثوم وعشبةِ البيلادونا (الباذنجان المميت) كان الورم السرطاني قد انتشر إلى الدماغ فبدأت تُعاني من الصداعِ المُترافقِ بالهلوسة.

ذات مرّة همّت تبحثُ في كومةِ القشّ أسفل فراشِها عن سكّين لتحزّ عنقها، بعدها جاء ملاكُ الرب ليُهدّدها لأنّها خانت عهد قبيلتها، لكنّها صرخت تنفي لملاكِ الرب أنّها فعلت ذلك «ارحمني يا سيّدي امحُ خطاياي» والتمّ الجيران مُطلقين أبواق المحكمةِ المُقدّسة: تلك خنزيرة يتلبّسها الشيطان، عجوز آثمة، لقد عاقبها الله ربّنا وسيّدنا بـ zaratán[1] خبيث، فلم يكن من أولادها إلاّ أن ذهبوا إلى أرضٍ بعيدةٍ عن البلدة وقاموا بتكميم فمِها بكمامات حضّرتها هيرمينا من الخشخاش لتهدئتها.

تُوفّيت في بداية الشتاء. دفنها أولادها تحت شجرة زيزفون وصلّوا عليها بهمسِ صلاتهم الكاديش (صلاة القدس باللغة

---

(١) «Zaratán»: كلمة عربيّة الأصل «سرطان»؛ استُخدِمت في اللغة الإسبانيّة للدّلالة على سرطان الثدي بالتحديد.

الآراميّة). هكذا ظلّت عائلة لورنسا موسومة بالشكوك وبقي الناس يبصقون عليهم إذا ما مرّ بهم أحد أفرادها.

أنطونيو بنحامين كان أوّل من رحل عن البلدة من أبنائها ووصل إلى قادس في شهر فبراير. لم يسبِق لهُ أن زار شاطئ البحر من قبل، بدا لهُ كحقلِ قمحٍ محروق. مع بداية شهر مارس أبحر على متنِ واحد من أفقر مراكب أسطولٍ بحريّ للهنود الأصليّين كان مُتّجهاً إلى إسبانيا الجديدة حيثُ مناجم الذهب والفضّة، هذا ما شاع حينها في التجمُّعاتِ عن المناجم التي تنبثقُ من الأرض مثل جذور اللفتِ في الأرضِ الجافة. قضى أربعين يوماً في ألتيار يُعاني الحمّى والكثير من الجوع ويُروّحُ عن نفسهِ بلعبِ الورقِ وتأمّلِ المراكب العملاقة للأسطول التي كانت تشقّ البحر دون أن تخلّ بالنسقِ بأشرعتِها المُنتفخة جهة الغرب مُخلّفةً عجاجاً من الرغوة المضطّربة. كان هذا ما حلم به، سفينة محمّلة بالطموح والآمال تُبحرُ بهِ نحو النسيان، نسيان دمهِ، صلة رحمهِ، لكنّ دمه أبحر معه على متن السفينة، سائله المنويّ وعصارة ذاكرتهِ وطفراتهِ الجينيّة.

وصل أنطونيو إلى شاطئ فيجاريكا في مدينة ڤيراكروس، ثم هرب من الجزيرة المُخيفة على متنِ عربةٍ مُتّجهةٍ إلى العاصمة، بعد ثلاث سنواتٍ شاقّةٍ وعصيبة كافأتهُ الحياة بأن تعرّف إلى فتاةٍ ذات أصول هجينة كانت ابنةً لرجلٍ أستوريّ[1] وإمرأة مكسيكيّة، نصفُ

---

(١) أستوريّ Asturiano: نسبة لمنطقة أستورية أو أستورياس. شعوبٌ سكنت منطقة شمال غربِ إسبانيا منذُ العصرِ الحجريّ الحديثِ إلى اليوم. وجاءت التسمية نسبةً لنهرِ أستورا المعروف بنهر إيسلا اليوم.

عالمٍ اختُصِر في اجتماعِ جيناتهما المُمتدّة من أصولٍ يهوديّة، أستورية، تكسكوكوية[1]. الذي تذكّرهُ هو جسد تيريزا، عقب ثلاثة عشر جيلاً من ذلك اللقاء.

لم تتكلّف تيريزا عناء إتمامِ المُعاملة التي لا لُزوم لها واستشارة طبيبها النسائي بل بحثت عن طبيبِ الأورام الذي عالج والدتها واتّصلت لحجزِ موعدٍ معهُ. صورةُ الأشعّة كانت واضِحة: ثلاث كتلٍ سرطانيّة في القنوات الناقلة في الثدي الذي لم يحظَ يوماً بالرفاهية الصحيّة التي تمنحُها الرضاعة الطبيعيّة. بعد إنجازِ عمليّةٍ أولى وعشر جلساتِ أشعّة عادت تيريزا مُجدّداً لجلسة معاينة الطبيب. خلال مرحلةِ العلاج كانت قد تعرّفت على عدّة نساءٍ كنّ يقاومن الاستسلام المعنوي أمام المرض. قدّمت لهنّ دعماً معنويّاً ونفسيّاً دون مُقابِل. من هنا بدأت اختصاصها بالطبّ النفسيّ لمعالجة النساءِ اللواتي يُعانين من آثاره. هكذا وعبر أروقةِ المشافي ذاع صيت تيريزا الطبيبة التي تُساعدُ النساء الحزينات ممّن فقدن أُنوثتهنّ نتيجةً للسرطان. عددٌ من الرجال أيضاً بدؤوا بالتوافد إليها، أحدهم كان ناجياً من سرطانِ المريء وآخرُ يحتاجُ إلى مساعدةٍ كي يُقلِع عن التدخين وثالثٌ حاول الانتحار عندما اكتشفوا له سرطاناً في قضيبِهِ ورابعٌ كان قد فقد توأمه إثر سرطان، على هذا المنوال اتّسع

(١) شعوب تكسكوكو أو reczcuco - Texcoco: أطلِقت التسمية على سكّان المكسيك الأصليين أو ما عُرِف بـ (chichimecas) الذين استوطنوا وسط وجنوب المكسيك وقاوموا الوجود الإسبانيّ الذي استهدف الاستيلاء على مناجم الفضّة في أراضيهم. أمّا المعنى الحرفيّ للكلمة فهو «مكانُ تجمّع» شعوب تشيشيميكاس في ما كان يعرف آنذاك بإسبانيا الجديدة.

نطاقُ مرضاها حتّى باتت تستقطبُ حالات غاية في التنوّع كمرضى اللوكيميا من الأطفال ومرضى الوسواسِ القهريّ الذي فجّرهُ مسلسلُ الدراما التلفازيّ «دكتور هاوس».

في محاولةٍ منهم لفهمِ المُصيبة كان المرضى يسألون أنفسهم «لماذا أنا؟»، لكن تيريزا التي كانت قد رمت هذا السؤال الأنانيّ منذ سنواتٍ طويلةٍ في حاويةِ القمامة حاولت جاهدةً أن تقودهم إلى مستوى آخر في التفكير على ما يبدو، إلى ذلك القبوِ حيثُ الرغبات غير المُحقّقة التي تغذيّ الخوف لديهم.

(٣)

تساءلت كارميلا كثيراً عن كيفيّة إخبار «الأولاد» متجاهلةً فكرة أنّ ماثيو قد بلغ الثامنة عشرة من العمر وباولينا الخامسة عشرة. مع بدايات الألفيّة كانت المُراهقةُ بمثابةِ امتدادٍ لانطوائيّةِ الطفولة، ولم يكن «المراهقون» سوى لفيف من المُدلّلين ومن بينهم كان ماثيو وباولينا، إلّا أنّه وعبر طرقٍ مُختلفة انحرفت البراءةُ لتتحوّل إلى منابعَ للشهوة، والعذوبة تحوّلت إلى بثورِ حبِّ الشباب.

«مرضُ والدكما أكثر تعقيداً ممّا توقّعنا.. ظهر لديهِ ورمٌ في اللسان ولسوءِ الحظّ فإنّ الطريقة الوحيدة لوقفِ انتشارهِ هي استئصالهُ عن طريقِ إجراءِ عمليّةٍ، سوف..».

ساد صمتٌ مُقلِق للحظات.

«ماذا؟». قالت باولينا.

«يجبُ استئصالُ كامل اللسان»، تابعت كارميلا بحزن، «استشرنا ثلاثة أطبّاءٍ حتّى الآن وجميعهم أكّدوا لنا صحّة هذا الرأي،

لا توجدُ وسيلةٌ أخرى فالورمُ متواجدٌ في مكانٍ يُؤثّرُ على ما حوله ولا يُمكن المخاطرة بإبقاءِ أيّة قطعةٍ منه، بعد ذلك يصيرُ بالإمكانِ الحدّ من انتشارِهِ عبر جلساتِ الأشعّة».

«لكن.. ليس هنالك وقت أليس كذلك؟».

رامون الذي مكث حاضراً غائباً بنظرةٍ مُسمّرةٍ على السجادة هزّ رأسهُ بالإيجاب.

«أتمزحين؟»، قال ماثيو، «لقد استأصلوا المرارة لصديقي رافا (اختصار لرافائيل) عبر ثقبين اثنين فقط! وما هُما إلّا ثقبين.. لا شيء! كيف لا يكون بوسعهم فعل شيء في حالة أبي؟».

«قلنا الشيء ذاتهُ للأطبّاء ولكن.. لا فائدة».

«وكيف ستتكلّم؟»، سألت باولينا والدها. نظر إليها رامون نظرة التعِبِ الذي يُكابدُ المجهول دون راحة.

«هناك علاجاتٌ خاصّةٌ باللسان يُمكن أن تُساعده»، أجابت كارميلا.

«وكيف؟»، قالت باولينا. لم تكن كارميلا قد أجابت بعد عندما بادر ماثيو بالسؤال:

«ألا يُمكنهم أن يضعوا لهُ شيئاً مُناسِباً؟ سيليكوناً خاصّاً مثلاً؟».

انزعج رامون من نبرةِ صوتِ ماثيو الزاعقة وطريقته الفظّة والبليدة التي تُشبهُ تلك الموسيقى الصاخبة و«القُمامة» التي يستمعُ

إليها طوال الوقت، «سوف تُصابُ بالطرش»، كان قد حذّر ابنهُ مرّات عدّة لكنّهُ لم يتوقّع أنّه وقبل أن يحدث أيّ شيءٍ من ذلك لابنِهِ سوف يخسرُ هو صوته. حاول رامون ألّا يُفكّر في هذا الأمر لكون جميعِ السيناريوهات التي تخيّلها جعلتهُ يندم على قبولهِ بالتدخّل الجراحيّ الذي لاح كقرارٍ سهل: البقاءُ على قيدِ الحياة أو لا شيء.

لم يكن في متناولهِ أيّ خيارٍ آخر في مثل وضعهِ كمحامٍ مستقلّ دون تأمينٍ صحيّ ولا معاشٍ تقاعديّ ودون أيّة إنتاجيّة ماديّة سوى فصاحتهِ وعملهِ في تمثيلِ القانون ضمن المحاكم. لكي يقمع قلقه اعتاد أن يلجأ إلى تشغيل التلفازِ ورفعِ الصوت إلى الأقصى، ربّما استطاع ابنه في ذلك الحال أن يقول لهُ مُؤنّباً: «سوف تُصابُ بالطرش»، وبالطبع فإنّ رامون سيتجاهلُ كلام مراهقٍ شابّ مُدانٍ بكونهِ قليل التهذيب لا فائدة تُرجى منه.

لم تتلعثم كارميلا عندما أخبرت إلوديا -السيدة التي تقومُ بأعمالِ التنظيف في المنزل- بأنّ رامون لديهِ سرطان في اللسان وبأنّهُ قريباً سوف يُنقلُ إلى المشفى لإجراءِ عمليّة حسّاسة، إلوديا عرفت في الحال أنّ الأمر امتحان من الله قد أرسلهُ إلى الأستاذ كي يدفعهُ إلى الإيمان. عندما نزل رامون لتناولِ الفطورِ استقبلتهُ إلوديا وباركته بإسرافٍ مُتعمّد تجاوز الطقس المعتاد فراحت تُمرّرُ يدها ببطءٍ مع رسمِ الصليب أمام وجههِ.

كان رامون شخصاً مُلحِداً مُتعنّتاً لكنّه يستوعبُ إفراط تديّن

إلوديا، فقد وُجِد في ما بينهما تواطؤ عتيق، عندما كانت كارميلا تكتشفُ أيّة مخالفةٍ مرتكبةٍ من قبل أحدهم في المنزل كمنشفةٍ موضوعةٍ في غيرِ مكانها أو بقعة متّسخة على الطاولة أو أغطية مجعّدة اعتاد أحدهما أن يُلقي باللائمةِ على الآخر بغرضِ دفعها للشّعور بأنّها ضحيّتا عُنفها المنزلي.

إلوديا كانت تصغر كارميلا بستّ سنوات، وكانت تلك الأخيرة قد تقاعدت مباشرةً بعد الانتقال إلى مسكنهم الأوّل الذي عاشوا فيه سابقاً. عندما حملت إلوديا من البستانيّ أجبرتها كارميلا على الإجهاض.

«أنا ارتكبتُ الخطيئة سيّدتي وليس الطفل!»، أجابتها إلوديا مصدومة من اقتراحِ كارميلا إجهاض حملها.

«ليس ذنبُ أحدٍ لكنّكِ في سنٍّ صغيرةٍ على الأمومة».

«العذراءُ أنجبت الربّ وهي في الخامسة عشرة.. تخيّلي مثلاً لو أنّ زوجها خوسيه قال لها: لا هذا ليس طفلي اذهبي إلى العيادة وأجهضيه. عندما نفكّرُ في الأمرِ قليلاً نعرف أنّهُ لا يجوزُ الإقدامُ عليه».

بعد ستّة أشهر من الحمل إلوديا وسالفادور البستانيّ تزوّجا في أتلاك مولكو القرية التي وُلِد فيها العريس والذي تبيّن لاحقاً بأنّهُ زوجٌ دنيء وخائن وسِكّير ومُتنمّر. إلوديا عاشت عشر سنواتٍ في زواجِ العقوبةِ ذاك حتّى جاء اليوم الذي «خرج فيه سالفادور عن السيطرة» لينتهي بها الأمر فاقدةً للوعي، ولدى رؤيتهِ لوجهها

المزرقّ وفمها الفارغ من الأسنان شعر رامون بعطشٍ كبيرٍ للانتقام وأكّد لها بأنّهُ سيتولّى أمر أن لا يضع ذلك المُجرِم قدمهُ مجدّداً في المنزل.

استعان بمعارفهِ في مكتبِ المُدّعي العام وطلب إليهم بعد تمرير ظرفٍ مليء بالأوراق النقدية أن يحقّوا الحقّ؛ «حطِّموا له خصيتيه» حدّد رامون لهم. منذ ذلك الحين لم تعاود إلوديا -كما حدائق وساحات البلدة- سماع أخبارهِ مُجدّداً. بعد عدّة سنوات وجد رامونُ إلوديا ذات صباحٍ تبكي في المطبخ، كانوا قد اتّصلوا بها من القرية ليخبروها أنّ والدتها تُعاني من نوبةٍ في الكِلى وقد غدت طريحة الفراش بلا حِراك.

«ساقاها متورّمتان جدّاً.. يلزمها غسيل للدم.. لكنّه يُكلّفُ كثيراً».

في ذلك الوقت كان رامون قد استبدل سيّارتهُ القديمة بأخرى أحدث وابتاع بطاقاتِ الطيران من أجلِ رحلة العائلةِ إلى كاليفورنيا.

«أحضريها إلى العاصمة»، قال لها دون أن يخفي قضمه لأنانيّته، «أنا سوف أساعدك في التكاليف».

هكذا تحوّل رامون لكفيلٍ للعجوز التي تُعاني من مرضِ السكريّ والتي ظلّت على قيدِ الحياةِ أحد عشر شهراً تخضعُ لغسيل الدم مرّتين في الأسبوع وتحتاجُ إلى عشراتِ الأدوية المُرخّصة. عندما تُوفّيت نُقِل جثمانها إلى مقبرةِ قريتها الصغيرة أيضاً على نفقةِ رامون. منذ ذلك الحين امتنانُ إلوديا لرئيسها في العمل اتّخذ شكل

الشرك الصادق فعلّقت في المذبحِ المنزليّ صورةً للأستاذِ على يسارِ الأبِ الرب، مع ذلك فإنّ قداسته، الأستاذ رامون، لم يتعب يوماً من إهاناتهِ المُتكرّرة للمُقدّسات بتكرارهِ أنّ الدين مُجرّد خدعة وأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة ليست إلا نادياً للمُتحرّشين وأنّ الإلحاد هو الحل الوحيد الذي بإمكانهِ إنقاذُ البلاد.

في إحدى المرات اتُهمت إلوديا بالسرقة، فقد اختفت ساعة رامون الذهبيّة الغالية على قلبه، قبل مواجهتها بالأمر طلب رامون إلى ابنته أن تُراقب تحرّكاتِ المُتّهمة وقدّم لها كمكافأةٍ بيت عرائس مقابل أيّة معلومةٍ قيّمة تأتيه بها. بعد مرورِ أسبوعٍ من العمل والمُراقبة كان التصرّف المشبوه الوحيد الذي استطاعت باولينا نقلهُ إلى والدها هو أنّ إلوديا كانت تقومُ بتعطيرِ الأسِرّة بسائلٍ شفّافٍ تحتفظُ بهِ في بخّاخٍ صغير، وعندما استُجوِبت بشأنهِ اعترفت بأنّهُ لم يكن سوى (ماء مُقدّس).

«وماذا لو كان الماءُ مُلوّثاً؟»، سألتها كارميلا.

«وماذا تظنين؟ أنّ فتى القسّ يملأ النافورة من ماءٍ مُقطّر؟».

في نهاية المطاف ظهرت الساعة من تلقاءِ نفسها في دُرجِ مكتبِ رامون حيثُ كان قد خبّأها بنفسهِ قبل ذهابهِ إلى تناول الطعام في اجتماعٍ دُعِي إليهِ في حيّ تيبيتو الأثريّ قبل عدّة أسابيع.

عندما مرِض رامون ذهبت إلوديا إلى مركز المدينة لتشتري صورةً لسانت بيريغران شفيع مرضى السرطان وعلّقتها على بابِ ثلّاجةِ عائلة مارتينيز بلاقطٍ مغناطيسيّ إلى جانبِ صورةٍ لمدينة أكابولكو،

وأسفل صورة تمثال القدّيس بيريغران كتبت آية مُقدّسة كانت إلودِيا تُردّدها كلّما أخرجت شيئاً من الثلاجة:

أيّها القديس بيريغران
أنت يا صانع المُعجزات
بحقّ المُعجزات الكثيرة التي وهبك إيّاها الرب
أنت يا من حلّ بك المرض السرطانيّ وشفاك الربّ عندما لم ينفع أيّ دواء
أنت المُختار الذي رأى المسيح ينزلُ من على الصليب ليشفيك
اطلب من الربّ ومن عذراء الصليب المُقدّسة الشفاء لأجل (اسم المريض)
آمين.
صلاةٌ وتسليمٌ على مريم.

ومقابل تحقّقِ مُعجزة شفاءِ الأستاذ المحامي رامون، كانت إلوديا مُستعدّة لأن تُضحّي بفاكهةِ الأفوكادو الأثيرة لديها ولكونها كانت من مُرتكبي الهفوات البريئة فقد كان بإمكانها دائماً أن تتجادل بشكلٍ أفضل من غيرها مع الأبِ الربّ.

مع اقترابِ موعدِ إجراء العمليّة كانت إلوديا ترفعُ سقف تضحياتها وانتهت إلى أن تتخلّى عن طبقِ التامال وجبن ريكوتا والفلفل الحار. كذلك فقد توسّلت إلى روحِ والدتها كي تشفع لسيّدها مُلحّة عليها أن تُذكِّر الرب كم كان السيّد رامون كريماً معها قبل موتها.

فرض التفكير الغيبيّ نفسهُ في منزلِ عائلةِ مارتينيز على الرغم من طبيعةِ تفكير رامون البعيدة عن السرياليّة وعن الطبيعةِ الخجولة لإيمان كارميلا. ولداهما يدرسان في مدرسةٍ كاثوليكيّة حيثُ كانا يحضرانِ القدّاس بانتظامٍ مع دوراتٍ إلزاميّةٍ عن الديانة المسيحيّة وجلساتٍ حواريّة ضدّ الجنسِ قبل الزواج. باولينا بدأت بزيارة مُصلّى المدرسة يوميّاً، وظنّ ماثيو أن الاستمناء يمكن أن يكون عائقاً أمام شِفاء والده ولأجلِ ذلك قرّر أن يتوقّف نهائيّاً عن لمسِ نفسهِ وعن زيارةِ المواقع الإباحيّة عبر الأنترنت. أمّا كارميلا فقد بدأت البحث بهوسٍ متفاقِم كي تعرف كم تبقّى من رصيدها في البنك كما لو أنّ مُعجزةً ما سوف تُضاعِف مُدّخراتها بين ليلةٍ وضحاها وتحلّ مشكلة انعدامِ القدرة الماديّة اللازمة لدفعِ تكاليفِ العمليّة الجراحيّة مع أسبوعين كاملين من المُتابعة لحالتهِ في مستشفى العاصمة.

عدمُ امتلاكِ تأمينٍ صِحيّ كان بمثابةِ لامبالاةٍ مطلقةٍ لدرجةِ أنّها خجلت من الاعترافِ بها أمام أصحابها وأقاربها، أنجيلكا أختها لم تقتصد في إظهارِ لامُبالاتها عندما هرعت إليها كارميلا راجيةً أن تقرِضها مبلغاً من المال «يُمكننا أن نساعد بخمسين ألفاً فقط» وفي واقع الأمر كانوا بحاجةٍ إلى عشرين ضعفِ ذلك المبلغ الذي عرضتهُ، أي ما يُعادل ما يجنيه رامون خلال عامٍ كامل والذي يجب أن يُحسم منهُ قسط المدارس وكذلك قسط السيّارة الجديدة والشاحنة والحواسيب الثلاثة التي اشتراها رامون في شهر يناير لولديه ومساعدته.

رامون أنفق كامل مُدّخراتِهِ في تجديد ديكور مكتبِهِ وكان عزيز النفس لدرجةٍ يصعب عليهِ أن يُفكّر باقتراضِ مالٍ من أقربائه. الأمل الوحيد هو بالتوجه إلى أخيه الأصغر إرنستو الذي أصبح مليونيراً على خلفيّة امتلاكهِ لمصنعِ عبوات البوليسترين، فبعد عدّةِ مداهماتٍ لشركةٍ تصدير النبيذ الإسبانيّ الرخيص التي امتلكها سابقاً ثمّ لشركةٍ تصنيع المُربّياتِ لمرضى السكر والتامال منخفض السعرات الحراريّة؛ راهن إرنستو على شركة البوليسترين، المعجزة الثلجيّة للبيتروكيمياء التي طوّرت من عالمِ الوجبات السريعة ولوحات عرض المشاريع المدرسية.

بدأ إرنستو بتصنيعِ عبوات «الاستخدام الواحد» عندما انتشرت الوجبات السريعة وخدمة التوصيل إلى المنازل، وبين ليلةٍ وضحاها تضاعف الطلب على منتجهِ ثمّ خلال أقلّ من عقدٍ من الزمن سيطر مصنع إرنستو أونيميكس UNIMEX S.A. de C.V. على سوق البوليسترين في المنطقة الوسطى لمركزِ العاصمةِ المكسيكيّة. منذ افتتاح مشروعهِ طلب إرنستو من شقيقه رامون أن يتولّى جميع الشؤون القانونيّة لشركته: العقود والقضايا وتصفية الحسابات. على عكسِ أخيه الأكبر كان إرنستو صاحب عملٍ بلا رحمة، يفتقرُ إلى النزاهة، مُدّعياً ومُضطرباً ومُحتالاً.

بعد أن ربح «بطُرقٍ مُلتويةٍ» عدداً لا يُحصى من القضايا لصالح أخيه، قرّر رامون ألّا يعمل معه مُجدّداً، «مشاكِلك لا تدعُ لي مجالاً للاهتمام بقضايا بقيّة المُوكّلين، سأبحثُ لك عن محامٍ آخر». «العائلة

أولا»، أجابهُ إرنستو، «أجل، لكنّك لا تُصغي إلى كلامي فأنت لا تتوقّفُ عن مُساومةِ المُوزّعين وطردِ العُمّال وتزويرِ الفواتير! لا أستطيعُ أن أستمرّ بالعملِ على هذا المنوال!». «حسناً، كم تُريد؟»، وانتهت المُحادثة إلى سيلٍ من الشتائم السوقيّة بكلّ معنى الكلمة كما لو أنّ إرنستو كان مُدمِناً على الكحول ورامون يُعاني من العجزِ الجنسيّ. لا بل كما لو أنّ إرنستو كان قوّاداً ورامون كان اللوطيّ الماجور! وبينما كان إرنستو يصفُ رامون بالأخرق والمُنافق والمُتعفّن من حسدهِ، أغلق رامون الهاتف في وجهه. مرّ عام على تلك الحادثة ولم يُعاود التواصل معهُ ثانيةً منذ ذلك الحين. كارميلا كانت واعيةً إلى أنّه، وإن لم يُقدِم زوجها على اقتراضِ المالِ من إرنستو، فقد وجب عليهما إعلامهُ بموعدِ العمليّة على الأقلّ وانتظار أن يُبادر هو في عرضِ دعمه.

رامون كان على قناعة تامة بأنّ إرنستو لن يفعل ذلك ووافق على أن تتّصل به كارميلا لكي تتأكّد من أنّهُ على حق.

«أخبريني.. بماذا يُمكنني أن أساعد؟»، قال إرنستو بقلقٍ صادقٍ على شقيقه الأكبر.

عرضت كارميلا لهُ الوضع فوافق إرنستو على إقراضهم المال مع شرطٍ وحيدٍ:

«تجنّباً لسوءِ الفهم»، قال لزوجةِ أخيه، «سنكتبُ سنداتٍ بالمبلغ الذي سأقرِضكم إيّاه وسنضعُ بيتكم كضمان وفي حالِ لم تجرِ الأمور كما يجب. يُمكننا رهنهُ أليس كذلك؟».

كان ذلك العرض الخبيث إهانةً لرامون، ذلك الأحمق لم يختبر في حياتِهِ معنى العمل والجهد حتّى أنهى دراسته. ومن الذي وفّر له كلّ احتياجاتِهِ خلال أعوامِ الدراسة ومن أخرجهُ من ذلك المأزق عندما أوقفتهُ الشرطة بينما كان يقودُ سيّارة أُمّنا في حالةِ سكرٍ تام؟ بالطبع أنا.. والآن يطلبُ منكِ أن تُوقّعي على سنداتِ أمانةٍ كما لو كنتُ مُجرّد سفيهٍ غريبٍ عنه؟ كان يجدرُ بهِ أن يُقرِضني هذا المال فقط مقابل وعدٍ بالسداد، ذلك فقط ما يدلّ على الثقةِ والامتنانِ الكبيرين. لن تُوقّعي لهُ شيئاً.. لن يحلُم بذلك.. أنا من سيُوقعُ وإن متّ فليذهب إلى الجحيم.

في النهاية وعبر كتابةِ بضعةِ أسطر بخطّ يدهِ وبعضِ إيماءات أوصل رامون قرارهُ إلى كارميلا.

«ألا تعتقد بأنّه سيُغيّر رأيه؟».

«لا، ليس رجلاً ليفعلها»، قال رامون في نفسه.

(٤)

كان إدواردو يُداومُ على جلساتِ العلاجِ كلّ يومِ سبت في تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً. مُجهّزاً بقنينةٍ من الماءِ المعدنيّ وملاءةٍ نظيفةٍ لوضعِها على سريرِ العِلاج حيثُ سيتمدّدُ خلال الجلسة. هو المريض المُفضّل لدى تيريزا، ليس بسببِ رهابِهِ المُسرِف، بل لحداثةِ سنّه ولكونهِ لم يأتِ إليها كي تُساعدهُ على التأقلم وتقبُّل فكرة أنّ لديهِ ورماً خبيثاً، بل من أجلِ أن يتحرّر منه. عانى إدواردو من مرضِ اللوكيميا ما بين التاسعة والثانية عشرة من عمرهِ وشُفي منه بفضلِ تلقّيهِ جلساتِ العِلاجِ الكيميائي لفترةٍ طويلةٍ وخضوعه لعمليّة زراعة في النخاع الشوكي. مع ذلك خسِر منذ ذلك الحين إحساسهُ بأنّه شابّ مُعافى. كان على وشكِ أن يُكمل عقده الثاني من العمر لكنّه ما زال واثِقاً من أنّ داخل عظامه «المئتين والستة» ما زال يكمن خللٌ ما، هذا بالإضافةِ إلى أنّ رهابهُ المُتجذّر من الميكروبات والأمراض المُعدية منَعهُ من التمتّع بحياةٍ طبيعيّة. إدواردو أتمّ المرحلة الثانوية بقُفّازين وكمامة، وهو الأمر الذي شكّل مصدراً للسّخرية الدائمة والمُضايقات من قبل زملائهِ.

في إحدى المرّات قام بعضُ الأولاد المُشاكسين بإحضارِ كيس مليء ببرازِ الكلاب إلى المدرسة وأفرغوهُ في حقيبة إدواردو خلال إحدى زياراتِهِ الكثيرة لغرفةِ المُمرّضة. عندما عاد إلى غرفةِ الصفّ وفتح حقيبتهُ أغمي عليه، وفي لحظةِ استعادتِهِ لوعيهِ مُحاطاً بتلك الرائحة الكريهة وجلبَة رفاقِهِ شعر برعبٍ كبيرٍ لدرجةٍ أفقدته القدرة على تحريكِ جسده. توجّب على الأستاذ أن ينقلهُ إلى غرفةِ التمريض محمولاً على ظهره. منذ تلك الحادثة لم يُعاود الحضور إلى المدرسة. خلال سنتين من ذلك التحق بالتعليمِ الموازي ونجح في امتحاناتِهِ بمُعدّلٍ مُرتفع أهّلهُ لدراسةِ اللغة الإسبانيّة. بدأ إدواردو بالمُداومةِ على جلساتِ العلاجِ لغرضٍ مُحدّدٍ هو مُساعدتهُ على تخطي أمر اضطرارهِ إلى التواجد في المدينةِ الجامعيّة، المكان الذي في اعتقادِهِ يبدو أشبه بسجن ظروفه غاية في السوء أكثر ممّا هو بناء ثقافيّ من صنعِ الحضارة الإنسانيّة. هدف إدواردو إلى التخرّج بأسرعِ ما يُمكن والبدء بعملِهِ كمُدقّقٍ لغويّ أو مُترجمٍ أدبيّ أو مُحرّرٍ ثقافيّ، أيّ اختصاصٍ يُمكّنهُ من إنجازِ العملِ في المنزل دون أن يكون عليهِ الاختلاطُ والتعرّض للعدوى المُتربّصةِ به من قِبلِ أقرانه.

مرّة وحيدة وصل إدواردو مُتأخّراً عن موعدِهِ إلى عيادة تيريزا عندما تعطّلت سيّارة والدتِهِ وصار لزاماً عليهِ أن يمشي مسافة ساعة كاملة من منزلِهِ إلى العيادة. دخل يلهثُ بوجهٍ مُحمرّ وثيابٍ مبلّلة بالعرق. أدركت تيريزا في الحالِ أنّ إدواردو لم يستقلّ الحافِلة ولم يطلب سيّارة أجرة لكونه غير قادرٍ على استقلالِ المُواصلات العامّة

دون أن تتملكه نوبةِ هلع. طبيبةُ العلاجِ الكيميائي التي أنقذتهُ من اللوكيميا كانت أيضاً قد عطّلت وبشكلٍ مُؤقّت جهازهُ المناعيّ مِمّا جعل من مرحلةِ الطفولة لدى الشاب لالو (تحبّبٌ واختصارٌ لإدواردو) سلسلةً لا نهائيّةً من الاحتياطات الاحترازيّة لمكافحةِ الجراثيم. اعتقدت تيريزا أنّهُ، وخلف الأسبابِ الواضحةِ لرهابِهِ المرضيّ من الجراثيم؛ يموج تعلّقٌ اكتئابيّ بالظّروف المرضيّة مع حزن لم يشف بعد ولم يُعترف به سبّبه السرطان. هذهِ الأعراض التي خبِرتها في عددٍ من مرضاها الشباب كانت عقدةً شبيهةً بمتلازمةِ ستوكهولم حيثُ الضحيّة تخلق عاطفةً غير صِحيّة مع من تسبّب بأذيّتها.

«لماذا علينا أن نحمِل في داخلنا شيئاً ليس جزءاً منّا؟»، تساءل إدواردو مرّة قاصِداً الجراثيم المعويّة، أجابتهُ تيريزا مدهوشةً من فيضِ دقّةِ التحليل النفسيّ الذي تضمّنتهُ تلك الجملة وأسرعت تُدوّنها في مُفكّرتها.

بالنسبة لإدواردو فإنّ طبيعة الآخر اللاكانيّ (إشارة إلى الأب أو أوديب) تتمثّلُ في فعلِ المطاردة الخبيث والاعتداء الذي يُسمّمُ الدم بالابيضاض من قبل كريّات دمٍ بيض بالتحديد. «هذا اللون يُثيرُ اشمئزازي»، قال لها، الأمر الذي كان مُثيراً للاهتمام لأنّ اللون الأبيض عادةً يُمثّلُ النقاء والخير والأناقة والدقّة. الملاءة التي يفترشها إدواردو على سريرِ المُعاينة دائماً زرقاء أو خضراء، لم تكن مرّةً بيضاء. الملاءات والقفّازات والكمامات هي هويّته التي ارتكزت على هذه الحواجز لحِمايتهِ من عدوى الآخر والجرثوم القاتل.

الأُم، التي انتقل إليها العصاب عن طريقِ ولدها الوحيد إدواردو حصيلة غرامِها العابر، حوّلها الخوف على ابنها إلى حارسةٍ صارمةٍ لكلّ ما يتعلّق بالحِمية والنظافة، بينما أظهرت مُرونةً في ما عدا ذلك بتطبيقِ عاداته وتنفيذِ رغباتِه دون أيّ اعتراضٍ، لقد منحَتهُ السيطرة الكاملة.

عندما طلب إدواردو من سانتا أن تكون هديّته لعيدِ الميلاد جهاز تعقيم هواء مركزيّ مُصنّعٍ في اليابان، أنفقت أمّه كامل مكافأة رأسِ السنة التي حصلت عليها لشرائه. كان إدواردو قارئاً نهِماً تملّ منهُ المكاتبُ والمكتباتُ ولذلك اعتاد أن يُرسِل والدتهُ لشراءِ الكتب التي بالضرورة يجبُ أن تكون جديدة، لم يقبل بكتبٍ مُستعملةٍ أو منزوعةِ الأغلفة. عندما قرّر أن يتّبع نظام كوشير اليهوديّ (أكل اللحم الحلال) في نظامهِ الغذائيّ وجدت أمّهُ نفسها مُجبرةً على احتمالِ تغيير جميع عاداتها في الطبخ من أجله، مع أنّهُ لم يسبق لها أو لأيّ فردٍ من أسرتِها أن مارس تلك الطقوس. أكّد لها إدواردو أنّ قانون كوشير قانون حكيم لكونهِ حرّم تناول لحمِ الخنزير والأطعمةِ البحريّة لأنّها تترأس قائمة من يحمل «الخطيئة البكتيريّة».

مع أنّ إدواردو لم يتحدّث في الأمر إلا أن عِفّتهُ المقيتة المُتفاقِمة كانت تُسبّبُ لهُ الهلع، تيريزا تيقّظت للعوارِض الظّاهرة لديهِ نتيجة تلك الخيبة، كيف لهُ أن يُضاجِع فتاة إذا كان لا يسمح لوالدتِهِ نفسها بمُعانقتِهِ؟ متى ستُثيرهُ الشفاهُ أو عضو المرأة الجِنسيّ طالما شعورُ التقزّز من العواطف الحميميّة يُسيطرُ عليه؟ كان التحديّ كبيراً دون

شكّ لكن المكافأة أيضاً بذاتِ الحجم، وإذا وُجِد ما يستطيعُ انتشالهُ من رهابهِ فهي قوّة إيروس إله الحبّ والرغبة.

اعتاد إدواردو انتقاد زملائهِ في الجامعة والذي كان يدعوهم عادةً بمصطلحِ «البدائيّون». حتّى مرحلة إنهاءِ فصلهِ الدراسيّ الأوّل في قسمِ اللغة لم يكن قد أقام أيّ نوعٍ من أنواع التواصل الاجتماعي.

«أعتقد بأنّهم نقلوا إليّ العدوى». قال بنبرةٍ حزينة في السبت الأوّل من ديسمبر.

«ماذا قلت؟»، سألتهُ تيريزا دون أيّ أثرٍ للمفاجأة في صوتها.

«نوعٌ من الفِطريّات.. السفاد أو الرشاشيات.. لا أعرف على وجه التحديد لكن لديّ أعراض فطريّات في الدم».

«أيّ نوعٍ منها؟».

«متلازِمة التعب المُزمِن وفقدانِ الذاكرة والاكتئاب مع انقباضات متكرّرة. ليست لديّ الأعراض التنفّسيّة ولا المعويّة، الأرجح أنّني أحملُ فطريّات في الدم. بدأتُ بتناولِ دواءِ فلوكونازول، لكن الأعراض لم ترحل، إنّه خطأ أمي، لقد أعدّت لي القهوة الثقيلة هذا الصباح والقهوة لها تأثيرات مُدرّة للبول، توجّب عليّ دُخولُ حمّام الكليّة. من المخيف رؤية كميّة العفن والبكتريا التي يخلِقونها في ذلك المكان. طلبتُ إليها أن تضع فقط ملعقتين من القهوة في الكوب خلال الأيّام التي أذهبُ فيها إلى الجامعة كيلا تثقل معدتي. «لقد نسيت»، هذا ما قالته لي. في جميع الأحوال كان عليّ أن أستخدم المِرحاض وأن

أستنشق تلك القذارة المُكثّفة التي تعجّ بالبكتريا العنقوديّة والأبواغ الفطريّة. الرطوبة هناك تنشرُ الميكروبات بشكلٍ مخيف. أقسم لك أنّ شعوري كان بغاية السوء في ذلك المكان، ولم يكن وسواسي المرضيّ هو السبب وراء ذلك. المشكلة تكمن في الصعوبة التي يُمثّلها أمر السيطرة على الفطريّات في التجمّعات، وكما تعلمين أنا حريص على إجراءِ فحوصِ الدم المُتكرّرة.. هذا فظيعٌ جدّاً».

«لماذا لم تعُد إلى منزِلك ذلك اليوم؟».

تيريزا كانت تعلمُ أنّه في مناسباتٍ سابقة اعتاد إدواردو إذا ما شعر برغبةٍ في التبوّل أن يتّصل بوالدتهِ لكي تقِلهُ إلى منزلِهِ القريب من الكليّة ليتمكّن من قضاءِ حاجتهِ في حمّامه.

«لم أستطِع العودة».

«ولماذا؟».

«كنتُ قد وعدتُ إحدى زميلاتي بأن أُساعِدها في محاضرةٍ تتعلّقُ بعلمِ الأصوات عند الساعة الواحدة ولم يكن لديّ رقم هاتفها لأتّصل وأعتذر لها. لكن بعد ذلك ازداد شعوري بالإرهاق ممّا منعني من البقاء في جميع الأحوال. لذلك قلتُ لها أنّ لديّ حالة عائليّة طارئة وغادرت».

«هل اتّفقتما على اللقاء في يومٍ آخر؟».

«لا، كنتُ أُعاني من الدوارِ الشديدِ، لم أستطع التوقّف عن التفكير ببقعِ البولِ والبكتريا التي دستُ عليها في الحمّام. يضعون

قطعة الكرتون السميك تحت حوضِ التبوّل ليمتصّ الرذاذ المُتناثِر، لكنّه مقرف. الكرتون بيئة مثاليّة لتكاثرِ الفِطريّات. لم يكن بمقدوري إيقافُ التفكيرِ بمدى اتّساخ حذائي. شعرتُ وكأنّ الآفات البكتيريّة المُلتصقة به تدغدغ ساقي وتتسلّق عبر الشعر وتندسّ هناك..».

«ألم تتوقّع أنّ مراحيض الكليّة ستكونُ مُتّسِخة؟».

«عرفتُ ذلك، لم يكن باستطاعتي المُغادرة. خرجتُ من القاعةِ عند الواحدةِ والربع، وعدتُ تلك الفتاة أن ألقاها في المكتبةِ عند الساعة الواحدة».

«متى تمّ الاتّفاق على ذلك الموعد بينكما؟».

«يوم الإثنين الفائت طلبَت منّي دفتر محاضراتي لأنّها تغيّبت عن إحدى المُحاضرات. لكنّني أخبرتها بأني أعرتُه لزميلٍ آخر طلبها منّي. بالطبع لم يكن ذلك صحيحاً، لم أكن لأعيرها أوراقي لذلك قلتُ لها إنّها لو تريد أستطيعُ أن أشرح لها المُحاضرة يوم الأربعاء».

«وهل تمكّنت أخيراً من الحصولِ على دفترِ المُحاضرات؟».

«البارحة حضرنا معنا محاضرةً في الأدب الإسبانيّ، في نهايةِ المُحاضرة سألَتني إن كان كلّ شيءٍ على ما يُرام بما يتعلّق بالطارئ العائليّ وقلتُ نعم كلّ شيء على ما يُرام. شكرتُها ثمّ سألتها إن كانت تُريد أن نتابع موضوع شرحِ محاضرةِ لغةِ الأصوات لكنّها أجابت بأنّها حصلت على دفتر مسوّدة المُحاضرة من شخصٍ آخر، هذا كلّ ما جرى. من الجيّد أنّهُ انتهى عند هذا الحدّ لأنّ شعوري كان قد ازداد

سوءاً، كم هو فظيع أن يحدث لي هذا مع اقترابِ موعدِ الامتحانات الفصليّة. لا أستطيع التركيز، أقضي الوقت وأنا أُفكّرُ بالفطريّات التي تملأ دمي وباحتمالِ أنّ الجهاز المناعيّ.. لا.. لا أحتمل ذلك».

«عندما درستُ تخصّصي جرّبتُ الدراسة مع إحدى الصديقات وكانت التجربة في غايةِ الإفادة، تناوبنا على شرحِ مواضيع المحاضرات ثم عيّنَت كل منا أسئلةً للأخرى وأثمر الأمر عن نتائج جيّدة جدّاً في الواقع».

«إميليا ليست صديقتي. احتاجَت مسوّدة المحاضرة ليس إلّا. أنا، ولِكي أظهر بمظهرِ الشخص اللطيف، دخلتُ إلى ذلك المرحاض، والآن لديّ فطريّات في دمي يمكن لها أن تنتهي إلى حالة تسمّم كامل للدّم!».

تيريزا شعرت دائماً بتعاطفٍ خاصّ تجاه إدواردو، خلال جلساتِ العلاجِ التي خضعت لها تحدّثت عنهُ وعن شعورِ الأمومة الذي أثارهُ لديها. أحبّت لو تسأله: «لماذا لا تدعو صديقتك إلى فنجان قهوة؟»، لكنّها كانت تعلمُ بأن اقتراحها هذا سيواجه حتماً بالرفض من قِبله. جسد إدواردو، وفي مرحلةٍ عمريّةٍ مُبكّرة، خذلهُ تماماً، ولذلك من الصعب عليه أن يُشفى من ذلك الخذلان.

في إحدى جلساتِهِ العِلاجيّة الأولى شرح لها أنّ احتياطات النظافةِ الشخصيّة التي يُمارسها سببها جسده الذي لا يستطيع أن يحمي نفسهُ بنفسِهِ وأنّ عليهِ أن يفعل ذلك بدلاً عنهُ. «جسدُك؟ ليس أنت؟»، سألتهُ تيريزا. أجابها إدواردو: «الجسد لي طبعاً لكنّه

ليس أنا». ثمّ لمّا وجد نفسه وقد فارقتهُ نعمةُ الصحّةِ التي يتمتّعُ بها الأطفال تحمّل إدواردو على عاتقهِ مسؤوليّة أخذِ الاحتياطات والتدابير الوقائيّة عبر نظام غذائيّ صارِم. كانت حياتهُ عبارة عن حياة جسد شكّل فيها الآخر تهديداً يُحاوِل تجريدهُ إيّاها. سلّم بأنّ ذلك هو قدره ومعنى وجوده. ليس من السهل التنازل عن كنزٍ بهذا الحجم حتّى لو كان الاهتمام بهِ بمثابة كابوس حقيقيّ.

اللوكيميا رسمت خطّ حياته وصوّروا له أنّ الشفاء منها سيكونُ الجنّة بعينها، لكنّه عندما خرج أخيراً من المستشفى وجد نفسهُ في مواجهةِ مراهقةٍ مُملّة، أمٌّ مبالِغةٌ في حمايتِها له وعالمٌ بأكملهِ مُتعارِضٌ مع صحّته. وجد عقل إدواردو المخذول الملجأ في الرهاب وفي الحربِ دون هوادة ضدّ الجراثيم وشبح اللوكيميا، أعداؤه الذين مكّنوهُ من متابعةِ الاعتقادِ بسعادةٍ منتظرة. بهذه الطريقة ينقذُ «نظام المعنى» وفقاً لنظريّة جان لاكان لتعريفِ الأب.

دوّنت تيريزا اسم إميليا في مُذكّراتها. في الليلة الفائتة دخّنت الماريغوانا وذاكرتها لا تزال مُشوّشة ولزِجة، كانت تزرعُ بنفسها العشبة على سطحِ المبنى داخل غرفةٍ مغلقة ومُنارة بمصابيح الصوديوم ومُهوّاة بواسطة مِروحة قويّة. بدأت تيريزا بتدخين الماريغوانا لتُقاوِم الغثيان وفقدان الشهيّة والآلام التي تُسبّبها جلسات العلاج الكيميائي.

منذُ أن خاضت تلك التجربة تحوّلت إلى مُدافِعةٍ شرسة عن الماريغوانا إن كان لأسبابٍ علاجيّةٍ أو ترفيهيّة. عندما احتاج أحد

مرضاها إلى مساعدة لتحمّل الآثار الجانبيّة لجلساتِ الأشعّة والعلاجِ الكيميائي عرضت عليه بصوتٍ خافتٍ جلسةً خاصّة مع «ماريا» (اللقب الذي اعتمدَتهُ للدلالة على الماريغوانا) وهو مُركّبٌ مُدهِش لتسكين الألم يُحرّرُ المشاعر ويُقوّيها ويفتح الشهيّة ويُوقف تلك الشرنقة التي تخنقُ الصحة. اعتقدت بأنّهُ من المفيدِ لإدواردو أن يُجرّبها. كانت غالبيّة البراعم التي تقطفها من المشتل مُخصّصة لمرضاها المُصابين بالأورام بينما احتفظت بالكميّة المتبقّية لاستعمالها في طقوسها الروحانيّة الخاصّة.

(٥)

في الليلة التي سبقت العمليّة اتّصلت باولينا بالأنترنت من أجل تبديدِ شكوكِها. كتبت في مُحرّك البحث «استئصال كُليّ للسان» وبعد أن قرأت النصّ الركيك في صفحةِ ويكيبيديا، انتقلت لتتفحّص الصور التي عرضها لها مُحرّك البحثِ غوغل. كانت الصورُ مُقزّزةً مِمّا أعاق عمليّة ابتلاعِها للقطعةِ الثانية من كيك الإوزّة مارينيلا. منذ أن كانت طفلة صغيرة قاومت باولينا حزنها بالحلوى، لكن مشهد تلك الصور أوقف شهيّتها بالكامل، لم تستطع تحمّل أكثر من دقيقةٍ واحدةٍ أمام مشاهدِ الأفواه المُشوّهة والألسنِ المبتورة وكتلِ الغشاء الدموي. أغلقت نافذة غوغل وهربت إلى فيسبوك حيث تسير الحياة هناك دون عقبات، تنقّلت بين الصورِ الفوتوغرافيّة والمواعيد المُلهِمة والنكات عبر رسوماتٍ وفيديوهاتٍ موسيقيّة، وحالما استعادت هدوءها قضمت من الإوزّة مارينيلا وفتحت غوغل مُجدّداً بأصابع مُحترِفة ثم نقرت على لوحةِ المفاتيحِ وكتبت كلمة سرطان cancer دون وضعِ المدّ على حرفِ الألف كون القواعد الإملائيّة هي آخر ما يشغلها في بحثها هذا.

ولجت ويكيبيديا وبدأت بقراءةِ التفاصيل وإعادة قراءتها كما لو كانت تُحضّرُ لامتحان.

«السرطان» تسمية عامّة تُطلقُ على مجموعةٍ من الأمراضِ المُتشابهة حيثُ يُلاحظُ تطوّر مضطرب في انقسامات الخلايا -جميعُ الوصلاتِ والروابط كانت باللون الأزرق- داخل الجسم ويمكن له أن يبدأ بِتموضِع مُعيّن ثم أن ينتشِر إلى أنسجةٍ أخرى مُجاوِرة وغالباً تُؤدّي إلى وفاةِ المريضِ إذا لم يُعط علاجاً مناسباً».

عُرِضت أمامها ثلاثة خيارات. هذهِ المرّة اختارت رابِط «الموت» للدخول. «الموت هو نهاية حتميّة تنتج عن تعطّل عمليّة الاستتباب «التوازن» لدى الكائن الحيّ وبالتالي وضع حدّ لحياته». لو كان الموتُ رابطاً فإلى أين يا ترى يُمكن أن يقودنا؟ من الصعب على باولينا الإيمان بالماورائيّات، لكنّها أرادت الإيمان هذهِ المرّة فقط من أجلِ حالةِ الرضا التي تُولّدها فكرة أنّ والدها لن يتبخّر إلى الأبد كما سيكون مصيرُ لسانهِ في الغد.

عادت إلى الخلف وكبست لوحة المفاتيح بذاتِ المهارة لتكتب «سرطان اللسان». قرأت الروابط الأولى (الأكثر تداولاً) ثمّ نقرت على رابطٍ بعنوان «سرطان الجلد حرشفيّ الخلايا» دون أن تُدرِك أنّه لم تكن لهُ أيّة علاقةٍ بمرضِ والدها، مع ذلك قرأت وهي في حالةٍ من الرعب (خمسون في المئة من هذه الإصابات أثبتت أنّها مُميتة)، مرّة أخرى تظهرُ هذهِ الكلمة اللعينة (مُميتة- Mortal) والتي عندما تُوضعُ في مُحرّك البحثِ غوغل تقودُ إلى مربّع عن لعبةِ الڤيديو

الشهيرة Mortal Kombat، دون شكّ كان هذا الرابط الذي عرضهُ لها غوغل بمثابةِ لا مبالاةٍ صارخةٍ من شبكةِ الإنترنت إزاء خوفها وجوعها. تبقّت قطعةٌ واحدةٌ من حلوى الإوزّة في العلبة فقرّرت أن تتّخذها ذريعة كي تحظى برفقةِ ماثيو إذ كانت واثقةً من أنّهُ لم ينم بعد ولا بدّ سيكونُ قلقاً مثلها في هذه اللحظات.

أخذت الحلوى وخرجت إلى الممرّ، ثم انحنت وألقت نظرة من أسفل الباب لترى إن كانت غرفة ماثيو مضاءة. عندما تأكّدت من ذلك بادرت إلى طرقِ الباب. الصوتُ الوحيدُ الذي تردّد في الممرّ أتى من غرفةِ والديها ما يعني أنّهما يُشاهدانِ نشرة الأخبار. عاودت دقّ البابِ مُجدّداً.

«ماثيو!»، نادت.

باولينا تخيّلتهُ جالِساً أمام جهازِ الكومبيوتر يبحثُ في شبكةِ الأنترنت ويضعُ سمّاعات في أذنيه. بالفعل كان تخيّلها في مكانه، على أنّ الصورة لم تكن كاملةً، كان ينقصها أن تُضيف إليها أنّهُ خلع بنطاله وعضوهُ منتصِب ويدهُ تتحرّك. اعتاد ماثيو أن يُشاهِد أفلاماً إباحيّةً لسحاقيّات، لأنّ فعل مُشاركةِ الشهوة الرجوليّة التي تعرضها المشاهد الإباحيّة تُقوّض لديهِ حسّ احترامِ الذات والأعضاء التناسليّة. ماثيو كابد شعوراً بالذنب مجهول المصدر لا تفسير له بعد كلّ مرّةٍ يُمارِس فيها العادة السرية. في عمق هذا الإحساس بالذنب كان يقبعُ مشهدٌ عبثيّ بعض الشيء ولكنّه مؤثّر، بطلهُ قسّ يُلقي موعظةً للتثقيف الجنسيّ: «جسدُ الشاب المسيحيّ

هو منزلُ الربّ ومذبح المسيح، وعندما نقومُ بلمسهِ لأغراضٍ أنانيّة كما لو أنّنا نصعدُ إلى سريرٍ في منزل صديق لنا وأقدامنا ملأى بالوحل ثمّ نبدأُ بالقفزِ عليه، ربّما يكونُ أمراً مُمتعاً جدّاً، لكن السرير الذي قدّمهُ لنا ذلك الصديق لم يكن لهذا الغرض بل لكي نرتاح فيه ونحتفل بهِ في الوقت المُناسب من خلالِ بركة الزواج القصوى وهي الإنجاب».

لكنّ ماريسا جونسون مُمثّلته الإباحيّة المُفضّلة كانت تتأوّه بطريقة ملائكيّة أفقدتهُ السيطرة على نفسهِ بالتزامن مع حركةِ الجناحين بالغي الجمال والدقّة اللذين وشمتهما على ظهرها. اختبر معها وصولاً أسطوريّاً استهلك معهُ كامل علبة المحارم الورقيّة التي يُفرِغ فيها منيهُ شاحب اللون.

في منتصف العرضِ الإباحيّ الذي كانت ماريسا تلهو فيه مع أختها غير الشقيقة، سمِع ماثيو طرقاتٍ على الباب فتلفّظ بصوتٍ منخفِض مُنزعِجاً: «تبّاً». أسرع بإغلاقِ نافذةِ الموقِع الإباحيّ ورفع بنطالهُ على عجل وأخفى المحارم الورقيّة التي ما زلت نظيفة من حولهِ كيفما اتّفق وصاح: «أنا قادم». ثمّ مسح كفيه المُتعرّقتين بقميصه الداخليّ ونهض مُحاوِلاً إخفاء انتصاب عضوه، ومشى حتّى وصل الباب وفتح لأخته.

«أترغبُ بقطعةٍ من حلوى الإوزّة؟».

«ماذا؟».

«أحضرتُ بعضاً منها لآكلها في غرفتي، ألا تريد واحدة؟».

«لا تكوني قليلة التهذيب باو.. كنت أدرس!».

«آه لا تكذِب، من المُؤكّد أنّك كنت تتحدّثُ عبر التشات مع أحدهم! هيّا خُذ».

إن لم يُساعِدها ماثيو في الإجهازِ على الإوزّة الأخيرة في العلبة، فلن يكون بإمكان باولينا المُقاومة وسوف تلتهمها.

«لا أريد، تعشّيتُ وجبةً كافية.. شكراً». قال ماثيو بذوقٍ مُكرهٍ عليهِ مُحاولاً إخفاء انزعاجهِ بسبب مقاطعتها له.

«احتفِظ بها لتأكلها لاحقاً».

«لا فعلاً لا أريد، شكراً، هيّا اذهبي للنوم».

«أنا خائفة ماثيو..».

بدأت باولينا بالبكاء وخجِل ماثيو من رغبتهِ بالعودة لمُشاهدةِ ماريسا مُمثّلته الإباحيّة المُفضّلة، عانقها مُتجنّباً أن لا تُلامِس بنطاله.

«لا تبكي باو.. هيّا اذهبي للنوم».

كانت باولينا ترغب بأن تُريهِ صُور الأفواهِ المُشوّهة والألسنة المبتورة التي شاهدتها على الأنترنت كي يعلم حجم المُصيبةِ التي ستحصل في اليوم التالي، ثُمّ بدأت بالبكاء، بكت من القهرِ والخوف. ماثيو عبّر عن تعاطفهِ بتربيتةٍ على كتِفها أشبه بتعاطفِ روبوت آليّ، إذ يُمكن لقطٍّ مُصاب بالتوحّد مواساتها بأفضل ممّا فعل.

قاطع ماثيو العِناق بعد مرورِ لحظاتٍ وأصرّ عليها أن تذهب إلى

النوم ثمّ تمنّى لها ليلةً سعيدةً وعاد ليُغلِق الباب على نفسه. وجدت باولينا نفسها وحيدةً في الممرّ، نظرت تجاه باب غرفة نومِ والديها لكنّها لم تقترب منه. لديها الكثير ممّا يشغل بالها الآن وهما بِغِنى عن إزعاجاتها. عادت إلى غرفتها وتمدّدت على السرير. مشاهير غناء البوب ينظرون إليها من المُلصقاتِ التي ملأت جدران غرفتها مبتسمين بلا مُبالاة. في تلك اللحظات اجتاحها شعورٌ غريب، مزيجٌ من المخاوفِ الطفوليّة ورغبات امرأةٍ ناضجةٍ بِنفسِ الوقت، تمنّت لو أنّ والدها يحتضنها وفي نفس الوقت شعرت برغبةٍ بأن يُضاجِعها جوستن بيبر المُغني الشهير أو أن يقاسِمها السرير حتّى، كانت مراهقتها أشبه بحليبٍ مخفوقٍ زهريّ اللون من الغرائز والوحدة مع حبّات الشوكولا اللذيذة. نادتها الإوزّة الأخيرة من خلفِ العلبةِ الشفّافة: «كُليني! هيّا هيّا!»، وبالطبع طاوعتها.

كارميلا، وبعد أن غطّت في نومٍ «تضامنيّ» عميقٍ لساعاتٍ طويلة، استسلمت تماماً وبدأت بالشخير كمُقاتل ڤايكينغ مغشيّ عليهِ بفعلِ شرب الرمّ، بجانبها استلقى رامون وقد أصابهُ الأرق يتخيّلُ كيف ستكونُ حياته دون لسان وشكل معاملة «الشفقة» من أفرادِ عائلتهِ وحيرة زبائنهِ ونفاذ صبر القُضاة والمحامين. كان على وشكِ أن يدخُل في حوارٍ أبديٍّ «من غير كلام» dígalo con mimica حيث يستبدّل فيه عناوين أفلامٍ شهيرةٍ بمرافعاتٍ قضائيّة.

مرّ الليل لزِجاً ثقيلاً مع الخوف الذي ينبضُ في فمِهِ كقلبٍ صغيرٍ مُتطفّل. خوف رامون تنكّر خلف نفاذِ صبرهِ في سبيل أن يدخل غرفة العمليّات أخيراً وأن يخرج منها مُتخلّصاً من الورمِ

حتّى ولو سيخرج ناقصاً جزءاً من جسده. أجرى مسحاً سريعاً لمرضى السرطان الذين عرفهم في حياته حتّى ذلك الحين، أدرك بأنّه لم يُحاوِل يوماً أن يشتغل على الأعمالِ الخيريّة والذي أرجعهُ إلى طبيعةِ حياتهِ «المودرن».

عند الثالثة صباحاً نام أخيراً. «قولوا لهم ألّا يُجروا لي هذه العمليّة»، كان يهذي في حلمهِ بينما كانوا يسوقونهُ إلى غرفةِ العمليّات على سريرٍ مُتحرّك، تملّكهُ الرعب ولم يكن يحلم في تلك اللحظات، لقد كانوا على وشكِ تشويهه، موجة من الكورتيزون غمرت جسدهُ فجأة. يُحضِّرونهُ بالتالي للهربِ أو للشجار. جعل المُمرّضون السرير المُتحرّك بمحاذاة سرير العمليّات، وبحركةٍ واحدةٍ نقلوه من واحدٍ إلى آخر. وجد نفسه مُحاطاً بالأطبّاء والمُمرّضين الملفوفين بأرديتهم الطبيّة وأغطية الرأس والكمامات. تعرّف على صوتِ الدكتور ألداما عندما حيّاه، شعر أنّه في مزاجٍ جيّد مبتهج ومتشوّق لكي يبدأ شقّه.

مرّت دقيقة من التحضيرات المُرِبكة والغريبة. انبعث صوتٌ من الجهاز الآليّ يطلبُ إليهِ أن يتنفّس بعمق. كان صاحياً تماماً ومُنهكاً جدّاً في الوقت نفسه، سيطر عليهِ اعتقادٌ بأنّ شيئاً ما لم يكن على ما يُرام بما يتعلّق بالتخدير وأنّه سيصحو قبل الوقتِ المُحدّد ليشعر بالمِبضعِ يقصّ لسانهُ وبلحمهِ مفتوحاً وبذلك الدفق الدمويّ الأحمر والقهقهات والعُريّ المُباغِت للعظمِ الأبيض.

«استرخ سيّد مارتينيز». قال أحدهم.

«أوي إياو..»، كان يُريد أن يلفظ بلسانهِ للمرّة الأخيرة عبارة «أنا أستاذٌ في المُحاماة».

«أضيفوا ميدازولام». قال صوتٌ آخر: «التصوير الشعاعيّ..».

عندئذٍ شعر رامون بليلٍ من الفُقاعات يُغلّفُ عينيه. هكذا وصل الانتظارُ إلى نِهايته.

(٦)

في جلسات العِلاج مع طبيبتِها ومُشرِفتها الخاصّة عادت تيريزا بدأبٍ إلى طرحِ موضوعِ التناقل والتناقل المُضاد، بحسبِ تعبيرها الخاصّ كان مريضها -أي إدواردو- ينقلُ الدور النفسيّ الذي لعِبتهُ والدتهُ المُتمثّل بحمايتها إيّاه المُبالغ بها خلال فترة مرضه، كأمٍّ عزباء رغِبت بشخص مُختلِف وبالتأكيد لم يكن ذلك الولد الضعيف السقيم، رغبت بأبٍ مُستقبليّ مُهدِّد وصارم يتحدّثُ عنهُ الجميع دون التجرّؤ على ذكرِ اسمه. السرطان هو من رتّب هذه الوظيفةِ للأب في لاوعيها. تلك الشخصيّة المُريعة قبعت مكتئبة في أعمقِ أعماقِ إدواردو فوالدتهُ تمنّت الشخص الآخر منهُ، نسخته الأخرى، دون أدنى وعيٍ منها إلى أنها تريد ذلك؛ أن يُصاب ابنها بالسرطان. رعبٌ يعجز إدواردو عن وصفه.

انطلاقاً من هذهِ النقطة وُجد الكثير من أجلِ إصلاحه. بداية من قضيبِ ذلك الأب الرمزيّ الصارم الذي تتمثّلُ أعراضهُ الخارجيّة بالتعقيم والنظافة الصحيّة العامّة، تلك التي كرّست والدتهُ حياتها

من أجل تطبيقها وعندما حاولت أن تخترق التعليمات -التي وضعتها بنفسِها- والاقتراب من إدواردو دون كمامة محاولةً معاملتهُ كوليدٍ طبيعيّ؛ ظهر لدى إدواردو شعور بتهديد أوديبيّ بسِفاحِ القربى والخيانة، هذا لأنّ التخليّ عن التعليمات الاحترازيّة الرجوليّة الصارمة للنظافة الشخصيّة بالنسبةِ إليهِ لم يكن إلّا محاولةً لقتلِ اللوكيميا مرّة أخيرة وبلا رجعة، أي قتل الأب.

هذا التحليل النفسيّ قاد تيريزا إلى الاستنتاجِ القاتِل بأنّ عواطفها الأموميّة حيال الشاب، التي أفصحت عنها مِراراً لطبيبتها المُعالِجة، هي نِتاج تناقلٍ مضادٍ ويجب أن يُستخدم من أجل معالجةِ حالةِ إدواردو النفسيّة. تمنّت كثيراً أن يكون بمقدور إدواردو تجاوز حالة اختباءِ السرطان وراء صورة الأب، لكنّها ذلك من أن تُدرِج لهذه الوظيفة الشخصيّة المناسبة فيصير بإمكانهِ التمتّع بحياةٍ معافاة وفعّالة إن كان على صعيدِ علاقاته العائليّة أو الجنسيّة.

«المشكلة»، قالت تيريزا المُستلقية على سريرِ الفحص، «أنّني لا أرى سبيلاً لإقناعِ المريضِ بأنّ رغبتي.. أعني.. بما يتعلّق بظاهرةِ التناقل، أنّ رغبة والدتهِ ليست أن يكون الشاب مريضاً أو بأن يُطبّق سلسلةً من التعليمات والإرشادات الهوسيّة لتجنّبِ العدوى أو عودةِ السرطان إلى جسده.. يُمكنني أن أصل حدّ قول ذلك له.. لكن في مساحة اللاوعي لا أستطيع.. على الأقل الآن.. في هذه المرحلة لا يُمكنني ذلك».

توقّفت تيريزا عند هذا الحدّ لتُفسِح المجال لمعالِجتها بالكلام.

«تشعُرين أنّه يوجد شيءٌ ما أبعد من ظاهرة التناقل يمنعك من قولِ ذلك؟».

«لا، ليس بسبب شعور الخوف الذي تُسبّبه لي أمومتي المخذولة، أريدُ صبّ مشاعرِ الأمومة فيه، إن كان ذلك ما تقصدينه، لقد اشتغلتُ على هذا الأمر وتحدّثتُ حولهُ مُطوّلاً وبإمكاني التحكّم به. ما يشغلني ويجعلني أشعر حقيقةً وكأنّني في نفقٍ دون مخرج مع هذا المريض هو أنّني أُشكِّلُ قطعاً جزءاً من النظام الذي يجعلهُ متشبّثاً باللوكيميا. هو يعلمُ بأنّي أُشرِف على مرضى يُعانون من مرضِ السرطان وأُنظِّمُ حلقات دعم وبأنّني أُصبتُ بسرطان الثدي وقمت بالكتابة عن تلك التجربة. كيف يُمكن لي أنا المُعالِجة النفسيّة المُتخصّصة بعلاجِ مرضِ السرطان أن أقنعهُ بأنّه لا يُعاني من مرض السرطان؟.. هذا من جهة.. من جهةٍ أُخرى كيف يُمكن لي أن أنقل لهُ بالغ سعادتي لرؤيته.. وكم أنّهُ مُلهِم لعواطفي الأموميّة وكم يُسعِد أيّام السبت لدي.. عدا عن ذلك فوالدته تدفعُ لي أسبوعيّاً.. إذن ما السبيل لإقناعه أنّي لا أريدُ أن يستمرّ في اعتقادِهِ أنّه مريض؟».

«عندما يحينُ موعد تقييم نتائج التحليل النفسيّ لحالتِهِ سوف يتخلّصُ على وجهِ الخصوصِ من هذا الجزء من عمليّة العلاج»، قالت المُعالِجة.

«وكم من الوقت سيلزم لذلك؟»، أجابت تيريزا مُستنكِرة، «عشر سنواتٍ مثلاً؟ عندما لا يعودُ بإمكانِهِ الذهاب إلى الجامعة بينما الآن هي فرصتهُ للتعرّف على أشخاصٍ من سنّه يُشاركونهُ اهتماماته؟

الجامعة هي بمثابة (خلّاط) للعلاقات الاجتماعيّة.. وبدلاً من استغلالها يُعاني رجعاً عاطفياً مُضطرباً من النفور والشهوة والخوف والفضول.. ويحتاجُ إلى حلٍّ سريعٍ وفوريّ».

«ربّما تعتقدين بأنّ الحلّ الآن هو إيقافُ جلسات التحليل النفسيّ والانتقال معه إلى جلسات العلاج المعرفيّ السلوكيّ أو جلسات العلاج الجماعيّة.. هذا مستحيل في حالته. حسناً، لا بأس، تتحدّثين عن جلسات علاجٍ معرفيّة سلوكيّة تُمكّنه من الاستمتاع بالحياةِ بشكلٍ أفضل وفي أسرع وقتٍ ممكن. لكن مهلاً! بهذهِ العجلة.. ولكي يستمتع هو!.. أستشفّ هنا رغبةً مُحتملةً بأنّكِ أنتِ من يشعر بضرورةِ حصولِ شيءٍ ما على وجهِ السرعة. لم تقولي لي يوماً بأنّه أفصح عن رغبةٍ بالذهابِ إلى الحفلاتِ أو الخروجِ مع زملائهِ أو أيّ شيء من هذا القبيل.. في هذا أستشفّ رغبةً شبيهةً بالتي لدى والدته، عليكِ أخذ الحذر لأنّ عمليّة التناقل المعاكس يمكن أن تُذهِب بكامل النتائج التي حقّقتِها معه حتى الآن».

«وما الذي حقّقتُه؟ أدرك تماماً أنّ قلقي هو قلقٌ أموميّ وكلّ ما تريدين وبالتأكيد لن أهدم عمليّة التناقل بإقدامي على الاعترافِ بها.. ما يُقلقني هو أن يكون رابطي القويّ والرمزيّ مع مرض السرطان كناجيةٍ منهُ ومعالجةٍ نفسيةٍ سيحُول دون قدرتهِ على تجاوز فكرة أنّ رغبة والدتهِ هي أن يكون مريضاً بالفعل. تخيّلي أنّه في أيّام السبت وبعد خروجهِ من جلسة المُعالجةِ كان يُصادفُ في بعض الأحيان مريضة الساعة الثانية عشرة وهي امرأة في مرحلة العلاج

الكيميائي فقدت شعرها وتمشي بمساعدة عكّازين، كيف يمكنهُ أن يتجاوز مرض السرطان بهذهِ الحالة؟ طالما هو مستمرّ بتلقي العلاج في عيادتي سيبقى دون شكٍّ مُتورّطاً في هذا المناخ.

«أتُريدين أن تبقي أنت مُتورّطة في هذا المناخ؟».

«أنا؟ نعم.. لكن ماذا عنهُ هو؟.. لديّ رغبة في إحالتهِ إلى مُعالجٍ آخر لكنّني إن فعلتُ فسيكون مُضطرّاً إلى أن يشرح الأمر برمّتهِ من البداية. إصابته باللوكيميا وعمليّة زراعة نخاع العِظام التي خضع لها.. سيجدُ نفسهُ مضطرّاً لأن يعيش تلك التجارب مُجدّداً. أنا لا أريد له ذلك، سيكون نكوصاً سلبيّاً جدّاً لحالته».

صمتت تيريزا لدقائق تتخيّل العواقب التي يمكن أن يُحدِثها تحويل إدواردو إلى معالجٍ نفسيٍّ مُختلف. هل من الممكن يا ترى لمعالج شابٍ أن يُمكّن إدواردو من بناء علاقة أبويّة معه؟ ظلّت تيريزاً صامتةً لبرهة، كانت تعلمُ يقيناً إلى أين تريد معالجِتها الوصول: تحاول أن تواجِهها باحتمالِ أن هيكليّة اللاوعي التي تُسقِطها على إدواردو هي في حقيقة الأمر هيكلية لاوعيِها هي وأنّها عاشت حياتها مُقتنعةً تماماً بأنّ الآخرين يرغبون لها أن تعيش إلى الأبد في دوّامة مرض السرطان.

«أعتقدُ أنّ مرضاي يُحاولون إيجاد أنفسهم من خلالي كناجيةٍ من السرطان.. هذا أثمن ما أُقدّمهُ لهم».

«ناجية؟».

«أعرفُ مسبقاً ما الذي ستقولينه»، قالت تيريزا مُتوتّرة بعض

الشيء لكونها لم تستطع توقّع ردّ فعلِ معالجِتها، «تلك الكلمة، أجل، لكنّها مُهمّة لئلّا يغيب عنّا أنّ التجربة ومع أنّها لا تُحدّد هويّتنا إلا أنها تُغيّر من مجرى حياتنا. مرض السرطان هو في الحقيقةِ عنصرٌ دائم التواجد في حياتي وأعتقد بكلّ صراحة أنّني متصالحة مع وجودهِ هذا، لكن الأمر يختلف كليّاً في حالة إدواردو.. بمعنى أنّني لا أرجّح أنّ تشخيصي لحالتهِ يعني نقلاً أو تناقلاً لحالتي.. رهابه كان موجوداً مسبقاً ووسواسه القهريّ واكتئابه وتهديد الواقع من حولهِ واللوكيميا المُرتبطة بالإيغو لديه.. كل ذلك كان موجوداً.. لو أُتيح له تجربة شيء مختلف باستخدام الماريغوانا، على سبيل المثال.. واختبار انفتاح الوعي الذي يأتيهِ من الخارج لأثّر ذلك بشكل إيجابيّ على حالته.. لكن لا يمكنني أن أعرض عليه الماريغوانا.. لا أريدُ أن أقطع عمليّة التناقل وأن أتسبّب بإفسادِ ما أحرزتهُ حتّى الآن.. لكن الأمر سيبدو مقبولاً لو أنّ أحد رفاقهِ في الجامعة يفعل... لا أدري.. أتمنّى ذلك حقّاً».

توقّفت تيريزا حالما لاحظت أنّ طبيبتها المُعالجِة قد تبنّت الفكرة وانتهى الأمر حين رأت إيماءاتها المعتادة عند استنتاجها وقبولها لفكرة ما، استمرّ صمتها لبرهة. لم تكن جلسات العلاج مُتفاوتة المُدّة[1] تروق لتيريزا على عكس معالجِتها التي مارست جلسات الفترات القصيرة بمهارة واضحة، ذلك ما منع تيريزا من استكمالِ عرض

(١) جلسات العلاج متفاوتة المدّة: تُعد من ضمن التحديثات التي أدخلها الطبيب الفرنسي لاكان على مدّة الجلسةِ العلاجيّة، إذ كانت سابقاً مُحدّدة الوقت وتفوقُ الساعة من الزمن.

حالة إدواردو بدلاً من أن تتعمّق في علاقتها الشخصيّة المُعقّدة مع السرطان الذي بقيت متطلّباته المدفونة في أعماقها لا تكفّ عن مساءلتها. عقب مضي دقيقة من التوتّر الحذر المُتفاقِم وقفت المعالجة وودّعت تيريزا راسمةً ابتسامةً وديّة.

(٧)

أفاق رامون ليجد نفسه وسط شبكةٍ عنكبوتيّةٍ من الأسلاك والأنابيب. بدأ الوعي يُوقِظُ حواسهُ واحدةً تلو الأخرى بدءاً من حاسّة السمع، بدا يسمعُ صوت طقطقة غريبٍ في عنقهِ وصوتاً آخرَ حادّاً ومتواصلاً لجرسٍ آتٍ من الأجهزة. ثمّ اللمس؛ أحسّ بضغطِ الضمادات التي ثبّتت رأسهُ إلى دعامةٍ معدنيّة، فالنظر؛ أبهرهُ الضوءُ وميّز الستائر الرماديّة.

يداه المسبلتان إلى جانبيه عصفوران ميّتان، الروائح لم يُميّزها إذ أنّ الهواء لم يكن يدخلُ عبر فتحتي أنفهِ إنّما عبر أنبوبٍ يتّصلُ بالقصباتِ الهوائيّة مباشرة.

كذلك لم يكن بمقدورهِ تمييز الطعومِ، فالعضو المسؤول عن ذلك غير موجود.

راح عقلهُ يستيقظُ شيئاً فشيئاً وراح قلبهُ ينبض بدمٍ خليطٍ من دمهِ ودماء أخرى غريبة قادمة من أكياسٍ تبرع بها طيّار ورسّامة واقعيّة.

رئتاه مليئتان بهواءٍ فاسدٍ يُضخُّ عبر اسطوانة أوكسجين، باشر كبدهُ بحرقِ مخزونهِ من أجل الفطور.

الكِليتان بحالة ضعفٍ وخدر والبنكرياس يأخذ قيلولته. أراد رامون تحريك جفنيه، تمكّن من فتحِ عينيهِ بعد ساعتين من ذلك. كارميلا جلست إلى جواره.

«كيف تشعر؟»، سألتهُ بصوتٍ خافِت.

«كم الساعة؟»، تساءل رامون في نفسِه.

«أخبرني طبيبُ الجراحةِ أنّه لم تحصُل أيّة تعقيداتٍ خلال العمليّة. لم يضطرّوا إلى استئصالِ الحنجرة. وسوف تتمكّن من التنفّس بشكلٍ طبيعيّ خلال أشهر قليلة، إنّهُ لخبر جيّد. لقد سُعِدنا جميعاً لسماعِ ذلك. ماثيو وباولينا كانا خارجاً برفقةِ إرنستو وأليسيا وأوصياني بأن أنقُل إليك السلام، وغداً سوف يأتيان مُجدّداً لرؤيتك، كذلك إلوديا كانت معي طوال اليوم لكنّني أرسلتها منذ قليل إلى المنزل.

تركيز رامون انصبّ بالكاملِ على الطريقةِ التي تتحدّثُ بها كارميلا، لم يكن تركيزاً على المحتوى. ظلّ مدهوشاً أمام السرعةِ التي حرّكت بها شفتيها أثناء تلفّظها بالكلمات وطريقة مطّهما مع أحرفِ المدّ وصوت طقطقةِ الحروف وانقطاعاتها والرتم المُتواصل الناتج عنها بانسيابيّةٍ وعُذوبة. في خضمّ كلّ هذا لمح لسانها الرطب المُعلّق المُعاف المُجتهد في حركاتهِ يُغيّر من موضعهِ كلّ ثانية كي يسمح بنطقِ الحروف مرّة تلو الأخرى ليُخرِجَ أصواتاً مُختلفةً في كلّ وقت. انتابهُ شعورٌ بحنينٍ مرّ. أين يا ترى يقبعُ لسانهُ الآن؟ في كيسٍ

مختوم أم في ثلاجة أم في فرنٍ ربّما؟ رامون وقّع تصريحاً خطيّاً يسمحُ بموجبهِ أن تُؤخذ عيّنةٌ لتحليلها في مختبرِ المعهد الوطنيّ لأمراضِ السرطان. على ما يبدو كان نوعُ الورمِ لديهِ غير مسبوق، وذلك سوف يُساعدهم في تثبيت أعراضهِ السريريّة. على الأقل سيكون نافعاً لشيءٍ ما. لذا، ووِفقاً لما ينصّ عليه القانون الطبيّ العام في ما يتعلّق بالاحتياطات الوقائيّة الصحيّة لمتبرّعي الأعضاء والأنسجة والجثامين البشريّة؛ فإنّه يتوجّب عليهم حرق لسانه ووضعه في قارورة لحفظِ رمادِ الموتى كما جرت العادة في مراسيم الجنائز.

إذن في هذه الحالة إلى أين سينتهي رمادُ لسانه؟ قبل خمسة عشر يوماً مضت بدا له ضرباً من العبثِ طرحُ مثل هذا السؤال، لكنّه نادمٌ الآن لأنّه لم يُطالِب بأن يُسلّموه بقايا لسانه، لا يهمّ كم ستبلغ ضآلة حجمه، لكنّه، وإلى حينِ أن يُصبح قادراً على التعبير عن رغبتهِ هذه خطيّاً، سيكون قد فات الأوان كُليّاً على قبولِ هذا الطلب.

تمدّدت كارميلا قبالته على أريكةٍ قابلةٍ للطي وتمنّت لهُ ليلةً سعيدة، على أنّها لم تكن كذلك البتّة، تعاقب الأطباء والمُمرّضون على الدخول والخروج لتفحّص ملفّه الطبيّ وأنابيب القسطرة وضغط الدم وأنبوب المعدة وجهاز التنفّس، لكنّهم لم يعيروه اهتماماً ولا أظهروا تفاعلاً معهُ بل كانوا يُوقِظونه وحسب، هذا ما كان يحدث، يدخلون يجسّونهُ ويُؤلِمونهُ ولا يطلبون إذناً منه ولا يقدّمون له اعتذارات عن ذلك بل يقومون بإعطائه تعليماتٍ آليّة؛ «ارفع ذراعك»، «شهيق»، «زفير»، «افتح فمك»، ويُحذّرونهُ: «هذا

سيؤلمك قليلاً»، كما يسألونه: «كيف أصبحت اليوم؟ أتُسبِّبُ لك القسطرة حكّة؟»، «هل قضيت حاجتك؟»، على أنّهم انتظروا الجواب من كارميلا وأحياناً من مُساعِدٍ أكثر دقّة كجهاز مقياسِ الحرارة على سبيل المثال أو وعاء قياس البول ووعاء آخر معدنيّ له شكل الكِلية حيثُ كان يبصق اللعاب المُتراكِم، الكِلية المعدنيّة هذي تسبّبت بفوضى عند ظهيرة اليوم الحادي والثلاثين من ديسمبر أثناء الفترةِ التي بقي فيها رامون بمفردهِ مع ماثيو بينما خرجت كارميلا برفقةِ باولينا لشراءِ الكيك والشراب المُرطِّب من أجلِ عشاء رأس السنة، بينما كان ماثيو مُنسجماً بلعبة Grand theft auto على شاشة اللابتوب الخاصّ به ويضع سمّاعات الأذنين غطّ رامون في نومٍ عميقٍ خلال متابعتهِ لتمثيليّةٍ تلفازيّةٍ من فترة الخمسينيات. عندما أفاق أخيراً من غفوتهِ كانت التمثيليّة قد انتهت وحلّ مكانها أحد البرامج الحواريّة البيروفيّة الذي يتناول مشاكل عائليّة وكان بعنوان «لورا في أمريكا Talk Show».

ماثيو كان لا يزال مُستلقياً بوضعيّتهِ على الأريكة سانِداً ظهرهُ إلى سريرِ أبيه يقذِفُ بقاذفاتِ صواريخِهِ الافتراضيّة على وقعِ موسيقى الهيڤي ميتال في أذنيه، على شاشةِ التلفاز ظهرت امرأةٌ ضئيلةُ الحجم: «سينوريتا لورا، هذا الجبان أقسم لي بأنّهُ لن يذهب إلى النادي الليليّ برفقةِ أختِهِ لكنّه عاد إليّ سكرانَ يستندُ إليها ويُداعبها»، مقدمة البرنامج بدت مُشمئزّة ممّا سمِعته فاستجوبتها كما فعل أحد الخطباءِ في تراجيديا سوفوكليس: «هل تقولين إنّ زوجكِ يخونكِ مع أختهِ؟»، في تلك اللحظة تلفّظت مُقدِّمةُ البرنامجِ

بوصفِ «زِنا المحارم» وانهالت الزوجة ضحيّة الخِيانة على شقيقةِ زوجِها -غريمتها- بالضرب. شعر رامون بالحرجِ مُستنكِراً قِيام المحطّة ببثٍّ مثل هذه البرامج الهابِطة التي تستهين بعقولِ الناس وتأخذ إلى الاعتلال والبربريّة، فبدا بالبحثِ عن جهاز التحكّم كي يُبدّل المحطّة، لكنّ الجهاز كان قد تُرِك على الطاولة الدائريّة بعيداً عن مُتناوله وكان بحاجةٍ لمساعدةِ ماثيو من أجل الوصول إليه، لكنّ الأخير كان مُنغمِساً في شاشةِ اللابتوب أصمّ لا يسمعُ أيّ صوتٍ من حولِهِ وأعمى عن رؤيةِ إيماءاتِ والده. «فليدخل الزوج»، صرخت الآنسة لورا. وحالما ظهر المدعو في القاعة انهالت زوجته كما شقيقته عليهِ بالضرب. أوقفهما اثنان من الحُرّاس من ذوي العضلات المفتولة والمعالم الصارمة، حالما جلس المُتّهم خاطبتهُ الآنسةُ مديرة الحِوار قائلةً: «ما تفعلهُ لا يفعله الوحوش! أتعي ما أقولهُ لك؟ ولا حتّى الوحوش الأفريقيّة!»، قابلها الجمهور بتصفيقٍ حار.

مُجرّد تخيّل فكرةِ أن تلك الشتائم موجّهة إلى ولده كانت أمراً في غايةِ الفظاعةِ بالنسبة لرامون، بدأ بالضربِ على هيكلِ السريرِ بواسطةِ المِبصقة حيث كان المزيجُ السائل من اللعاب والدم يموجُ داخلها، مُنتظِراً دون نتيجة أن يلفِت الطرقُ انتباه ولده. استطاع رامون لو أراد أن يُنادي على إحدى المُمرّضات بواسطةِ كبسةِ زرّ صغير لكن ذلك بدا لهُ لامنطقيّاً، أيطلبُ مساعدتها وولده الذي أكمل الثمانية عشرة من عمرهِ والذي لا يزال «مدلّل» أمه يجلسُ على مسافةِ مترين منه!

«وذنبُ من هذا؟»، تابعت الآنسة، «فلتدخل الأمّ التي أشرفت على تربيةِ هذين الرذيلين». مُنفعلاً مّما سمِعهُ، قرّر رامون أن يرمي الوعاء المعدنيّ على الأرض ليلفت انتباه ماثيو وأن يُسدِّد ضربته بحيث تُصيب قدم الأريكة. هكذا انطلق الوعاءُ في الجو كقذيفةٍ من النوعِ الثقيلِ يدورُ ويرشِقُ في جميعِ الاتجاهات قطراتٍ من السائل الدمويّ، لكنّه لم يسقط أسفل الأريكة بل على رأس الشاب مباشرة، اندلقت الكميّة العُظمى من السائل المُقرِف على لوحةِ المفاتيحِ وشاشةِ الجهازِ المحمول وقفز ماثيو واقفاً كنابضٍ والتفت نحو والدهِ مذعوراً.

اندهش رامون للمسارِ الذي اتّخذته رميتهُ تلك، عكس رغبته، نفذتها ذراعهُ اليسرى رغم أنّه لم يكن أعسر لكن توجّب عليه استخدامها لأن أنبوب القسطرة ورديّ اللون كان يعوقُ حركة ذراعِهِ اليُمنى إذ يمتدّ فوقها. «سامِحني»، ردّد رامون في محاكمتهِ الداخليّة، «لم أقصد ذلك أؤكّد لك».

«أيّ نوعٍ من الأمّهات تلك التي تسمحُ لأولادها المُراهقين أن يكشِف أحدهما عورة الآخر؟»، استنكرت الآنسة لورا.

«ماذا حدث؟»، سأل ماثيو مُهتمّاً بأمرِ جهازِهِ الذي كان يقطرُ سائلاً مُقرِفاً بسببِ خطأ والده.

هكذا وبما أنّ رامون لم يكن يملكُ الأدوات اللازمة ليوضّح سوء الفهم قرّر أن يستخدم قلّة حيلته تلك لصالحِهِ والتظاهر بأنّه في الحقيقة يُعاني من ألمٍ حادّ في المعدة. قام ابنه بالاتصال بغرفةِ المُمرّضين الرئيسيّة وطلب إليهم الحضور لأنّ والدهُ في حالةٍ سيّئة.

تابعت الآنسة لورا وجوقتها من الضيوف في هذهِ الأثناء الجدال والصراخ على التلفاز.

لكنّ رامون قرّر ألا يُعير اهتماماً لما يجري في التلفاز. وصلت إحدى المُمرّضات وبعد تأكّدها من أنّ أنبوب القسطرةِ في مكانهِ الصحيح طلبت حضور أحد الأطباء والذي التحق بها إلى غرفةِ المريضِ وقام بمبادرةٍ لطيفةٍ إذ أطفأ التلفاز في اللحظة التي انهالت فيها الأخت بإطلاق اللعنات على أخيها الجبان.

«هل تقيّأ؟»، سأل الطبيب عندما رأى الأرضيّة سابحة بذلك المزيج الدموي.

«لا»، أجابهُ ماثيو، «لقد اندلق من الوعاءِ المُخصّصِ للبصق».

«سوف يحضرون في الحالِ للتنظيف»، قالت المُمرّضة بصوتٍ لطيف.

استمع الطبيب لنبضاتِ قلبِ رامون بتمعّنٍ وخلص إلى أنّ الوجع يمكن أن يكون ناتجاً عن غازٍ في المعدة وأنّه ليس بالأمرِ المُقلِق. في هذهِ الأثناء أغلق ماثيو على نفسهِ باب الحمّام برفقةِ كومبيوتره المحمول وشرع يُنظّفهُ بحذرٍ وتأنٍّ بمناديل الحمّام الورقيّة. عندما عادا وحدهما مُجدّداً طلب ماثيو من والدهِ أن يُسامِحه، خجِلاً من نفسهِ أيضاً، اعتذر رامون منهُ بابتسامةٍ لائماً نفسه، مع اعتقادهِ بأنّه وبالنظرِ إلى ما آلت إليه الأمور لم يكن إفلاتهُ من العقاب على ما تسبّب بهِ لِولده أمراً بتلك الأهميّة.

هذا الحدثُ الطازج أيقظ لديه الجوع الذي بيّتهُ طوال الأسابيع

الماضية وكان مخزون شحوم المعدة لديهِ على وشكِ التلاشي، أمّا سوائلُ التغذية التي ضخّوها في جسدهِ عبر الأنبوب فلم تكن فيها سعرات حراريّة كافية مثل تلك الموجودة في طبقِ شرائحِ اللحم مثلاً أو في طبق الفاصولياء واللحم المطبوخ أو في حساء الذرة والدجاج التي استحضرتها له شهيّته النهِمة. لم يعد بمقدورهِ بعد الآن التلذّذ بطعمِ لحمِ الدجاج المشويّ أو بالطعمِ الفاخرِ والمُركب لحساءِ المولي الحارّ أو عذوبة المذاق الحلو لكريم الكراميل. لقد كانت خسائر كبرى لا تُعوّض.

بدا لهُ من المُستحيل استرجاع تلك الطعوم والمذاقات التي كانت سبيلهُ الوحيد في مواساةِ نفسهِ على الأقل عبر استحضارها. باتت ثيمة حنينهِ تفتقرُ إلى خصائِصها الأساسيّة، كانت أشبه بآبارٍ فكريّة سحيقةٍ حزينةٍ وفارغة.

عادت كارميلا وباولينا تحملان أكياساً بداخلها وجبات طعامٍ سريع، تتذمّران من الطوابير الطويلةِ في السوق والازدحام الخانقِ في الشوارع.

«كيف أمضيتما الوقت؟»، سألت كارميلا.

«جيّد جداً»، أجاب ماثيو، «كنّا نشاهدُ التلفاز».

«حقّاً؟»، ألحّت كارميلا مُظهِرةً بعض التوجّس.

كان إخفاءُ المشهدِ المُحرِج الذي حدث عند الظهيرة لمصلحةِ رامون، لذلك دعم كلام ولدهِ بإيماءةٍ واضحة.

«جيّد، لقد أحضرنا سلطة روسيّة وفطيرة سمك باكالاو (القد)، لِنرَ كيف سيكون المذاق».

باكالاو.. طعمٌ شهيٌّ آخر قد خسرهُ إلى غير رجعة. عند تمامِ الساعة الثانية عشرة ليلاً احتفل رامون بالسنة الجديدة برشفةٍ من الماءِ البارد.

(٨)

بغضّ النظرِ عن الوداعةِ وحسّ المرحِ الفِطريّ لديهم، فإنّ أطبّاء الأورام عادة ما ينتهي بهم الأمر محكومين بالكآبةِ والسوداويّة. لا وجود لأخصائيّ آخر ولا حتّى الطبيب الشرعيّ ذاته يستطيع الحفاظ على علاقةٍ بهذهِ الطبيعيّة مع سوءِ الحظّ والمصائِب كما يفعلُ طبيبُ الأورام، يبدو وكأنّ روحهُ تغيبُ كُليّاً كي لا يُصيبها العفن. عندما يترجّى مريضٌ بمرضٍ عضال بصيص أملٍ ليس بإمكانِ الطبيب أن يُلقّمهُ كذباً، إذ أنّ مهمّتهُ ليست أن يكون رحيماً بل مِهنيّاً وموضوعيّاً. أيّ أنواعِ المِهنِ هو طبّ الأورامِ هذا!؟ ما هي طبيعة الانتقام أو المكافأة المرجوّة من هذا الاختصاص؟ أيّ الطُرُقِ تقودُ إلى مثلِ هذا التخصّص القاتِم والمأساويّ، أيقونةٌ للحظ العاثر ومُنسّقٌ للعلاجاتِ المروّعةِ والعقاقيرِ المميتة.

عند النظرِ إلى وجهِ أحدِ أطباء الأورام من الواجب التذكّر بأنّه وفي مكانٍ ما مِن لاوعيه يقبعُ مُحرّضٌ أو حادثة أو صدمة أو بطولة مازوخيّة أو فضول خبيث. أتكون تلك رغبة في محاكاةِ

الأب، بقتلِهِ أو بإرضائِهِ أو بامتلاك إقامةٍ دائمةٍ في جناحِ مُستشفى مُخصّصٍ للأغنياء؟ إنّ عيادة طبيبِ الأورام هي مسرحٌ لجريمةٍ نفسيّة، خلف الشهادات التي تُزيّنُ الجدران تكمن دوافع هاربة من الضوء خوفاً من أن تُكشف. طبيبُ الكآبةِ لهُ جِلدٌ مُعقّم وقلبٌ من جليد، حرارةُ المرضى العالية لا تُثيرهُ لكن بالمقابل فإنّ سرطاناً مُستفحِلاً أو ورماً من نوعٍ خاصّ هو بمثابة نمرٍ سارحٍ يُوقِظُ حاسّة الصيّاد لديه.

رفع الطبيب ألداما سمّاعة الهاتف واتصل بِلويس راميريز أخصائيّ الطبّ الشرعيّ في معهدِ الأورامِ السرطانيّة الوطني. كان قد طلب إليهِ منذ خمسة عشر يوماً مضت، كخدمةٍ شخصيّةٍ، أن يُحلّل الخزعة التي أُخِذت من لسانِ رامون. طريقة تعاملِ راميريز المُبتذلة إلى حدٍّ مبالغٍ فيه لم ترُق للدكتور ألداما، لكنّهُ التجأ إليهِ لخبرتهِ في مجال تحليلِ وتصنيف عيّنات الأنسجةِ الخبيثة وفي فهمِ ما يُدعى «مُحفّز الخليّة الذاتيّ» أو «التحساس» الذاتيّ للخليّة.

«هل أخذت هذهِ الخزعة من الديناصور غودزيلا أم ماذا؟»، سأل راميريز.

«لقد لفت الأمر انتباهي منذ البداية»، أجابهُ ألداما، «لديّ فضولٌ كبيرٌ لمعرفةِ رأيك».

«عندما وضعتهُ تحت المجهر قلتُ لنفسي: من المُؤكّد أن أحد الحمقى في المُختبر قد بدّل صُور الأشعة التي أرسلتها لي بالخطأ،

فأرسلتُها مجدّداً ليعيدوا تصوير العيّنة مرّة أخرى ثمّ بعد اطّلاعي على النتيجة.. يا رجل!.. قلتُ في نفسي: إنّه ورم خبيث يُصيبُ المنطقة اللثويّة، لكنّهُ نوعٌ لا يُصيبُ سوى الأطفال!».

«لكن هل انتبهت إلى عُمرِ المريض؟»، قاطعهُ ألداما.

«بالطبع، بحقّ الجحيم يا رجل! وقلتُ في نفسي: هذا أمرٌ لم يكن ليحدث لتشاڤيلو[1] بذاته».

«هنا في المستشفى أصرّوا على أنّهُ ورمُ الخليّةِ المُستديرة».

«انظر، دعك منهم، اترك لهؤلاء المُخنّثين خِرّيجي هارڤارد أخذ عيّنات الدم لأنّهم لا يصلُحون لأمرٍ آخر. نحنُ أمام حالةٍ من الساركوما العضليّة المُخطّطة سريعةِ النموّ والتي تُصيبُ الأطفال حصراً، أعني كما لو أنّ عُمر هذا الرجل عامان فقط!».

«لكنّه محام في الخمسين من العُمرِ يا لويس وليست هنالك في تاريخِهِ العائليّ أيّة عوامل وراثيّة من هذا النوع. من هنا لا أستطيعُ أن أفهم كيف حصل ذلك..».

«حسناً وأنا بالمثل، لكنّنا إن توصّلنا إلى معرفةِ ما حدث أتوقّعُ أن يتمّ منحنا جائزة لاسكر أو نوبل مثلاً!».

«حسناً، لا تُبالِغ، ليس إلى هذا الحد».

---

(١) تشاڤيلو هو المثّل المكسيكيّ ذو الأصول الأمريكيّة ومقدّم برامج الأطفال الشهير إكساڤير لوبيز xavier Lopez (الثاني عشر من فبراير ١٩٣٥).

«كيف لا!»، استنكر راميريز بِمكر، «متى رأيت حالةً شبيهةً بهذه التي أمامنا؟ هيّا أجِبني؟ لو تعلم ما الذي بإمكاننا استخلاصهُ من خليّةٍ بالغةٍ تحذو حذو خليّة طفلٍ بعمرِ الحضانة، إنّه منبعُ الشبابِ الدائمِ يا مُعلّم!».

«يصعبُ عليّ تصديق مثل هذه الأمور».

«لكن.. لا يمكنك أن تُنكِر أنّها حالة غريبة.. بل نادرة. هل مريضك مثليّ الجِنس؟».

«لا، ولا يُعاني من الإيدز إذا كان ذلك ما تُلمّحُ إليه».

«لا!»، قال راميريز، «لكن يبدو لي وكأنّهُ كان يمصُّ قضيب سوبرمان المشعّ يا رجل!».

قهقهةُ راميريز المُصطنعة حلّت محلّ صمتِ ألداما غير المُريحِ، إذ كان من المُحيّرِ بالنسبةِ إليهِ أن يكون طبيباً شرعيّاً مرموقاً وبِنفسِ الوقت انتهازيّاً مُتملّقاً.

«يهمّني أن أعرف»، تابع ألداما بعد أن توقّف الطبيب الشرعيّ عن الضحك، «إذا كنت تعتقدُ بضرورةِ إجراءِ فحصٍ للبصمةِ الوراثيّة لمعرفةِ وحصرِ الطفراتِ الوراثيّة الحاصِلة».

«بالطبع! على هذه الخليّة أن تعترف. أُؤكّد لك بأنّها تشكّلت من اندماجِ جين PAX7 مع FOXO1 وانشطارٍ للخلايا الأُمّ في عائلةِ الجينات المُترجِمة للبروتينات KRAS وNRAS وكذلك الجين المسؤول عن النموّ FGFR4 وجينات أخرى خبيثة ومُعقّدة التسمية.. ما هو

مُؤكّد فعلاً هنا أنّ هذه الجينات ترافقت مع غازاتٍ في الجين PAX3 أو PAX7 كما تودّ تسميته، يكونُ على الأقلّ عند الأطفال أكثر قابليّة للانزلاق والتحوّر».

«لسوء الحظّ»، قال ألداما، «عملي في العِيادة لا يسمحُ لي بالبقاءِ على اطّلاع ومتابعة دائمة لعلمِ البصريّات الوراثي. أريدُ معرفة إن كنت ستدعمُني في هذا. إذا ما كنت مُستعدّاً لتُساعِدني في تحديث الدراسات ذات الصِلة المُباشرة بهذه الحالة سأكون ممتنّاً لك».

«إذا أعطيتني الضوء الأخضر»، أجابهُ راميريز، «أستطيع أن أطرح الأمر على خوان ديلغادو عالِمُ الوراثةِ المعروف في المعهد.. هو مُتفوّق في هذا المجال.. سأُخبِره أنّنا أمام سلالةٍ خبيثةٍ جدّاً وعلينا زراعتها وإجراء الدراسة اللازمة عليها.. بالتأكيد سوف نكتشفُ الكثير من أنواعِ الأورامِ غير الاعتيادية لنتصدّر بذلك أغلفة مجلّات السرطان يا صديقي».

«أتعتقدُ بأنّ هذهِ الحالة على هذا المستوى من الأهميّة؟»، سألهُ ألداما مُتوجّساً من ثقتهِ المُفرِطة.

«تنشطِرُ هذه الخليّة بشكلٍ عشوائيّ ومجنون لكن بترتيبٍ بالغٍ في نفسِ الوقت، وتتموضعُ بحيث تعملُ على تنميةِ أوعيةٍ دمويّةٍ لا تُعرقِلُ كما أنّها لا تختنق كما يحدث في تدافعٍ ضمن قطيع. إنّها أشبهُ بعجائز مُشاغبة لكن لزجة ومُنظّمة.. المُذهل في الأمر أنّ ما قامت بهِ تلك الخلايا من تخريبٍ كان دون أن تصطدم ببقيّة الخلايا.. أتفهمني؟».

للمرّة الأولى خلال مسيرتهِ المِهنيّة الطويلة كاختصاصيٍّ في مجالِ التشخيص والعلاجات الاعتياديّة ظهر لغزٌ يتحدّى خواكين ألداما. كيف يُمكنُ لورمٍ سرطانيٍّ بهذهِ الخطورة عادةً ما يُصيبُ الأطفال أن يظهر في لسانِ شخصٍ بالغ؟ كان أمراً خارجاً عن المألوف كما لو أنّ معزوفة مارياتشي دُسّت وسط نوتةٍ لباخ على سبيلِ المثال. ما هي يا ترى طبيعة تلك الطفرات غير الطبيعيّة التي حفّزتها؟ أو ما هي عواملِ الخطرِ التي ساهمت في رعايتها؟ لا بدّ أنّها عصيّة على التركيبة العلاجيّة الكيميائية المساعِدة.

ألداما بدأ يتخيّلُ اسمه مطبوعاً على غلافِ أشهرِ المجلّات الطبيّة المرموقة كضيفٍ لعقدِ مؤتمراتٍ طبيّة وإعطاء محاضراتٍ في بوسطن ولندن وباريس وبدأ يتلذّذُ بطعمِ الشهرة التي سوف يُحققّها الكشفُ عن مثل هذا النوع من الساركوما الأكثر غرابة حتّى من ذلك الورم الخبيث المسؤول عن إنهاءِ حياة أوغو تشافيز والذي كان يعتبر الخليّة الخبيثة الحاملة للورمِ السرطانيّ الشعبوي الذي خنق فنزويلا عن بكرة أبيها.

كانت أيديولوجيا الدكتور ألداما التقليديّة تتمحورُ حول معايير فيزيولوجيّة غريبة تُفيد بأنّهُ لو لم يوجد تسلسلٌ هرميّ وظيفيّ مُحدّد داخل الجسد ولو أنّ خلايا الجسد تمتّعت جميعها بالقدرِ ذاتهِ من الامتيازات لما كان لنا أن ننتهي إلى كوننا ثديّات ذكيّة بل مجرد اسفنجيّات بحريّة لا أكثر، لهذا السبب لا بدّ من تصفيةِ الخلايا المُضطربة واللحم الزائد وفصلها عن النسيج الكُليّ للكائن الحيّ. لكن ما السبيل لتطبيقِ هذا المِقياس في مثل هذه الحالة المُعقّدة؟ هم

استأصلوا الورم والأنسجة المُحيطة أيضاً. لكن، يمكن للخلايا السرطانية أن تبقى مختبئة في المناطق التي لا يمكن الوصول إليها في النظام اللمفاويّ. لو كنت ورماً سرطانياً أيّ الأماكن ستختارُ لتختبئ فيها يا ترى؟ هل ستختارُ العقد اللمفاوية في منطقةِ العُنق؟ بالطبع، لكن هنالك احتماليّة عدم وجودهِ في هذه المنطقة وأن يكون قد ذهب إلى القصبة الهوائيّة مثلاً أو إلى الغدّة الدرقيّة المريحة أو إلى محجرِ العين، لكن في اللسان! لماذا في اللسان بالتحديد؟

عندما قام جرّاحُ تجميلِ الوجهِ والفكّين باستئصالِ الورم من التجويفِ الفمويّ ووضعه على صينيّة معدنيّة بينما كان يقطرُ مزيجاً برتقاليّ اللون من الدم واللعاب، تمعّن فيه ألداما باستغرابٍ كما لو أنّه حيوانٌ من الرخويّات أو بزّاقةٌ خارقةٌ غريبةٌ بالكامل عن التشريح البشري، العين كما اليد والقضيب وحتى البنكرياس جميعها أعضاء تحمل بصمةً بشريّة واضحة لكن اللسان هو عضو غريبُ الأطوار ومُتعدّد الاستعمالات فهو فنّان وعرّاب الطعوم والمذاقات وفكاهيٌّ ثرثار وناظِم للأصوات.

خلال مرحلة تكّون الجنين وُجِدت عضلة مُخطّطة غير مُكتملة عاشت قرابة نصف قرنٍ ساكنة ومُعطّلة ولم تمسّ لسان المريض بسوء، لكن لماذا تمنّعت أو قاومت أن تكون عضلةً فعّالة؟ كيف تمكّنت من مقاومةِ وضعِها الطبيعيّ، أي أن تكون عضلةً نشيطة وفعّالة؟ وكم بلغ عددُ الانشطارات التي قامت بها حتى تحوّلت إلى خليّة سرطانيّة؟ كان على ألداما في سبيلِ معرفة الإجابة عن تلك التساؤلات أن يطّلع على أحدثِ الأبحاثِ وأن يتعاون للمرّة الأولى

مع فريق أطبّاء مختصّ في الطبّ التحليليّ. كان راميريز قد أقنعهُ بأنّهم سوف يكتشفون شيئاً غريباً ومُهمّاً للغاية وجديراً بتقديمهِ للمُجتمعِ العِلميّ العالميّ. وفي هذه الأثناء توجب عليه أن يتأكّد من أنّ المريض سيبقى على قيدِ الحياة لمدّة كافية تؤهّلهُ لأن يكون موضوعاً لدراسةٍ شاملةٍ حول حمضهِ النوويّ وحالما يتعافى من عمليّة الاستئصال خطّط ألداما لإخضاعه لجلساتِ علاجٍ كيميائي مُكثّفة، كما أنه سيحرص على علاجهِ باهتمامٍ كبيرٍ لا يُعادِله سوى ذاك الاهتمام الذي خصّصهُ لمريضتهِ لورينا غالڤان، شابة فائقةُ الجمال جاءت إلى عيادتهِ قبل عشرين عاماً. كانت طبيبتها أخصائيّة الأمراض الجلديّة وزميلة سابقة لألداما قد رشّحتهُ لها كي يُقيّم حالتها ويُعاين شامةً ظهرت في كاحِلها الأيسر والذي كان شكلها يبدو يوماً بعد يوم كخريطة ولاية كاليسكو المكسيكيّة.

في محيطِ هذا الكيان غير المفهوم امتدّت مساحة من الألمِ الحارقِ، تريليونات من الخلايا تواطأت لتُشكّل صورةً مفرطةً في دقّتها وواقعيّتها للآلهة الهندوسيّة بارڤاتي (ابنة الجبل) الإلهة الأكثر جمالاً في الأساطير أجمع. كان للشابة وجهٌ ونِسٌّ ماكِرٌ، جسدها كان مزيجاً من الإثارة والمُنشّطات وصوتها كان ناراً ساحِرة. اعتاد ألداما أن يتفحّص مرضاه بكفّين باردتين وحازمتين لكنهما هذهِ المرّة ارتعشتا عندما لامستا الفخذين البرونزيين من لفحة شمس استوائيّة، ولولا ثوبه الطبيّ الفضفاض لكشف سرواله عن انتفاخٍ مُحرِجٍ. بعد أن أنهى فحصاً مُتعرّجاً تعثّر بجسمٍ غريب، كان عُقداً لمفاويّة مُنتفخة في طيّة فخذِها تماماً عند النفق الأربيّ. وجب على

الطبيب أن يبذل جهداً مُضاعفاً لإخفاءِ حرقتِه وشكوكه؛ سرطان الخلايا الصبغيّة يتفشّى بشكلٍ مجهريّ من فئة M1 أو B أو C. هكذا جالساً خلف مكتبِهِ ومتوقعّاً الأسوأ أكمل ألداما كتابة تقريرِهِ الطبيّ حول المريضة مع إلقاءِ بعضِ الأسئلةِ غيرِ الضروريّة بهدفٍ وحيد هو إطالةُ مدّة بقائِها في عيادتِهِ مع الحفاظِ على حسن التصرّف والطابع الأبويّ أثناء الحديث. على غيرِ العادة أنهى الاستشارة بتربيتٍ مُطوّل على كتفها وكلمات تشجيع مزيّفة. في موعدِ المُعاينةِ التالية عادت لورينا بصحبةِ خطيبها. كان شاباً ثريّاً متحذلقاً فسخ خطوبته منها متنصّلاً من وعدِهِ بالزواج بذريعةِ أنّه يُحبّها حُبّاً عظيماً لا يسمحُ لهُ برؤيتها تتعذّبُ أمامه، لكنّ فسخ الخطوبة دمّر الفتاة وشهد انهيارها تسارعاً منذ تلك اللحظة بالتزامنِ مع تزايدِ الاهتمام الخاصّ من طرفِ ألداما والذي وصل إلى درجاتِهِ القصوى، فكان يذهبُ إلى منزلها كي يحقنها بدواءٍ أمكنه وصفهُ لها على شكلِ كبسولات. الرغبة حرفت مسار تفكيرِهِ ومبادئِهِ فانتقل من الصراحة إلى التحايلِ ومن الصدقِ إلى الخديعة ومن الكشفِ مع مراعاةِ الحفاظِ على الأبعادِ اللائقة إلى اللمس والتحسّس المُبتذل، ومن مقتِ الوشومِ إلى الانشغال بالوردةِ التي زيّنت ظهر لورينا وطير السنونو الذي ظهر نصفهُ مُحلّقاً على خصرها واختفى نصفهُ الآخر تحت حافّة سروالِها الداخليّ. ألداما أراد بشدّة أن يُحرّر رحيق الزهرة وأن يصطاد السنونو وأن يضع طائرهُ هو في عشّ المجون، ووصل بِهِ الأمر إلى أن صار يتهيّجُ من أنينِ المريضة، لكنّه في النهاية مُثقلاً بالذنبِ وتأنيبِ الضمير قرّر أن يُحوّل المريضة إلى طبيبٍ زميلٍ

مُحترم، واختار لها طبيبة أورامٍ ضريرة كي لا تنجرّ إلى الانحرافِ الذي وقع هو بِه.

كان شغفهُ بموسيقى باخ هو الترياق الوحيد ضدّ الأفكارِ غير الأخلاقيّة. لم يكن بمقدورِ مؤلّفٍ موسيقيٍّ آخر أن يصرِف تفكيرهُ عن لورينا. يعتكفُ في غرفةِ مكتبهِ ويُرتّبُ ساعة على الأقلّ من الهروب اليوميّ لسماع (الطِباق) أو الزجل. يُراقِب دوران أسطوانة الفونوغراف على طاولة مُستديرة كالمُنوم مغناطيسيّاً أمام فلكِ الإبرةِ اللولبيّ الواقع على المركزِ الصامت للمجرّة الموسيقيّة. على الرغم من تحوّلِهِ المُبكّر تجاهِ الإلحاد، كان خواكين ألداما مسكوناً بشياطين روحانيّة، ففي مدرسةِ الإخوة ماريستاس تعلّم أنّ الجسد ضعيف وعدوّ للرّوح ومن الضروريّ مقاومتهُ بشكلٍ أو بآخر بهمّةٍ ومشقّةٍ بالعقاقير وبالمِبضع. ألم تكن حياتهُ المِهنيّة في الأصل معركةً ضدّ القُدرةِ التدميريّة للجسد؟ آمن بذلك.

كان ألداما يفتقرُ إلى ما هو مُقدّس ويملؤهُ حنين عميق نحوه، فهو عطِشٌ للشعائر الدينيّة وللمغزى، للتضحية والقربان المُقدّس. كانت الموسيقى تمنحهُ العزاء والقناعة والثبات. وما يكون يا ترى الدواء الناجع ضدّ الشبق؟ بالطبع إنّهُ فنّ الهروب (مقطوعة باخ الشهيرة المعزوفة على القيثار). طرازُ تلك الآلة العريق يثيرُ لديهِ مشهداً متجانِساً يذهبُ بهِ بعيداً عن نفسهِ إلى بلادٍ تتعرّى فيها الأشكال بكمالٍ فوق بشريّ. العناصر الثلاثة لهروبهِ ذاك، الجهة «ب» من الاسطوانة الثالثة، المقطوعة رقم ١٤ تبعثُ فيهِ النشوة، قريباً من الدورة «مئة وسبعون» يكون ألداما قد انسجم تماماً مأخوذاً

بمشهدٍ مُتسارعٍ بفعلِ تواترِ اللحن الذي يزدادُ صخباً فيبدأ جسده بالارتجاف بطريقةٍ يُمكن أن نجد شبيهاً لها في النشوةِ الجنسيّة إن كان من حيثُ القوّة أو القِصر.

عندما تُوفيّ باخ خلّف لنا هذه القطعة الموسيقيّة غير المكتملة، فعند الدورة ٢٣٩ تبدأ الموسيقى بالتلاشي ويتوقّفُ البثّ كعصفورٍ يرتطمُ بسورٍ شفّافٍ مرّة تلو أخرى. هذه الهدنة بين الموسيقى والضجيج، ذاك الزمان الذي لا ينفد، إنّها دون أدنى شكّ تحفة موسيقيّة.

ألداما استمع في مُناسباتٍ سابقة لمقطوعةِ نشيد الجنازة عبر جهاز تخطيطِ القلب الموصولِ إلى صدرِ مريضٍ قد فارق الحياة. لم يسبق للموت أن سُمع قط على هذا النحو، إلا أنّه كان هناك بالفعل.

في إحدى الليالي وبينما استمتع ألداما بحفلٍ موسيقيّ للمؤلّفِ الشهير موريسيو ريفل مع كأس وسكي «دبل»، تلقّى مكالمةً هاتفيّةً من والد لورينا. ابنتهُ وعلى الرغم من حالةِ الغيبوبةِ التي دخلت بها بفعلِ المُخدر تئنّ مُصدرةً دلائل على ألمٍ مُبرِّح. خرج ألداما على وجهِ السرعة مُتّجهاً إلى منزلها. صدمة من الأدرينالين جعلتها تغيبُ عن الوعي كالمخمورة. وجدها بين ملاءات السرير المتناثرة تتلوّى من الألم. لاحظ أظافِرها وقد تحوّل لونها إلى البنفسجيّ لكن شفاهها كانت مُكتنزة كعادتِها، أعطاها مهدّئاً للمرّةِ الأخيرة وخرج من الغرفة وداعب بحزنٍ عميقٍ كلّ حرفٍ من حروفِ اسمها بينما كان يكتبُ تقرير الوفاة.

ترك لديهِ ذاكَ اللقاء الأخير أثراً دائماً كطعمِ الخلِّ في الفم. مرّت السنوات والأولاد والأسطوانات والحفلات والمرضى والتلاميذ والعاشِقات والأحفاد ليشيخ مُستسلماً لمرورِ الزمن إلى أن ظهرت حالةُ رامون لتهزّهُ مُتحدّية.

«كيف وجدت طعم لحم البطّ؟»، سألتهُ زوجتهُ خلال جلسةِ عشاءٍ بمناسبةِ عيد زواجهما في مطعم فاخر.

ألداما شارد الذهن يُفكّرُ بالتداعيات المُحتملة لخطّة إدخالِ عقار دوكسوروبيسين أو سيسبلاتين إلى العلاج الكيميائي، على أنّهُ أراد أيضاً إدخال عقار ميثوتركسيت لكنّه لم يكن مُتأكّداً من كيفيّة تفاعلهِ مع بقيّة العناصر.

«عفواً!»، أجابها.

«كيف وجدت مذاق البطّ؟»، عاودت السؤال.

«جيّد جيّد»، قال ذلك من غير تركيز. قرأ مُؤخّراً دراسة حديثة حول تطبيقِ جرعاتٍ عاليةٍ من عقار انترفيرون في علاجِ الساركوما العضليّة المُخطّطة لدى الأطفال والمُراهقين، لكنّهُ لم يكن قد كوّن خبرةً حول العقار بعد، ويخشى من أنّ استعمالهُ في هذهِ المرحلة سيكونُ تهوّراً حقيقيّاً.

«وماذا عن طبقكِ؟»، سألها.

«لذيذٌ جدّاً»، أجابت هي بسرورٍ، «طريّ جداً كالسُمنة».

تابعا عشاءهما دون كلامٍ إضافيّ.

(٩)

بعد مرورِ أسبوعين على بقائهِ في الغرفةِ باهظة التكاليف في المستشفى الخاصّ، عاد رامون إلى منزلهِ ليُتابع فترة النقاهة. أُوكِلت مهمّة الاعتناءِ بصحّتهِ إلى إلوديا، بينما تحوّلت كارميلا، التي ابتعدت لسنواتٍ طويلةٍ عن ممارسةِ مهنةِ المحاماة، إلى مديرةٍ مُطلقة الصلاحيّات لمكتبِ مارتينيز وشركاه للمحاماة، حيثُ أخذت على عاتِقها، بمُساعدةِ شابّين مُتدرّبين وسكرتيرة خرّيجة زمنِ الطباعة على الآلة الكاتبة، تولّي القضايا القليلة التي لم يُحوّلها رامون إلى زملاء محامين آخرين، ومحاولة إنهائها بنجاح.

القضايا لم تُمثّل أي تحدٍّ على الإطلاق: دعاوى مرفوعة ضدّ مستأجرين مُتعثّرين في دفع المُستحقّات، صياغة لعقود بيع وشراء، طلبات حماية ضدّ عقوباتٍ جزائيّةٍ مُبالغٍ فيها.

بينما التحقت كارميلا بركبِ القضايا القانونيّة، تلقت إلوديا دروساً مُكثّفة في قواعدِ التمريض من إحدى الجارات التي تخصّصت برعايةِ كبار السنّ ممن يُعانون الخرف. تعلّمت خلالها كيف تحقن

فاكهة البابايا وكيفيّة فحص النبض وتدليك منطقة القولون في حالات الإمساك. مهمّتها الأصعب تمثلت في تطبيق الحِمية التي وضعتها أخصائيّة التغذية من أجل رامون. في موعدِ الفطور توجّب عليها أن تُحضِر لهُ عصيراً مُعقّداً؛ بياضَ بيضتين وكوباً من الحليب ونصف موزة وثلاثة أرباع تفّاحة ومئة غرام من الشوفان المطبوخ وخمسين غراماً من المانغو. كانت إلوديا تضعُ المُكوّنات على طاولةِ المطبخ وتكيلُ المقادير بدقّة الكيميائيّ، تقارن المقادير بالمِسطرة مُتلفّظة بها بصوتٍ مرتفع ثم تُضيفها واحدةً تلو الأخرى إلى خلّاطٍ كهربائيّ.

«سيّدتي»، قالت مُخاطِبةً كارميلا، «هل أطلب من المُختصّة أن تضع مسحوق الصبّار المُجفّف في القائمة؟ إنّه مفيدٌ جدّاً».

«ليس علينا الارتجال. يكفي أن تتّبعي الوصفة من الألف إلى الياء».

«ومن أين آتي بالمانغو؟».

«ألا يوجد مانغو في السوق؟».

«لا يأتون بهِ إلى سوقِ البلدِ الشعبيّ قبل شهر أبريل، هذا إن أمطرت».

«يعرِضونهُ في السوبر ماركت بشكلٍ مُستمرّ. أضيفيه إلى قائمةِ المُشتريات».

الهدفُ الرئيسيّ هو تسمينُ الأستاذِ رامون قبل بدءِ جلساتِ

العلاجِ الكيميائي، «هل أُحضِر لك كأساً أُخرى من العصير؟»، كما يتوجّبُ حمايته من الإصابة بالالتهابات. ضاعفت إلوديا من جهودها في مجالِ التنظيفاتِ اليوميّة للمنزل مع التأكّد من تلميعِ الصحون والأواني عند غسلها وغسل الفُوطِ والمناشف مرّتين، كما أنّها أسرفت في استعمالِ مُعقِّم الكلور أثناء تنظيفِ الأرضيات وفي استخدام المكنسةِ الكهربائيّة لتنظيفِ السجاد، وصار رامون يختبئ في الحمّام ليهرب من الشِجارات المدويّة التي يتسبّبُ بها التراب العالق بإحدى الأحذية القادمة من الخارج أو بقايا الجلد الميّت على أرضية الحمام أو وجود خدوشٍ جديدةٍ على جدار المنزل ولكأنّها ستلتهمُ البيت بأكمله. راح جهدُ إلوديا في العملِ يتضاعفُ بينما راتبها أخذ يتناقص شيئاً فشيئاً حتّى صارت عائلة مارتينيز تدين لها. الأمر الذي تقبّلتهُ دون تحفّظاتٍ، وكانت راضيةً بجزء من راتبها تحصلُ عليهِ يوم الجمعة من كل أسبوع. لم تتذمّر قط من الأمر بل على العكس من ذلك كانت تعملُ بسعادةٍ أكبر منذ أن عاد رامون ليقضي فترة نقاهتهِ في المنزل تحت رحمةِ ثرثرتِها.

«وبما أنّه صار مسموحاً لك الآن أن تأكل أصنافاً أكثر تنوّعاً من قبل»، شرعت إلوديا بالكلام بينما كانت تمسحُ الغبار عن رفوفِ المكتبة، «فسوف أُحضِّر لك كريمة شيلاكيليس. ليس عليّ سوى أن أترك قطع التورتيلا المقليّة لترتاح قليلاً في الصلصة وسوف تلينُ تلقائياً لترى كم سيكون طعمها لذيذاً».

إلوديا لم تكن قد تصالحت بعد مع فكرة أنّ رامون فقد قدرته

على الاستطعام بعد عمليّة البتر، «هذا بالإضافةِ إلى أنّي عرفت أنّ الفاصولياء لها فوائد كثيرة، عمّةٌ لي أُصيبت بذاتِ المرضِ لكن في رحِمِها، وبدأوا بحقنِها بالدواء ففقدت شهيّتها ولم تعُد تشعر بالجوع، فوصفوا لها معجون الفلفل الحارّ لوضعِهِ كلصاقاتٍ في موضِع الورم كي يتعرّق. لا أكذب عليك بحرف صدّقني، في غضون ثلاثة أشهر كانت قد تحسّنت. انظر إلى هذا، في أحد الأيّام ظهر لي ثؤلول في الكوع قمتُ بفركِهِ بالفلفل الحار و..(مسحة رسول).. فاختفى».

مونولوج إلوديا اللامنتهي الأشبه بالموسيقى المُتواصِلة والمُتناغِمة في خلفيّة المشهد آنس وحدة رامون. يغطّ في قيلولةٍ لساعاتٍ طويلةٍ تتحوّل في النهاية إلى ليالٍ من الأرق نتيجةً لانعدامِ شعورهِ بالراحة والمشاكل الفمويّة المُزعِجة وكذلك بسبب الخسائر الماديّة المُتزايدة. من أجل أن يصرف انتباههُ عن هذا كلّه ينزل إلى المكتب ليرى ما يلتقطهُ هوائيّ التلفاز في مثلِ هذه الساعة المُتأخّرة، مسلسلات تلفازيّة عفا عليها الزمن، أفلام إباحيّة من النوع الخفيف، مواعظ إنجيليّة ودعائيّة. تقريباً جميعُ البرامج كانت مُدبلجة إلى الإسبانيّة. من بين تلك الخيارات المُتواضعة أكثر، ما أمتعهُ كان إعلاناً تجاريّاً يعرض طقم سكاكين يابانيّة من ماركة تاكيميتسو، الإعلانُ شكّل تحفةً فنيّةً من التناقضات، بطلهُ صينيّ بلباسِ الساموراي مع فتاةٍ شقراء تلبسُ مريلة بدت وكأنّها ابتاعتها من متجرِ الألعاب الجنسيّة. من أجلِ إبراز حدّة السكاكين وفعاليّتها قام الصينيّ، من بين أشياء أخرى، بتشريحِ كرةِ سلّة وموسوعةٍ عالميّةٍ وفرخ بطٍّ مُجمّد.

«ياه! هذا رائع جون لي»، علّقت الشابة بضحكةٍ صفراويّة حتّى بدت كدميةِ التكلّم من البطن، «لم أكن أتخيّل أنّ سكيناً يُمكن أن تفعل هذا! يا للعجب! لكن.. أتعلم، دائماً ما أُحاولُ قطع ثمرة الأناناس لكن السكين تعلق ثمّ تنزلق. كادت أن تقطع أصبعي في إحدى المرات! ماذا يمكن أن أفعل يا جون، هل تظنّ بأنّ سكاكين ناكيميتسو هذه ذات الجودة اليابانية العالية يُمكنها أن تساعدني؟».

في ما يلي يأتي المقطع المُفضّل لدى رامون: يطلب الساموراي الصينيّ من الشقراء أن تُمسِك بثمرةِ أناناس وأن ترمي بها تجاهه كما لو كانت كرة قدمٍ أمريكيّة.

«هل أنت جادّ يا جون؟».

كانت إجابةُ الصينيّ الوحيدة أن أمسك بالسكين بوضعيةِ حاملِ مضرب البيسبول قامت الشقراء برمي الأناناس بحذر فقسمها جون لي في الهواء إلى نصفين طولانيين. كاميرا العرض ركّزت بعد ذلك على أحد النصفين المُتماثِلين الذي وقع على الأرض، ما أثار حماس رامون واستحقّ تصفيقاً حارّاً مُسجّلاً من الجمهور. لو كان بإمكانه الاتّصال خلال الدقائق الخمس التالية لحصل بالإضافةِ إلى خمس عشرة سكيناً احترافيّة على آلةٍ لتقطيع البطاطا وكتابٍ عن الطبخ اليابانيّ. على الرغم من كونه لا يهتمّ بالمطبخ إطلاقاً ويكرهُ المطبخ اليابانيّ بشكلٍ خاص، رغِب بشراءِ سكاكين تاكيميستو واستعمالها في وظائف بالغة السخف تماماً كما ظهر في الإعلان. تخيّل نفسهُ يجولُ في المنزل وبيدهِ هذه السكين ليُشرِّح لحم البقرِ

المشويّ ROAST BEEF ويُقطّع أشياء أخرى فقط للمُتعةِ الخالِصة. حتّى تلك اللحظة حزّ بسكينه على الأقلّ نصف الوسائِد التي كانت كارميلا قد صفّتها في رتلٍ مُتّسِق فوق الأرائك لدرجةٍ انتفت معها إمكانيّة الجلوس بأريحيّة، وشرخ لوحات المناظِر الرعويّة التي زيّنت جدران منزلِ حميه إذ كان يراها رمزاً للبورجوازيّة التي تُصوِّرُ الجنّة كمكانٍ حيث ذوي البشرة السمراء أمثالهُ محظورون من دخولها.

رامون تسبّب بإرهابِ شقيقِهِ إرنستو وبجرحِهِ جرحاً طفيفاً قريباً من الوريد الوداجي خلال زيارته الأخيرة. عندما اقترح عليهِ الأخير أن يبيع منزله وينتقل إلى شقّة صغيرة كي يُقلّص المصاريف، بطريقتِهِ الفجّة مارس مليونير البوليسترين ضغوطهُ على أخيه كي يُوفي ديونه التي عليه في أقرب وقتٍ ممكن.

«إنّك تسكن فوق منجمٍ من ذهب على بعد ثلاثة فراسخ فقط من شارع أنسورهينتس الرئيسي، ركّز معي، بإمكاننا التحدّث إلى رجلٍ من معارفي يعمل في النادي ولديهِ شبكةُ علاقاتٍ قويّة ومعارف في الدولة ونطلب منه أن يُساعدنا في إصدارِ رخصةِ لبناء ما تريد، عشرة طوابق، أو مكاتب، أو مركز تجاريّ، بيت للدعارة، أيّ شيء، سوف ترى كيف سيتنافس المُتعهّدون لشرائه، بل سيعرضون الدفع نقداً، سترى، أنت لا عليك. تدفعُ لي الدين الذي أريده منك Cash وتجدُ لك شقّة في الأنحاء دون أيّة عراقيل».

دُهِش رامون من انعدامِ حسن اللباقة والحسّ السليم لدى أخيه، هل هو حقّاً رجل أعمال أم مُجرّد أخرقٍ محظوظ؟ تذكّر رامون

عندما كانا مُجرّد طفلين يلهوان وبينما انهمك هو بالتخطيط لمعركةٍ مُعقّدة بين الجيوش المصنوعة من الرصاص بقيادة جنرالات لمعت أسماؤهم عبر التاريخ؛ كان إرنستو ينسلّ زاحفاً إلى سطح المبنى مُتجنّباً صوت الرصاص. «يا لك من أبله» قالها لأخيهِ الصغير عدداً لا يُحصى من المرّات. والآن بات القائد الحربيّ اللامع يدينُ لأخيهِ الأبله بأكثر من مليون بيزو.

كان الدكتور ألداما عزاء رامون الوحيد طوال تلك الأشهر. إذ أنّه وعلى الرغم من تعاملهِ المُتحفّظ وشخصيّتهِ الجلِفة سهّل لهُ أمر الحصول على موافقةٍ لإتمامِ مرحلةِ علاجهِ في المعهد الوطنيّ لأمراضِ السرطان، حيث الأدوية الكيميائية والتحاليل الطبيّة لم تكلّفهُ شيئاً تقريباً. رغِب رامون كتعبيرٍ عن الامتنان مقابل كرمِ الطبيب، أن يُقدِّم لهُ هديّةً «زجاجة كونياك» أو ربّما ما هو أفضل من ذلك، علبةً من سكاكين تاكيمتيسو. لكن كارميلا حالما قرأت نواياهُ ذكّرتهُ بأنّ بطاقات الائتمان قد وصلت إلى حدّها الأقصى وبالكاد تكفي لنهاية الشهر، تعودُ أسبابُ ذلك إلى الدخل السيّئ الذي يُؤمّنه لهم مكتبُ المحاماة. هكذا توجّب على هديّة التعبير عن العرفان تلك أن تنتظر.

انتهت جولةُ العلاج الكيميائي الأولى في فبراير بجرعاتٍ مُعتدلة من العقار الثلاثيّ المُنقِذ: فينكريستين، داكيتومايسين، وسيكلوفوسفاميد. هو علاجٌ متعارفٌ عليهِ منذ زمن. استعان ألداما بكنايةِ الأسطول الحربيّ كي يشرح لرامون وكارميلا أنهُ تبنّى العلاج الكيميائي الذي عادةً ما يُطبّق على الأطفال المُصابين بالسرطان، على

أنّ الأمر لم يتطلب الاستعانة بفيلقِ الدرّاجات الناريّة. مع الجولةِ الثانية التي أُضيف إليها عقارا الإيفوسفاميد وانترفيرن، بدأ العلاج (أو الجيش) بتدميرِ الحقل فعاني رامون من فقدانِ خِصلٍ كاملةٍ من شعرِه وبدأ بالتعرّقِ عرقاً بارداً مُترافِقاً مع حكّةٍ مُزعجة طالت جميع الثقوب في جسده فاضطرّ مُكرهاً إلى ارتداءِ القُبّعات والأوشحة والتقطير في العين ودهن كريم تطرية الشفاه ومرهم لفتحةِ الشرج. اعتراه شعور بالخجل من نفسهِ كلما اضطرّ لفعلِ تلك الأشياء التي طالما انتقدها كفعلٍ مرتبطٍ بالعجائزِ أو اللوطيّين.

كان ثقل ديونه المُتفاقمة يجثم على صدره، لم يكن هنالك أملٌ بتسديدها دون خسارة كلّ ما يملك، منزلهُ الذي كان على وشك أن يُغادره، ثلاثمئة متر مربّع من البناء المسلّح في واحدٍ من أكثر المُجمّعات السكنيّة حيويّة. كان البيت هو ميراثه الوحيد. ولمّا لم يتبقَ أمامهُ سوءٌ إضافيّ لتقريعهِ وإلقاءِ اللوم عليهِ بدأ بازدراءِ نفسه، لم أعد أصلحُ لشيء. هذا ما يخلصُ إليه كلّما تسبّبت لهُ جلسات العلاج الكيميائي بضبابيّةٍ في أفكارهِ إذا ما همّ بقراءةِ أحد الملفّات التي كانت كارميلا تُحيلها إليهِ لمراجعتها والمصادقةِ عليها، فيلجأ إلى التظاهر بأنّ صُداعاً يضربُ رأسهُ ليتجنّب الاعتراف بأنّهُ لا يتذكّر أيّاً من موكّليه المذكورين في الملفّ أو حتّى تفاصيل القضيّة المقصودة. لهذا الأمر كان يتطلّع إلى الانتحار بطلقةٍ أسفل الذقن، ووداعاً للتأمين الصحيّ! ومن ذا الذي سيفتقدهُ إذا ما رحل سوى باولينا، ابنتهُ الحبيبة اللطيفة والطيّبة التي كانت تجلسُ برفقتهِ لمشاهدةِ التلفاز وأكلِ البسكويت «هل تريدُ منّي أن أطحن لك بعض

البسكويت؟»، عاطفة باولينا ورغبتها بخدمتهِ تُواسيه وفي الوقت عينه بمثابةِ تذكيرٍ مؤلمٍ ومُرّ لهُ بعجزِه. كان على يقينٍ بأنّه إذا ما قرّر وضع حدٍّ لمعاناتِه، فعليه بدايةً التأكّد من أنّ كارميلا لن تعود إلى المنزل فتجد نفسها مُضطرّة لسداد الديون المُترتّبة عليه. لكن كيف يُحقّقُ غايته؟ زواجهُ أصبح من أجل المنفعةِ المُشتركة لا أكثر، لهذا عليهِ أن يُطلّق زوجته وأن يبيعها حصّته من الممتلكات المُشتركة، بهذهِ الطريقة بعد موتهِ لا يبقى هناك من تبعاتٍ بما يخصّ المُساءلات القانونيّة المُتعلّقة بديونِ المتوفى. شقيقةُ الطمّاع دفعهُ إلى التوقيعِ على كمبيالات بقيمةِ مليون بيزو، حسناً، وما الذي سيحدث أمام انتحارِ المُستدين؟ سيحصل بالضبط ما كان ذلك الوضيع ناكر المعروف قد ظنّه منذ البداية: أن أبيع منزلي. لكن يا للأسف فإنّه وقبل أن يُذرّى رماد المتوفّى في الهواء كان قد تطلّق هذا الأخير من المدعو عليها، كما وتنازل لها قبل وفاتهِ وأمام الحاكم العدلِ عن كاملِ حقوقهِ في المنزل المُتواجِد في العنوان الفلانيّ، وبناء عليه فقد تُوفِّي المُستدين وليس بحوزتهِ ممتلكات يُمكن الحجز عليها. فلتذهب إلى الجحيم أيّها الوغد!

«والآن لماذا تبتسِم؟»، سألتهُ كارميلا.

سوف نتطلّق. فكّر رامون مُتحمِّساً لنجاحِ خطّتهِ المؤكّد. كارميلا كانت قد اشترت له مُذكّرة صغيرة كي يُدوّن فيها ما يُريد، لكنه دائم النسيان للمكان الذي يضعها فيه، ولهذا يلجأ لاستخدام أوراقٍ بديلةٍ من أجل التواصل. أمسك بوصلٍ لفاتورةِ كهرباء وكتب:

«من أجلِ تجنّب أيّة تبِعات ممكنة الحدوث مستقبلاً، أريدُ أن أتنازل عن حِصّتي في المنزل، أريدُ أن أكتبها باسمك».

«لا تُفكّر بهذا الآن، ما زلت في مرحلة العلاجِ الوقائيّ، لقد أكّد لنا الطبيب الأمر: ليس علينا أن نقلق، المنزل ملكنا وسيكونُ لأولادنا من بعدِنا. لماذا علينا أن نفعل هذا الذي تقولهُ الآن؟».

«لا أُريدُ لإرنستو أن يُؤذيكم إذا ما حدث لي مكروه قبل أن أُسدّد لهُ الدين. لا أريدُ أن يُجرّدكم من كلّ شيء، إنّه قادرٌ على فعلِ هذا».

«كُفّ عن التفكير في هذا أرجوك. لقد أخبرتك بما أكّدهُ لي مِراراً أنه لا داعي للقلق بخصوصِ الدين حتى لو استغرقنا عشرة أعوام في سدادِهِ لا يهمّ، وعندما نلتفت إلى الوراء سوف نجدُ أنّنا قد انتهينا من التسديد».

لم يستطع رامون أن يُفكّر في أمرٍ آخر سوى أنّهُ لا يُريد أن يدفع المبلغ. منذ أن أصيب بهذا المرض لأسبابٍ اعتباطيّة وفقدانِهِ القدرة على استعمالِ الكلمات أودى بهِ ذلك إلى فقدانِ الانتماء إلى كونه رجل قانون، وبأنّه لم يعد مشمولاً ضمن الالتزامات التي يقرّها القانون. لم يكن خيارُه أن يغرق بالدين ولم يكن إرنستو قد جمع ثروته بنزاهةٍ إذا ما تحدّثنا عن العدل، ومع أنّه عاجزٌ عن التلفّظِ به، يترتّب إذن على إرنستو أن يتحمّل كامل تكاليف علاجِهِ، أمّا وقد تبيّن بأنه لم يكن على استعدادٍ لأن يفعل ذلك من تلقاءِ نفسه، فإنّ رامون سوف يُجبِرهُ بموتهِ على أن يفعلهُ رغماً عنه. وإن كان سيُقدِم على الانتحار فإنهُ

لن يفعل ذلك لأسبابٍ ائتمانيّة كما فعل الجبناء الغارقون في الديون عقب أزمة عام ١٩٩٤، بل إنّهُ سيرحلُ من أجلِ الحفاظِ على كرامةِ عائلتهِ وتجنيبها عبء الحياة مع شخص عاجز.

«أقسمي لي بأنّكِ لن تدفعي لهُ إذا أنا لم أكن موجوداً»، كتب رامون مُترجّياً.

«يا لك من عنيد»، أجابتهُ كارميلا.

في الليلة التالية جمعَت كارميلا ولديها في المطبخ وقالت لهما:

«علينا أن نُولي والدكما اهتماماً إضافيّاً هذهِ الأيّام، أراهُ كثير الاكتئاب».

لام ماثيو نفسهُ لعدمِ اهتمامهِ بوالدهِ، ولكن إذا كان الاهتمامُ بوالدهِ قبل أن يُصاب بالمرض أمراً مُنفّراً، فالآن يبدو له شيئاً لا يُطاق. كانت شخصيّة والده المُسيطرة قد تحوّلت إلى ثقبٍ أسود يبتلعُ كامل طاقةٍ من حولِه، ولذلك فسّر ماثيو بأنّ باولينا كانت تأكل كثيراً لتعويضِ طاقتِها الضائعة بفعلِ قربِها من والدها. لطالما شعر ماثيو بازدراءِ رامون لهُ لكونهِ مُختلِفاً عنهُ، خجول ورماديّ.

«يجبُ أن نحتفل بعيدِ ميلاده»، اقترحت باولينا بِحماس.

«أبي سيرفُض الأمر»، قال ماثيو.

«حسناً يجبُ أن نُقنِعه»، قالت كارميلا واعية إلى احتمالِ أن يكون هذا الاحتفالُ هو الأخير لرامون.

«إنّها فكرة جيّدة يا باولينا».

كارميلا التفتت إلى الثلاثة ونظرت مباشرةً إلى عيني سانت برغرين المُتموضِع على الثلاجة، لقد بدا القدّيسُ راضِياً.

(١٠)

عقب مرورِ أسبوعين دون حضورهِ جلسات العِلاج، وصل إدواردو إلى بيتِ تيريزا وقد وضع كمّامةً على وجهه. كان يُعاني من التهابٍ في الشعب الهوائيّة.

«إنّهُ خطأ أُمّي، لقد نقلت لي ڤايروساً ما من مكتبِها الأشبه بِميتمٍ من القرون الوسطى. لا يعرفون ما هو الصابون! طلبتُ منها ألف مرّة أن تغسل يديها عند عودتها من العمل وألّا تلمس وجهها ونصحتها كذلك باستعمال مُضادٍ للجراثيم كنت قد اشتريتهُ لها».

ما أدرجهُ إدواردو في مونولوج شكواهُ كان بالتحديد صفات الأُمّ المُسيطرة المتعارف عليها. «عندما بدأت بالعطاس طلبتُ إليها أن تذهب إلى فندقٍ لتنام فيهِ فجنّ جنونها، حاولتُ أن أشرح لها أنّها إن توقّفت عن لمسِ وجهِها بيديها فإنّ احتماليّة العدوى قد تنحسرُ إلى ثمانين بالمئة بكلّ بساطة، لكنّها لم تفعل. وطبعاً نقلت لي العدوى. آه هناك شيء آخر؛ كانت تقولُ إنّها لا تُعاني من الزكام وإنّ تلك ليست سوى أعراض تحسّسيّة بسببِ البرد. لكن هيّا من

أين جاءت بفكرةٍ أنّ البرد يُسبّبُ الحساسية؟ الحساسية هي ردّة فعل..».

بدت تيريزا شاردةً عن حديثِ إدواردو، شعرَت برغبةٍ داخليّةٍ عارمةٍ بمُقاطعتِه ومُواجهتِه بالضرورة المُلحّة لأن يُحاوِل الخروج من سجنِه العُصابيّ، لكنّ إدواردو كان يتحدّثُ دون انقطاعٍ مادِحاً قضبان سجنِه شديدة النظافة. وماذا عنها هي؟ ألم يكن منزلها عبارة عن سجنٍ تُديرهُ عيادة نفسيّة ومشتل لزراعةِ الماريغوانا؟ ألم تعثر خلال مزاولةِ مهنتِها المُتمثّلة بعلاجِها، إن كان التحليليّ أو ذاك المُسبِّب للهلوسة؛ لمرضى الأورام على مهمّتها في الحياة؟ على أنّ تلك المهمّة اقتضت أن تكون أيّامها مليئةً بكميّةٍ هوسيّةٍ من المُعاناة. تساءلَت إن كان عليها أن تأخذ إجازةً قصيرة؟ لكنّ إيقاف مواعيدِ جلساتِ مرضاها ربّما سيحملُ تأثيراً كارثيّاً على توازنها النفسيّ. لم تكن تريد اختبار الاكتئاب الذي عانت منهُ في شبابِها مُجدّداً، حيث كانت تُدخّن سيجارة تلو الأخرى وتبتلعُ حبوباً مُنوِّمة كما لو كانت حلوى. بطريقةٍ أو بأخرى السرطان قد أنقذها من حزنها الحارِق وقادها لتجربةِ الماريغوانا لأغراضٍ علاجيّة والالتحاق بمجموعةٍ للدعم النفسيّ وقضاء أيّامٍ بطولِها في الفراش تقرأُ كُتب مارغريت بورسنار وفولتير وإليزابيث رودينسكو. وبِفضلِ مرضها أيضاً تعرّفت على ريبيكا، صديقتها المُقرّبة، وبفضلِه عثرت على مِهنتها.

في هذهِ الأثناء تابع إدواردو تقريعهُ لوالدته:

«كلّ خمس دقائق تقريباً كانت تطلبُ منّي عدم المبالغة، أمضت

الأسبوع بأكملهِ وهي تطلبُ منّي أن أذهب إلى الكُليّة ولزاماً كان يجبُ أن أفعل، لكن الآن بالتحديد ستكونُ مُخالطتي للآخرين أخطر من أيّ وقتٍ مضى، يهمّني أمر الآخرين أيضاً، فعلى الرغم من شعوري بالتحسّن لكنّني ما زلتُ ناقلاً مُحتملاً للعدوى، فالأمراض والفايروسات المُعدِية طوّرت من نفسها في نقلِ العدوى قبل وبعد أن تظهر الأعراض على الجسم المُضيف». سعل إدواردو سعلةً سايكولوجيّة.

«متى سيكونُ بإمكانِك متابعة دروسك مُجدّداً برأيك؟»، سألتهُ تيريزا.

«يوم الإثنين على الأرجح».

صمتت تيريزا لبرهةٍ وتابع إدواردو.

«أعتقدُ أنّني سأتحوّلُ إلى الدراسة عن بُعد».

«لكنّك ذكرتَ أنّ مستوى التعليم عن بُعد أكثر سوءاً!».

«حسناً، أجل، لكن بماذا يُفيدني أن أكون مُسجّلاً كطالبٍ يُداوِم على الحضور في الجامعة إن كنتُ أتغيّبُ عن الكثير من الدروس؟ لقد فاتتني جميعُ محاضراتِ هذا الفصل وانتهى الأمر».

«ألا تستطيعُ إميليا مساعدتك لتعويضِ ما فاتك منها؟».

أدركَت تيريزا خطأها في الحال: لقد تلفّظَت لتوّها بجملةِ الأُمّ الفضوليّة! إنّها المعالِجة لكن لا وعيها يرفضُ قبول ذلك. تأخّر إدواردو في ردّهِ كثيراً. لم تُصدّق تيريزا مقدار الحماقةِ التي ارتكبَتها للتو. لسببٍ

ما استمرّت المدرسة اللاكانيّة، كانت الوحيدة التي منعت المُحلّلين النفسيّين من أن يصِلوا إلى الاعترافِ أو أن يكشفوا مقدار «عاديّة» تفكير المُحلّلِ النفسيّ وكم أنّه ضعيفٌ أمام بوحِ المريضِ وإسقاطاتهِ ورغباتهِ الشخصيّة.

«ألهذا الحدّ أنا مكشوف؟»، قال إدواردو مُنزعِجاً.

«لماذا؟»، قالت تيريزا مُتدارِكةً الأمر.

في هذهِ اللحظة تحوّل إدواردو إلى شابٍّ طبيعيّ مهووسٍ بزميلةٍ يعرفها بالشكلِ وحسبُ مِن خلال مُداخلاتِها الذكيّة أثناء المُحاضرات وبطريقتها الناشِفة حين اقترَبَت منهُ قبل ثلاثة أشهر تقريباً لتطلب دفتر مُحاضراته. بقي تفصيلٌ أخير، على أنّهُ يتعلّقُ بهوسِهِ المرضيّ بالنظافة، فقد لاحظ بأنّ إميليا لم تكن تُقبِّل أحداً عند السلام. لفت انتباه إدواردو مرّات عدّة طبيعة تصرّفاتِها الاجتماعيّة قبل الدرسِ وبعده في الممرّات والقاعات كما في بهو الكُليّة كذلك، عندما كان أحدهم يقتربُ منها ليُقبّلها خلال سلامِهِ كانت تصدّهُ بِمدّ ذراعِها وفتحِ كفِّ يدِها بتهذيبٍ وتحفُّظ مُترافِقٍ مع ابتسامةٍ بارِدة. في الواقع لم يكن متأكداً على وجهِ الدقّة إن كان تصرّفها الجدير بالثناء ذاك مردّهُ صحيّ رهابيّ شبيهٌ بما يعانيه، أو أنّها ببساطة طريقتها الخاصّة في التعبيرِ عن تمرّدها ورفضها للقواعد الاجتماعيّة.

تقلّب إدواردو على الأريكة مع وضوح نفاد صبرهِ أثناء الحديث، مُخرّباً اتّساق غطائه الذي انزلق قليلاً لتلامِس أطرافهُ الأرض وتتلوث بأرضيّة حذائه، بينما وقفَت تيريزا حائرةً بين أن

تتابع اكتشافها التحليليّ للزوايا المُظلِمة في نفسهِ أو أن تكتفي بدور الترغيب وإعطاء النصائح العمليّة التي قد تفيده في استمالةِ الشابة وكسب ودّها، فإذا ما حثّت إدواردو على الاستعجال في محاولةِ استمالةِ الشابة ومُنِي بالفشل، يمكن لهذا الارتداد أن يُقويّ من مناعتهِ العصبيّة وأن يُفعّل ماكينة البغضاء ضدّ النساء، تلك القابعة في أعماقِ الرجال ممّن لم تُشبَع رغباتهم.

«ما رأيك؟»، سألتهُ تيريزا، «ماذا تريدُ أن تفعل؟»، أضافت، «الساعة على وشك الانتهاء».

«لا أدري، الاحتمالُ الأسوأ هو أن تكون من الطائفةِ المورمونيّة، فلا تُقدِم على تقبيل أحد لأنّها تعدّه خطيئة أو خوفاً من أن تحبل!».

«هل تعتقد بأنّ هذا هو السبب خلف تصرّفاتها؟».

«كلّا، في الحقيقة إنّه تصرّفٌ مبالغٌ به. لكن حسناً أنا لا أعرف وسيلةً أخرى للتقرّب إليها..».

«هل ترغب في أن نُتابع حديثنا في الجلسة المُقبلة؟».

نهض إدواردو من على الأريكة، طوى الغطاء ودسّه في كيسٍ بلاستيكيّ ثمّ وضع الكمّامة على وجههِ وانصرف.

(١١)

عندما استيقظ رامون صبيحة عيدِ ميلاده، يوم الجمعة، لم يكن يتخيّلُ أنّه في هذا اليوم بالتحديد سيجِدُ نفسه مُتورّطاً في جريمتين فيدراليّتين؛ الأولى نفّذتها إلوديا التي قدِمت إلى العمل ذلك اليوم برفقةِ «amazonaoratix»، وهو نوعٌ مُهدّدٌ بالانقراض من طيور الببّغاء، وقد حُظِر بيعُه وشراؤه تحت طائلة العقوبة بموجب البند ٤٢٠ من القانون في الفقرة V وVI من القانون الجنائيّ الدوليّ.

«هذه الصباحات التي أنشدها الملك داوود[1]، هكذا يُحتفل بالمحامين الوسيمين كالأستاذ!»، دخلت إلوديا إلى الاستديو حيث كان رامون يُشاهد التلفاز، تحملُ في يدها قفصاً مُخصّصاً لطيورِ

(١) «هذه الصباحات التي أنشدها الملك داوود» أغنية مشهورة في أمريكا اللاتينية تُغنّى حصراً في أعياد الميلاد كتقليدٍ شعبيّ مُستمرّ إلى يومنا هذا، تعودُ أصولها إلى النبيّ داوود الذي عُرِف بحبّه للموسيقى وغنائه المزامير بصوت عذب. أوّل من نظمها موسيقياً هو الملحّن المكسيكيّ مانويل بونـي عام ١٩١٤ وعُزِفت على أنغام موسيقى الماريانشي التراثيّة المكسيكيّة وغنّاها العديد من مطربي الماريانشي المشاهير أمثال بيدرو انفانتيز وفيسنتي فرنانديز وآخرين.

الكناري وفيه الببّغاء مُتشبّث فوق مِشجبٍ رفيعٍ للغاية، منتوف الريش برأسٍ أصفر ورجلين مُتّسختين، «انظر ماذا أحضرتُ لك كهديّة لعيد ميلادك!»، قالت بينما رفعت القفص كأنّه غنيمة حرب ووضعتهُ فوق المكتب، كان ذكراً صغير السنّ عثير الحظّ بسببِ سوءِ المُعاملةِ التي تلقّاها في سوقِ سونورا الشعبيّ. المسكين كان مُشوّشاً جراء التوتّر الناتج عن مُرافقتهِ لإلوديا والاستماع لحديثها المتواصل طوال ساعةٍ كاملةٍ في الحافلة، كما ظهرت عليه علامات المرضِ وسوءِ التغذية.

على الفور أبدى رامون استحسانهُ لدى سماعهِ الثمن الزهيد للطائر، وسُرّت إلوديا بذلك للغاية.

«أخبروني في السوق أنّه يتكلّمُ كثيراً، لهذا السبب اخترته».

كانت الروائح المُنبعثة من القفص مزيجاً من رائحة الجرائد والطماطم العفِنة.

«سوف نُعلّمه أن يصيح عندما تريد شيئاً حضرتك».

كانت فكرةً جنونيّةً، فالببغاوات عادةً، خلافاً للكلاب، لم تُدرّبِ من قبل على مهمّة الإرشاد. يمكن لكلبٍ أن يُرشِد شخصاً ضريراً لكن الببّغاء لا يستطيعُ أن ينطق نيابةً عن شخصٍ أبكم. على الرغم من طبيعةِ الهديّة اللامنطقيّة كان رامون مُمتنّاً، لم يُعِر أهميّةً لأمرِ تجارةِ الببّغاء المحظورة. يوماً بعد يوم كانت لا مُبالاته وتشكيكه بصدقِ نوايا القوانين وجدواها يزدادُ بشكلٍ ملحوظ.

«لقد بدأتُ بتلقينهِ اسمي»، قالت إلوديا والتفتت نحو الببّغاء:

«قُل إلوديا! إي! لو! ديا! أو ربّما من الأفضل أن أعلّمهُ كيف يقول (إيلو) ما رأيك؟».

رامون أغلق عينيه ورفع كتفيه غير مُكترِثٍ بالسؤال.

«هل أعجبَك؟»، سألت إلوديا التي كانت قد وضعت كامل مُدّخراتها لشراء هذا الطير.

رامون أومأ برأسهِ مُصادِقاً.

بدا الببّغاء وكأنّهُ يمتلكُ ذكاءً أكبر من أن يتّسع لهُ رأسه الصغير، بؤبؤا عينيه الكبيرتين واظبا على تفحّصِ محيطهِ بتوجّس. أحسّ رامون بانجذابٍ إلى الطريقة التي كان الببّغاءُ يرمقهُ بها.

«قالوا إن الببّغاء حديث السنّ، لذلك فإنّ ريشهُ خفيف وقد تأذّى من كثرةِ اللعب لكنّه سوف يتعافى قريباً». شكّ رامون بالأمر، لربّما كان يعاني من مرضٍ خبيثٍ مثله. الصدر منتوف الشعر والأرجل مُحمرّة الجلد، ربّما هي علامات جلسات علاجٍ كيميائي بطيءٍ فظيع! كان القفص ضيّقاً كأسِرّة المشافي والمشربُ كان جافاً، رامون خبِر العذاب المُتوحّش للعطشِ خلال فترةِ نقاهته. فتح باب القفص وأخرج المشرب البلاستيكيّ الفارغ لملئه، لم يتحرّك الببّغاء من مكانه.

«انظر كم يستلطفك!»، علّقت إلوديا مُندهشة، «أمّا أنا فيتوجّب عليّ أن ألفّ يدي قبل إدخالها كي لا يعضّني هذا المزيل».

ناول رامون المشرب لإلوديا كي تملأه بالماء من المطبخ وبقي

لوحدهِ مع الببّغاء، ثمّ ومن أجلِ كسر الجليد، فكّر وكأنّهُ يُخاطبه: تبدو وكأنّ لعنةً قد حلّت بك، مثلي تماماً!

عندما انتهت كارميلا من حمّامِها نزلت لتناول الفطور وتفاجأت بوجودِ طيرٍ يبدو كأنّه مصابٌ بالجذام في الاستديو.

«من أين جاء هذا الطير؟»، سألت كارميلا مُستفسِرة لدى دخولها المطبخ.

«إنّه هديّتي التي قدّمتها للأستاذ»، قالت إلوديا بِفخر.

كان رامون بمزاجٍ جيّد وعلى وشك أن يُنهي وجبة طعامهِ المخفوق الثانية لهذا الصباح.

«آي إلوديا! أعتذرُ منك! الطبيب قال إنّنا لا نستطيعُ تربية الحيوانات الأليفة في المنزل خلال فترة علاجِ رامون، يمكن أن ينقل إليهِ شتّى أنواع العدوى، ثم إنّهُ يبدو مريضاً»، قالت بنبرةٍ مُتعالية: «يبدو وكأنّه تعرّض لحادث دعس».

تعجّب رامون من جملةِ زوجتهِ الأخيرة، من جهةٍ أُخرى لم يكن يعتقدُ بأنّ الببّغاء يقعُ تحت تصنيف «حيوان أليف». الحيوانات الأليفة هي الثديّيات، تلك التي تلعق مُؤخّراتها وتُشمشِم براز الحيوانات الأخرى. قِطط مُتعوّدة على خرمشةِ المقاعد وقماش الأرائك وتحديد مساحاتها الخاصة بالتبوّل. بينما يندرجُ الببّغاء تحت تصنيف طيور الزينة، إنّه أقرب إلى حوض الزرع منهُ إلى الكلاب أو القطط أو فئران الهامستر، تلك الأصناف المُزعِجة المُثيرة للفزع التي

تولّعت باولينا بتربيتها عندما كانت صغيرة، حتّى أنّه عندما ولدت صغارها قام حيوانٌ «أليف» آخر كانت تُربّيه بالتهامها!

«بإمكاني أخذهُ إلى الطبيب البيطريّ إن رغبت بذلك»، أجابت إلوديا مدافعةً عنه، «كي يُقرّر إن كان مريضاً أم لا».

«لا، لم أقصد أنّه مريض. لكنّ الجهاز المناعيّ لدى رامون في هذه الفترة في أضعف حالاته، يمكن لأيّ شيءٍ أن يتسبّب لهُ بمرض، لهذا السبب وحسب». ثم التفتت نحو رامون وقالت: «لا تدخُل إلى المكتب إلّا بعد أن يُكنس ويعقّم». وأضافت بصيغةِ الأمر قاصدةً إلوديا: «لو تُخرِجيه الآن إلى الفناء لو سمحت!؟».

«لا يُمكن»، حسمت كارميلا الأمر، «يُؤسفني أن أتسبّب لها بذلك لكن لا يُمكننا المجازفة. اسمع، عند الظهيرة إلوديا وباولينا سوف تتولّيان تحضير الطعامِ من أجلِ حفلةِ عيد ميلادك، بإمكانك أن تصعد الآن إلى غرفتك كي تكون مفاجأة لك كما خطّطنا، ما رأيك؟».

رامون كان قد اعترض على هذه الحفلة بسببِ قلّةِ عدد المدعوّين المُحتملين، في الواقع ستكون أقرب إلى عشاءٍ خاصّ يقتصِرُ على عائلةِ شقيقهِ إرنستو إضافةً إلى زوجين من الأصدقاء اعتادوا الخروج معهما إلى العشاء مرّتين في السنة. وبما أنّ رامون قد اعتاد منح طاقتهِ الاجتماعيّة كاملةً مئة في المئة إلى زبائنه، وجد نفسهُ تدريجيّاً دون أصدقاء مُقرّبين. كان كارلوس الصديق الوحيد الذي أبدى اهتماماً جديّاً بتعافي رامون بعد خضوعهِ للعمليّة الجراحيّة.

تناولت كارميلا مقعداً وجلست إلى جانب رامون ثمّ بدأت تتناولُ على عجلٍ طبقاً من الفواكه اعتادت إلوديا أن تُحضِّرهُ لها كلّ صباح. بعد لحظاتٍ عادت إلوديا إلى المطبخ من الباب المُطلّ على الفناء.

«انتهيتُ من وضعهِ في الخارج، أعتقدُ أنّ المسكين سيبرد».

لم يكن في نِيّة رامون، وتحت أيّة ذريعة، السماح بأن تُرجِع إلوديا الطائر من حيث أحضرته، لكنّهُ، ومنذ أن ابتُلي بالبكم، تعلّم أن يُؤجِّل إجاباته وأن يتحكّم بها ريثما يجدُ ورقةً وقلماً كي يُعلِنها كتابياً. سينتظرُ إلى حين عودة كارميلا من المكتب وعندها سيواجِهها بقرارهِ غير القابل للنقاش بشأن الاحتفاظ بهديّة إلوديا اللطيفة الغريبة.

عند مُنتصفِ ذلك النهار خرج رامون إلى الفناءِ الخارجيّ للمرّةِ الأولى منذ أسابيع. كان القفصُ موضوعاً فوق طاولةِ الحديقة، الطاولة دائريّة الشكل ومصنوعة من الفولاذ المصقول وتظلّلها مِظلّة مُتّسخة، الببغاء واقفٌ على حمّالته، الوضعيّةُ التي اتخذها جعلتهُ يبدو ذليلاً كأنّ العار قد أصابهُ من مظهرهِ العليل. سحب رامون كرسيّاً من الكراسي المتحلّقةِ حول الطاولة وجلس عليها ثمّ قرّب يده من القضبان فقفز الببّغاء مُستعدّاً للدفاعِ عن نفسه -توقّف ولا تكُن أحمق- بين فكّي منقاره الحادّ لاحظ رامون لساناً غامقاً وثخيناً.

إنّك تُشبِه بينيتو! - فكّر رامون- سأدعوك بينيتو خواريس[1]

---

(١) بينيتو خواريس -Benito Juárez-: أوّل رئيس مكسيكيّ من الهنود الأصليّين حكم ما بين عامي ١٨٥٨-١٨٧٢.

على اسم صاحب الفضل، كان بالفعلِ أباً للوطن وليس كميغيل إدالغو[1] وخوسيه موريلوس[2]. القِسّين المُتآمرين، أمّا موريلوس فلم يكن سوى طفلٍ غنيٍّ ومُدلّل من ولاية كواويلا، مُغرماً بالتحدّثِ مع الأموات، في حين أن بينيتو خواريس كان براغماتيّاً إذ أدرك جيّداً حينها أنّ هذا البلد بحاجةٍ إلى المضيّ قدماً، فأعاد صياغة القوانين وقضى على المُتنفّذين وامتيازاتهم سواء كانوا من رجال الدين أم الجيش، لقد أنجز العديد من الأمور العظيمة، ما فعلهُ كان ثورةً حقيقيّةً على عكسِ ما فعلهُ أُمراءُ الحربِ المُستبدين ضدّ غوستافو دِيّاس[3]. والآن يتّهمون خواريس بأنّه بائع للبلد وخائن وعميل. لكن لو أنّهُ لم يُبقِ في ذلك الوقت على علاقاتِهِ مع الغرينغوس[4] الأمريكيين لكان الأوروبيون قد استولوا على البلاد. ماذا كان بمقدورِهِ أن يفعل! كان أحمقَ شجاعاً إلى أبعدِ

---

(١) ميغيل إدالغو كوستيجا - miguel idalgo costilla ١٧٥٣-١٨١١: قسّ مكسيكيّ اشتُهر بدورِهِ في حرب الاستقلال المكسيكيّة.

(٢) خوسيه ماريا تيكلو موريلوس بيرس - José maría teclo Morelos Pérez ١٧٦٥-١٨١٥: كاهنٌ ثوريّ قاد المُتمرّدين الثوريين خلال حربِ الاستقلال المكسيكيّة عقب إعدامِ ميغيل إيدالغو كوستا.

(٣) غوستافو دِيّاس أورداس - Gustavo día Ordaz: حكم المكسيك بين عامي ١٩٦٤-١٩٧٠.

(٤) غرينغو وجمعها غرينغوس - los gringos: لقبٌ متداولٌ من قِبل شعب أمريكا اللاتينية، يُطلِقونه على سكّان الولايات المتحدة الأميركيّة أو للدلالة على الناطقين بغير اللغة الاسبانية من الأوروبيين والأمريكيين وهو لقبٌ غير مُحبّب لدى الناطقين باللغة الإنكليزية، لكن في أيّامنا هذه مُستخدم لدى الأجيال الحديثة كمصطلح دارجٍ اعتاد الأجدادُ استخدامهُ وليس كنوعٍ من الاستخفاف في أيّ حالٍ من الأحوال.

الحدود. هل تتخيّل في أيّامنا هذهِ أن يُصبِح مجرّد زابوتيكي[1] رئيساً للدولة؟ أؤكّد لك بأنّهُ كان بدون شكٍّ فحلاً عتيداً. آخرون يتذمّرون لأنّهُ أمر بإعدامِ ماكسيميليانو، لكن ماذا بحقّ الجحيم انتظروا منهُ أن يفعل مع شخصٍ ادّعى بأنّهُ امبراطور المكسيك؟ أن يُحرّر لهُ مخالفةً مثلاً؟ الناسُ لا تمتلكُ أدنى فكرة قحبة عن معنى الحُكم!

بالنسبةِ إلى الببّغاء فقد أثار اهتمامَهُ هذا الإنسان الذي أمامه، وعلى عكسِ أولئك ممّن عرفهم حتّى الآن، لم يُقرّعهُ بأصواتٍ عالية ولا بإشاراتٍ تحفيزيّة. نظرتهُ المُنخفِضة وصمتهُ اللانهائيّ كانا مطمئنين. شيئاً فشيئاً راح الببّغاء يرتاحُ إلى هذا الفناء حيثُ وجد نفسه مُحاطاً بالشُجيرات وأحواضِ الزينة، ولمّا تآلف مع وجودِ رامون عبّر عن مزاجِهِ الجيّد بالكلمةِ التي يُتقِن لفظها:

«كابرون!»[2]، صاح بِجُنّ بِحدّة.

كابرون!

---

(١) زابوتيكيّ نسبة للزابوتيكيين أو السكّان الأصليين الذين ينتمون لحضارة الزابوتيك التي وُجِدت قبل العصر الكولومبيّ وكانت بداياتها في وادي أواكساكا المكسيكيّ في نهايات القرن السادس قبل الميلاد.

(٢) كابرون– cabrán: لفظٌ متداول بكثرة في أمريكا اللاتينية وبشكلٍ خاص في المكسيك وفنزويلا وكولومبيا، يحملُ الكثير من المعاني فتارةً يدلّ على التحبّب والمديح كأن يقال عن رجلٍ بأنّهُ كابرون لكونه قوياً أو يتقن عمله، وأخرى على الاستهزاء أو الذمّ. (المترجمة).

«وهُنا عندما يُردّدُ الببّغاء «كابرون» فإن رامون يأخذها مأخذاً حسناً كصفةٍ من صفاتِ الرجلِ القويّ والتي لم تعد تنطبقُ عليهِ». (الكاتب).

أطلق رامون أولى قهقهاتِهِ على الإطلاق منذ ظهورِ الورمِ في حياته. الصوت المكبوت الذي أطلقهُ كان أشبه بزئيرِ أسدِ البحر في مياهٍ إقليميّة أكثر منهُ تعبيراً بشريّاً عن الابتهاج..

أجابهُ الببّغاء:

«لا تكُن سخيفاً!».

تابع رامون قهقهته في حين عاود الببّغاء ترديد مفاجأتِهِ أمام ردّة فعلِ رفيقهِ غير المُتوقّعة.

«لا تكُن سخيفاً!».

ما لم تعرفهُ إلوديا عن الببغاء هو أنّه قد تعلّم ترديد قائمةٍ طويلةٍ من الشتائم التي كانت تتكرّرُ على مسامعهِ باستمرار في السوق الشعبيّة. عند سماعِها لصوتِ الببّغاء أطلّت من شبّاك المطبخ وشاهدت رامون يرتعشُ على كرسيهِ فهرعت إليه مُرتعبة.

«سيّدي! ماذا أصابك؟».

حرّك رامون يدهُ في الهواء نافياً تعرّضهُ لأيّ مكروه، كان بحالةٍ جيّدة، في الواقع كان في أفضل حالٍ من أيّ وقتٍ مضى، منذُ أن فقدَ قدرتهُ على قولِ هذه الكلمات التي تمكّن الببّغاء من ترديدها.

«فاجِر!»، صرخ الببّغاء.

«اخرس أيّها المنتوف!»، أمرتهُ إلوديا، «انتظر حتى تسمعك السيّدة وسوف تطردنا معاً!».

دخل رامون إلى المنزل وصعد إلى غرفتهِ ليستحم، كان مزاجهُ

في غاية الروعة حتّى أنّهُ نظر إلى نفسهِ في المرآةِ دون انزعاج قبل أن يدخل تحت مرشّ الماء الساخن الذي تمتّع بسخونتهِ لبعض الوقت. أفرط في تدليكِ كلّ جزءٍ من أجزاءِ جسدهِ رغبةً منهُ بأن يُزيل عنهُ رائحة المرض التي عشعشت في جلده. سرّح بأصابعهِ خصلة الشعر الوحيدة المُتبقيّة في رأسهِ وحلق لِحيته الميتافيزيقيّة ثمّ دهن كريماً مُطرياً بكثافة، ولكون الثياب التي اشتراها مُؤخّراً باتت عشرة أضعاف مقاسهِ الحاليّ، ارتدى ثياباً كان قد خبأها من فترةِ شبابه، أيّام لم تكن سهرة ليلة السبت قد أُلغِيت بعد. أثنى على نفسهِ لكونهِ دافع عن تلك القمصان والسراويل أمام مُحاولاتِ كارميلا التبرّع بها أكثر من مرّة لأحد مراكزِ عِلاج الأمراض النفسيّة. انتهى من ارتداءِ ثيابه وتطلّع مرّة أخرى إلى المرآة، وهذه المرّة، وبسبب الانطباع الشبابيّ لثيابه، بدا هزيلاً أكثر من أيّ وقتٍ مضى ولاحظ ترهّل الخدّين والعينين الغائرتين داخل هالتين سوداوين. بدا أشبه بمومياء غوادا لوبي وراح يتخيّلُ الفزع الذي ستُسبّبهُ هيئته هذه للمدعوّين إلى حفلةِ عيدِ ميلاده. يا للأسف، أفراد عائلته، ابنته باولينا على وجه الخصوص، اجتهدوا لإقامةِ هذهِ الحفلة. ماذا بوسعهِ أن يفعل لإلغائها؟ لمع في ذهنهِ خيار أن يتصنّع الإغماء، لكنّ الخطر كان في أن تقوم كارميلا بطلبِ سيّارةِ الإسعاف وبذلك ينتهي بِهِ الأمر إلى غرفةِ طوارئ في مستشفى خاصّ حيثُ سيقوم طاقمٌ من الأغبياء في محاولتهم لإجبارهِ على دفعِ أكبر قدرٍ ممكنٍ من المال بإخضاعهِ لاختبار الحمل! يا للروعة! ومن أجلِ أن يهرب منهم سوف يستقلّ سيّارة أجرة ويتّجه إلى غرفةٍ في فندق خمس نجوم

حيثُ لا يُمكنهم العثور عليه، وسوف يبعثُ برسالةٍ إلى أسرتهِ يُخبِرهم فيها ألّا يقلقوا بشأنه، ثمّ سينقع نفسه في حوض الاستحمام المليء بالفقاعات ويطلب خدمة الغرف room service وينتقي فيلماً إباحيّاً لمُشاهدته وينامُ فاتِحاً ذراعيهِ وقدميهِ أقصاهما مُتنعّماً بالهدوء بعيداً عن شخير كارميلا، كما سينزلُ في الصباح التالي ليغزو بوفيه الفطور ولسوف يسرق الخفّ والصابون وعبوات الشامبو جميعها عند مغادرته.. لكنّ صرخةً واحدةً من إلوديا أذهبت بسعادتهِ تلك كاملة:

«سيّدي.. الطعامُ المخفوقُ جاهز!».

حالما وصلت باولينا برفقةِ ماثيو عائدين من المدرسة شجعتهما إلوديا على الخروج إلى الفناء لرؤيةِ هديّتها التي أحضرتها للأستاذ. كانت غايتها أن تستقطب الولدين إلى صفّها كي يُدافِعا عن بقاءِ الطير في المنزل أمام والِدتهما. استقبلهما الببّغاء بحذرٍ وظلّ مُتمسّكاً بالحمّالة دون التلفّظِ بأيّةِ حماقة. قال ماثيو: «يا لهُ من قذر»، وقالت باولينا: «يا لهُ من بشِع»، لم يُظهِر أيّ منهما استلطافاً نحو الببّغاء، ثمّ سألت باولينا عمّا يتوفّرُ لطعام الغداء.

«حساءُ الشعيريّة وشرائحُ دجاجٍ مشويّة»، أجابت إلوديا حزينةً بسببِ لا مُبالاة الطفلين حيال الببّغاء، «لقد كنتُ في عجلةٍ من أمري لأجلِ إنهاءِ ترتيب المنزل قبل موعدِ العشاء».

«متى سنصنعُ الحلوى؟»، سألَت باولينا.

«حالما تُنهين تناول طعامك».

بينما كان الشابان يتناولانِ الحساء تابعت إلوديا استمالة عطفِهما حيال الببّغاء التعيس:

«لو أنّكما رأيتما مبلغ سعادتهِ بالببّغاء، لكن ولسوءِ الحظّ والدتكما قالت إنّهُ من غير الممكن لهُ أن يحتفظ بهِ هنا، ولو رأيتما كم حزِن لذلك. في منزلي يوجد دجاج وديك روميّ وكلاب تتنقّل في جميعِ الأرجاء. في إحدى المرّات كُنّا نُربّي خنزير التشانشو استعداداً لوليمة الاحتفال بسانت برثولماوس».

«وماذا يكونُ هذا؟»، سألت باولينا.

«إنّهُ قدّيسُ المُعجِزات وتلميذٌ من تلاميذ يسوع المسيح».

«لا لا.. أقصدُ خنزير تشانشو!».

«آه.. إنّهُ نوعٌ من الخنازير، بِرغمِ أنّ ما يُشيعون عنهُ بأنّهُ حيوانٌ قذر وهو أمرٌ خاطئ، إلا أنّ جلدهُ من النوعِ الجافّ جدّاً. ما أعرفهُ أنّها تأكل كلّ شيء وأيّ شيء تجده حتّى ذاك الذي نفعلهُ في المراحيض».

«إلوديا.. هذا مُقرِف!»، قالت باولينا.

«هيّا أخبرينا ماذا حدث»، قال ماثيو.

«حسناً، كنّا نُسمّنُه من أجلِ طهيهِ في الاحتفال، فجأةً بدأَت السماءُ تمطرُ بَرَداً بِغزارة وأخذ حجمُ الحبّةِ منها يكبُر حتّى أصبح بحجمِ ثمرةِ الجوّافة وخشينا عليهِ حينئذٍ أن يقتُله البرَدُ الضخم فأدخلناهُ إلى داخلِ المنزل ومكث هادئاً. افترضنا أنّهُ كلب ورحنا

نُداعِبهُ على هذا الأساس، لم يمرض أحدٌ منّا، أتظنّانِ بأنّ وجود ببّغاءٍ في المنزل سيكون أسوأ من وجودِ خنزير؟».

«سأقومُ بالبحثِ حول هذا على شبكةِ الأنترنت»، قالت باولينا، «بكلّ حال لستُ مقتنعةً بذلك فوالدي ضعيفٌ جدّاً حاليّاً».

«أجل، هذا صحيح»، قالت إلوديا مُحبطة، «تقصّي عن الأمر لِنرى».

عندما عادت كارميلا إلى المنزل كان العشاء قد أصبح جاهزاً؛ كريمة الجزر وقطع لحمِ الضأن وحلوى بودينغ بالشوكولا، كانت أطباقاً طريّةً بإمكانِ رامون أن يتناولها دون صعوبة. الطاولة رُتِّبت فوُضِعت كؤوس الكريستال والصحون وأدوات السكب ومناديل الطعام القماشية وصحون البورسلان. بنظرةٍ مُتفحّصة سريعة لاحظت كارميلا أنّ قُطع اللحم بحاجةٍ إلى طهي إضافيّ وأنّ الصلصة كانت رخوةً بعض الشيء وحلوى البودينغ شديدة الكثافة. على الكؤوس لاحظت بصمات أصابع لا تُحصى أظهرت كثرة الأيدي التي تناقلتها، كما أنّ سكاكين الطعام وُضِعت بشكلٍ خاطئ مُعاكسةً لاتّجاه الطبق ولاحظت طبقةً من الغُبارِ عليها لكونها تُركت في الفاترين لوقتٍ طويل.

عندما نزل رامون من غرفتِه وجدها تُعيدُ ترتيب أدواتِ المائدة، سلّمها ورقةً كتب فيها بالتفصيل الأسباب التي قرّر من أجلِها أن يحتفظ بالببّغاء. في المقامِ الأوّل اعتبر رامون أنّ إرجاعهُ لا يُعدّ فِعلاً لائقاً «بحقّ مساعِدتنا المنزليّة الوفيّة»، من جهةٍ أُخرى رأى بأنّهُ

من المُمكِن إيكال مهمّة العناية بالطائر إلى ولديها «بغرضِ تعزيزِ حسّ الواجبِ والمسؤوليّة لديهما، هذا مهمّ لتنشئتهما تنشئةً سليمة»، وأخيراً لشعورهِ المُسبق بأنّ التاجِر الذي باعها الطير لن يقبل أن تردّه وفي نهاية الأمر سينتهي المطاف بالطيرِ المِسكينِ إلى العيشِ في منزلِ إلوديا في شروطٍ غير إنسانية. «إنّهُ لمِن الأفضلِ لنا ألفُ مرّة أن نستبقيهِ هُنا حيثُ يُمكننا أن نحرص على نظافتهِ في وضعٍ صحيٍّ جيّد على أن يمرض المسكينُ في منزلِ إلوديا التي لا تمتلكُ القدرة على تلبيةِ احتياجاته ويصيرُ من السهل أن يَنقل لي، عبر هذه الأخيرة، عدوى مرض خطير». أخفى رامون السبب الرئيسيّ وراء احتفاظِهِ بالببّغاء وهو تعاطفهُ معه، باعتباره أمراً لا يليقُ برجلٍ في مثلِ سنّه. لكن، وبدلاً عن أن تُقنِع رسالتهُ تلك كارميلا زادتها إصراراً وتمسّكاً بقرارِها، أجابتهُ بصوتٍ خافِتٍ لتجنّبِ أن تسمعها إلوديا التي كانت في المطبخ:

«سندفعُ لها ثمنه إن لم يقبلوا باسترجاعهُ منها. فليحتفظ أولادها بهِ أو ربّما تقوم بإهدائه إلى أحدٍ يُريده». أنا أريدهُ، فكّر رامون. إذا كان الأمر مهيناً لها فأنا آسف لذلك لكنّني لن أُخاطِر من أجلِ أن نُرضي الفتاة، هذا ما كان ينقصنا!

نسألُ الطبيب أولاً وبعدها نُقرّر. كتب رامون يسترضيها. البكمُ كان قد ليّن من طباعهِ المُسيطِرة.

«حسناً سوف نسألهُ، لكن حتّى ذلك الحين عليها أن تأخذهُ من هنا، أنا مُرتعِبة من أن يتسبّب لك بأيّة التهابات، سيبقى في الخارج».

هذا الطيرُ يبدو عليهِ المرض (تقرأُ كارميلا ما يكتبهُ) *وماذا عنّي أنا؟ ألستُ مريضاً؟* «لماذا تُقارِن نفسك به؟ ليس لهذا علاقة بما نُناقِشه! ثم من سيعتني بهِ في عطلةِ نهايةِ الأسبوع؟ لن أسمح بأن يعضّ أحداً منّا. رامون تمهّل قليلاً في كتابةِ اعتراضٍ آخر. أرجوك.. لا تُناقِشني أكثر، لقد تأخّر الوقت، إذا ما أعطانا الطبيب موافقتهُ نطلبُ من إلوديا أن تُعيدهُ إلى هنا مُجدّداً». كان النقاشُ دون امتلاك حقّ الردِّ مُنهِكاً لهُ فاستسلم رامون كي لا يضطرّ لتوديعِ الببّغاء وصعد لينعزِل في غرفتِه.

عاد ونظر إلى نفسهِ في المرآة: أوحت ملامحهُ بالأسى والاشمئزاز وتراءى إليه بأنّهُ يشبهُ الناجين من المِحرقةِ النازيّة، أولئك الذين التُقِطت لهم صورٌ خارج الثكنات بين المقابر التي عجّت بالجثث، ناجون هزيلون مذهولون. كان يُدرك بالتأكيد عدم معقوليّة التشبيه، على أنّهُ لم يستطع أن يبعد عن تفكيره انطباعاً عبثيّاً أنّ حالهُ تشبهُ حالهم إلى حدٍّ ما، سجينٌ.. وذو هيئةٍ شبحيّةٍ كهيئاتهم.

قاطعت كارميلا جلسة التعذيب النازيّة..

«الآن بعد أن أُنهي تصحيح مكياجي سوف أخرُج لشراءِ صلصلةِ الطماطم، أرجو أن يُسعفني الوقت لذلك».

جلست أمام المرآة وبدأت بتخطيطِ عينيها، لدى رؤيتهِ التغيّر الذي طرأ على شكلِ كارميلا بعد أن وضعت مُخطِّط العيون «الآيلاينر» خطرت لرامون فكرة: المكياج يمكنُ لهُ أن يُخفي هيئة الأموات التي تطغى على سحنته. لكن أكان عليهِ الآن أن يحتفل بعيدِ

ميلادِهِ الخمسين مُتنكّراً؟ مع ذلك، ومن أجل صرفِ انتباهِ المدعوّين عن ملاحظةِ هيئتهِ الرماديّة وخدّيه المُترهّلين مع هالتيهِ السوداوين، وفي سبيلِ ألّا يشعروا بالتقزّز إذا ما نظروا إلى وجههِ وألّا يأسفوا لحاله، كان على استعداد لأن يخون، لليلةٍ واحدة، صورة الرجلِ الفخورِ المُعتدّ بنفسهِ الذي يزدري العادات والأغراض الأنثويّة. أمسك بمُفكّرتهِ وفتحها حيثُ كان قد دوّن دفاعهُ المحموم عن أمرِ بقاءِ الببّغاء المنتوف. قلب الصفحة وظلّ يُحدّقُ بالفراغ. لم يكن يريدُ أن تشفّ كلماته عن يأسٍ أو عمّا هو أفظع من ذلك: عن زيفٍ أو تملّق. لكن هل من الممكن أن يطلب إليها أن تدهن له مكياج الوجه دون أن يضع رجولته موضع تساؤل؟ تمرّن على بضعةِ صِيغٍ في رأسه: ضعي لي بعض المكياج لكن بحذرٍ لو سمحت. هل يُمكِن أن تضعي لي قليلاً من حمرة الشفاه خاصتك كي لا أبدو في حالةٍ بائسة؟ أبدو كرجلٍ يحتضرُ أليس كذلك؟ سخافةُ الموقفِ منعتهُ من التفكير بوضوح. كارميلا كانت على وشكِ الخروج فكتب رامون بعجالة:

«انظري إلى لوني، يبدو غريباً بعض الشيء، هل بإمكانِك أن تضعي لي شيئاً على وجهي؟».

وبهذهِ الطريقة يصلُ إلى المكياج دون ذكرهِ بشكلٍ مباشر، مُنتظِراً أن تُبادِر هي باقتراحهِ من تلقاء نفسها؛ سلّمها المُذكّرة بلطفٍ مُخفياً استياءهُ بخصوصِ الحديثِ المُتعلّقِ بالببّغاء وأيضاً لكونِها مسؤولةٌ عن إقامةِ حفلةِ العشاء خِلافاً لرغبتِه.

«لا تقلق»، أجابتهُ كارميلا، «من سيُلاحِظ ذلك؟».

الجميع! فكّر رامون، بِمن فيهم هو نفسه. لقد أمضى اليوم يتطلّعُ على نفسه من خلالِ أعينِ الآخرين، كان شكلهُ لا يُحتمل.

«ضعي لي أيّ نوعٍ من أنواعِ الدهون أو الكريمات أو أيّ شيء!».

«لن تختفي الهالتان السوداوان إذا دهنتُ لك الكريم!».

نظر رامون نحو طاولةِ الزينة ورفع طلاء الرموشِ المُتبقي لديها فأدركت أخيراً مقصده.

«أتُريدُني أن أطلي وجهك؟»، سألت كارميلا مُستمتعةً بافتراضيّة أنّها ستقومُ بوضعِ مكياجٍ لرجلٍ اعتاد استخدام صابونِ (بالموليف) كجِلّ حِلاقة. لمّا رآها على استعدادٍ لفعلِ ذلك تساءل رامون:

«هل يُمكنُ أن يُلاحظوا ذلك؟».

«لا أعتقد، سيكونُ عليّ أن أضع لك القليل من كريم الأساس ومُصحّح اللون، هل تُريدُ ذلك؟».

في مُحاولةٍ لحفظِ ماء وجههِ تظاهر رامون بالتخبّطِ والتردّد، ثم بعدها أومأ موافقاً.

«حسناً!»، قالت هي مُتحمّسة، «اجلس هنا».

وصل إرنستو برفقة عائلته وبجعبتهِ زجاجةُ تيكيلا مُعتّقة. كان رامون، وبسببِ إجهادِ الكبد الذي تسبّب بهِ العلاج الكيميائي، قد أُخضِع لمحاذير صارِمة بشأنِ تناولِ الكحول، مع ذلك ظلّ مشهدُ ذلك الإكسير المُعتّق يتسبّب لهُ بحنينٍ مُحزن. لدى رؤيتها لوجهِهِ، فزعت ابنتا أخيه من المشهد واضطرّت والدتها أليسيا أن تدفع

بهما لتقتربا منهُ وتمنحاه قُبلة، بدورها أحضرت أليسيا هديّةً لشقيقِ زوجها؛ لوحة من الخشب المحفور على شكل صليب ويعلوها طير، نُقِش عليها قولٌ مأثور:

عندما تشعر بأنّ قواكَ قد خارت ولم يعُد بوسعِكَ الوقوف على قدميك؛ اركع.

كانت أليسيا قد اشترت تلك المنحوتة الساديّة من مزادٍ لأشغالٍ يدويّة تصنعُها راهبات. وفي الوقتِ الذي كان فيهِ رامون يُحاول تقبّل المشهد الشنيع أردفت قائلةً:

«هذهِ من أجل أن تضعها في مكانٍ خاص». أجل في حاويةِ القمامة. فكّر رامون دون أن يُخفي عدم استحسانهِ للهديّة.

«ماذا!؟ لم تُعجِبك الهديّة أليس كذلك؟»، سأل إرنستو بخِسّتهِ المُعتادة، «لقد قُلتُ لهذهِ العنيدة: رامون رجلٌ مُلحِد حتّى العظم، لكنّها لم تُصغِ لي، ماذا تُريد مِنّي أن أفعل؟ لهذا السبب تراني أحمِلُ مصّاصتي في الحقيبةِ أينما ذهبت!». (في إشارةٍ إلى أنّهُ مطيعٌ كالأطفال).

«إنّها لوحةٌ جميلة». دخلت كارميلا في الحديث متناولةً الهديّة من بين يدي المُلحِد، «أعتقدُ أنّنا سنقومُ بتعليقِها في غُرفتنا».

تلاشى التوتّر بين حبّاتِ الزيتون الأخضر ومُكعّبات جبن تشيواوا وشرائح لحم الخنزير المُدخّن والنقانق اللذيذة. بعد وقتٍ قصيرٍ وصل كارلوس ولورا يحملان معهما زجاجةً من الشامبانيا، هذه الأُخرى لم يكن بمقدورِ رامون أن يتذوّقها. تناولت كارميلا

الزجاجة ووضعتها في الثلّاجة، في تلك اللحظة وقع نظرها على صورةِ القدّيسِ برغرين فتضرّعت لهُ أن يُبعِد الشقاق عن بيتها تلك الليلة.

في تلك الأثناء طغى صمتٌ ثقيلٌ في القاعةِ كسرهُ كارلوس أخيراً بسؤالٍ بسيطٍ من نوعِ الأسئلةِ التي يُمكن أن تُطرح في حالةِ رامون والتي يُمكِن الإجابة عليها بنعم أو لا:

«أتذكُر مانولو إيكاسا زميلنا في دراسةِ القانون الجزائيّ؟».

رامون كان يذكرهُ جيّداً، كان نسخةً شقراء وطائشة من المُمثّل ماوريسيو غارسيس، تمكّن من دخولِ جامعة المكسيك الوطنيّة بفضلِ نفوذِ عائلتهِ التي كان نسبها يتمتّعُ بحظوةٍ كبيرةٍ لدى كاهِن الأبرشيّة. كفاءتهُ العلميّة كانت مُتواضعةً جدّاً، أمّا قدرتهُ على جذبِ النساء حوله فكانت خارقة.

«لم يصِل إلى أن يُصبِح مسؤولاً بعد، لكنّهُ في الطريق لأن يتسلّم منصب وزير العدل. تمسّك جيّداً وانتبه للآتي!».

«ماذا؟ أهو نافذٌ إلى هذا الحدّ؟»، سأل إرنستو بينما كان رامون يكتبُ في مُذكّرتِه:

«تزوّج حفيدة الرئيس الألمانيّ، لولا ذلك لما وصل لأن يكون كاتب عدلٍ حتى».

«أحقّاً هو مُتزوّج من حفيدةِ ميغيل أليمان؟»، قال كارلوس، «هؤلاء يملكون نصف ولاية ڤيراكروس. تخيّل حجم النفوذ الذي

يملكونه! كان شخصيةً عديمة الأهليّة، أليس كذلك يا صديقي؟»، وجّه سؤاله إلى رامون الذي بدورِه، ولكي يتفادى إعادة كتابة كلامٍ زائدٍ عن الحاجة، علّم على الجملةِ ذاتها التي كان قد كتبها في البدء وهزّ رأسهُ بشيءٍ من الإحباط. «كان سكّيراً»، تابع كارلوس، «اعتاد أن يترفّع في جميعِ المواد بدعوةِ الأساتذةِ إلى منزلِهِ في أكابولكو، يقولون إنّهُ كان يُقيم حفلاتٍ ماجِنةٍ يدعو إليها نساءً ومُمثّلين سينمائيّين، كما أتيح للمدعوين تعاطي الهروين».

انهمك رامون بكتابةِ حكايةٍ فضائِحيّةٍ تورّط فيها سابقاً مانولو إيكاسا مع ابنة إيغناسيو بورغوسا أوريهويلا وهو الأستاذُ الأكثر خجلاً على الإطلاقِ في تلك الحقبة، لكنه عندما أوشك أن يُنهي كتابة القِصّة كان الحاضرون قد باشروا بالحديثِ حول الحياةِ الفاخرةِ لرجالاتِ السياسة مِمّا خلّف في نفسِهِ شعوراً بأنّهُ أضاع وقتهُ في الكتابة. عجّل بتصحيحِ بضع كلمات ثمّ مرّر المُفكّرة إلى كارميلا لتقرأها بصوتٍ مرتفع. انتظرت كارميلا حتّى فرغ كارلوس من ذمّ حاكم كواويلا وقالت:

«حسناً، يقولُ رامون هُنا: إنّ ما ينقصنا حقيقةً هو مُدّعٍ عامٌّ نزيه يتوفّرُ لديهِ شرط مهمّ وهو ألّا يكون طامِعاً بمقعدٍ في مجلسِ الشيوخ».

في تلك اللحظة رنّ هاتف إرنستو، أجاب على الاتصال بينما هو جالسٌ في مكانِهِ فشتّت صوتهُ العالي انتباه الجميع، لذلك لم يُتابع أحد ما كتبهُ رامون وما قرأتهُ كارميلا فأخذ مزاجُ رامون المُعكّر مُسبقاً

يتأجّجُ ويزدادُ عكراً. عندما تكرّم إرنستو بإنهاءِ المُكالمة بدأت المُناقشة تتصاعد باتّجاهاتٍ مُتفرّعة انتهت ببحرٍ من الصمت المُترقّب، بينما كان رامون في هذه الأثناء يُسجّلُ مداخلاته. إرنستو وبعد إنهاءِ كأسه الرابعة من التيكيلا والتي كرعها بشكل مُتتالٍ، طلب أن يُحضِروا لشقيقهِ لوحاً من أجلِ أن يستطيع التعبيرِ عمّا يُريدُ بشكلٍ أسرع وإلّا فإنّهم لن يتمكّنوا من تناولِ العشاء قبل الثالثة صباحاً! لم يتفاعل أحد من الحاضرين مع نكتة إرنستو والتي حاولت أليسيا بدورِها أن تُخفّف من وقعِها عبر مجاملةٍ غير مُجدِية:

«لا بأس، لسنا على عجلةٍ من أمرنا لالتهام تلك الوجبات اللذيذة».

«علينا أن نكون عمليّين»، أجابها إرنستو، «على أنّهُ، ولأكون صريحاً معك، المُحامون ليسوا جيدين كفاية في هذا الأمر».

«تابع كلامك هذا وسأرفعُ عليك دعوى قضائية»، قال كارلوس مُمازِحاً.

بدا وكأنّ إرنستو على وشكِ التفوّهِ بحماقةٍ أخرى، إلّا أنّ كارميلا حالت دون ذلك بِدعوتها الجميع للانتقال إلى طاولةِ العشاء. خلال المسافةِ بين الصالة وطاولة الطعام كان رامون لا يزال يفكر بحديثِ إرنستو وكارلوس: تُهمُ القدحِ والذمّ والتشهير شُطِبت من قانون العقوبات الفيدراليّ منذ سنوات، تلك النصوص المُلغاة كانت دليلاً قاطعاً على القيمةِ المُتدنيّة التي أُولِيت للكلمةِ حينها وتأثيرها المُخرّب المُقوّض وبات التعويض عن تلك الأفعال

لا يتخطّى ١٧ ألف بيزو منصوصٌ عليها في قانونٍ سخيفٍ لحمايةِ الأحوال الشخصيّة، الشرف والسمعة.

توجّب على رامون، لكونهِ المضيف والشخص المُقام على شرفهِ الحفل، أن يجلِس على رأسِ الطاولة فوجد نفسهُ ببساطة مُبعداً عن الأحاديث الدائرة. على يسارهِ جلست كارميلا بينما جلس إرنستو على يمينه وبذل هذا الأخير جهداً ليكون مركز الانتباه كما أنّهُ لم يتوقّف عن إطلاق نكاتٍ تفتقرُ إلى الذوق. كلّ هذا، مضاف إليه صعوبة التقاطِ الخُبز الذائب الذي بدأ يطفو على وجهِ حساءِ الجزر، جعل من الحضور ينشغلون عن الالتفاتِ لرامون فانتهى بهِ الأمر معزولاً تماماً عن الحديث، وكشاهدٍ صامتٍ تناول رامون مِقداراً ضئيلاً من كريمة الجزر واللحم المطحون الذي قدّمتهُ كارميلا خصّيصاً له. كان مضغُ الطعام يستغرقُ وقتاً طويلاً بغيابِ لسانٍ يُنظّمُ توزيع اللعاب والطعام بين الأسنان والبلعوم، لذا ومِن أجلِ أن يبتلع طعامهُ توجّب عليهِ أن يُرجِع رأسهُ إلى الوراءِ قليلاً ليترك للجاذبيّة أن تتكفّل بالبقيّة. كانت عمليّةً بطيئةً ومُضجِرةً، في الوقتِ الذي أنهى فيه الجميع تناول أطعِمتهم لم يكن قد تناول هو نصف وجبتهِ بعد. مُرهقاً أشار رامون إلى كارميلا مُتصنّعاً الشبع طالِباً إليها أن ترفع الطبق.

باولينا وماثيو، كانا يتناولان العشاء برفقة ابنتي العم إرنستو، ساعدا في تنظيفِ الطاولة بينما تكفّلت كارميلا بإطفاءِ الأنوار بعد أن خرجت باولينا من المطبخ تحملُ بين يديها صينيّةً زجاجيّةً مُدوّرة تحوي حلوى البودينغ بالشوكولا، غرزت في وسطها شمعةً

ثخينةً وطويلةً كشمعدانِ القدّاس، وبِالكاد كانت مُثبّتة داخل طبق الكريمة اللزجة. حالما اتّخذت مكانها على الطاولة، وضعت باولينا الصينيّة أمام والدها وقامت كارميلا بتعديلِ استقامةِ الشمعة ثم أعطت إشارةً للجميع أن يبدؤوا غِناء Las mañanitas، تحمّل رامون سمفونيّة النشازِ تلك مُثبّتاً نظرهُ على لهبِ الشمعة الذي يعني عامه الخمسين. كان الموقِفُ تجسيداً كثيف المعاني لتقلّبِ المزاج والنزقِ ودوّامة الضجيج والعتمة. صفّق الجميعُ وحثّتهُ كارميلا على أن يتمنّى أمنيةً ويطفئ الشمعة. أغمض رامون عينيه وتخيّل الجميع يكونونَ في جنازته. نفخ بِتراخٍ فتملّكتهُ كحّة مُتواصلة. عيد ميلاد سعيد؛ هنّأهُ الجميع. نظر رامون إلى البودينغ السائح في طبقِهِ وربطهُ على الفور ببرازِ كلبٍ مُصابٍ بالإسهال، وبعد تقطيعِ الحلوى مازحتهُ كارميلا قائلةً: «هاك حصّتك من الكعكة»، فابتسم المدعوون من بابِ الواجِب والذوقِ لا أكثر.

ذهب كارلوس لإحضارِ زجاجةِ الشامبانيا التي كان قد جلبها معه، وبعد أن سكبها في الكؤوسِ اللامعة رفع نخباً. اقتربت كارميلا من رامون وهمست في أذنِهِ لتذكيرِهِ بحظر الشراب المفروض عليه مقترحة أن يتصنّع رفع نخبِهِ وهي ستتكفّلُ بشربِهِ بدلاً عنه.

«عزيزي رامون»، قال كارلوس، «أنا وزوجتي نتمنّى أن تبقى مثالاً للكفاحِ والإرادةِ القويّة لنا جميعاً وأن يكون عاماً فيهِ خير كثير، !Salud».

ردّدوا جميعاً: «!Salud».

إرنستو الذي كان قد ثمل تماماً، كرع ما تبقّى في كأسِ الشامبانيا وقال: «Moët Pérignon يا لفخامةِ الجمال!».

انتبه رامون إلى الخطأ في الحال فماركة الشامبانيا التي أحضرها كارلوس كانت Moët Chandon وهي أرخصُ بكثيرٍ من ماركةِ Dom Péringnon ملكة الشامبانيا، وبمزجهِ لاسميهما معاً، فقد اقترف إرنستو خطأً فادحاً، لكنّ رامون اعتقد بأنّهُ تعمّد ارتكابهُ لإحراجِ صديقِه.

اضطجع إرنستو فوق الطاولةِ وتناول زجاجة الشامبانيا ثمّ أفرغها في كأسهِ الذي طاف بالشرابِ وبدأ يزبد. راقب رامون كيف تغيّر وجهُ أليسيا مُحرجةً من طريقةِ زوجها العنيفة في الشرب فأشارت إليهِ بتحريكِ شفتيها دون صوت لكنّهُ أجابها بصوتٍ مُرتفعٍ:

«دعيني مُبتهجاً! ألا تسمحين لي أن أسكر حتّى بعد أن أشرب Moët Péringon!».

كان رامون مُستمتِعاً بالعرضِ المُهينِ الذي كان يُمثّلهُ شقيقه.

«أعتقدُ بأنّ علينا الانصراف»، قالت لورا مُخاطِبةً كارميلا بتلميحٍ منها إلى أنّ «فضيحة شخصيّة على وشكِ الحدوث» بأسلوبِ الشفقة ذاك المتغلغل في المجتمع المكسيكيّ.

أيّدها كارلوس الذي شعر بالإهانةِ من السخرية التي لحقت بهِ بسبب شامبانيا Moët Péringon مؤكّداً ضرورة الانصراف.

«مهلاً! انتظروا!» اعترضهما إرنستو، «لا يزال الوقتُ مُبكّراً. ما زلنا نحتفلُ بعيدِ ميلادِ أخي، حتّى أنّهُ دهن وجههُ بمسحوقِ التجميلِ لأجلكم! تمهّلوا!».

في بداية الحفل، لم يكن رامون قد لاحظ أيّة ردّةِ فعلٍ غريبةٍ من الحضور تجاه وجهه، لذلك ظلّ هادئاً وظنّ بأنّ أحداً لم يُلاحِظ عمل كارميلا المُتقن على بشرته. لكنّ الجميع انتبه الآن. لقد وضع مسحوق التجميل بالفعل على وجهِه، وأن يُؤكّد شقيقهُ ذلك وبتلك الطريقة، فهذا بمثابةِ إهانةٍ مُضاعفةٍ له. حاول جاهداً أن يستعين باللعنات لمواجهته، في ذهنِه على الأقلّ، أن يرشقهُ بالشتائم المُتخيّلة، أن يُفرّغ قهرهُ المكتوم، لكن لا شيء، ولا حتّى كلمة واحدة خرجَت مستجيبةً لاستدعاء الغضب، هربَت جميعها متلبسّة اللسان الغائب.

عادت أليسيا للغمغمة مُوبّخةً زوجها فدافع إرنستو عن نفسه قائلاً:

«لكنّهُ يبدو جميلاً بالفعل!».

لم تلقَ أيّ من كلمات إرنستو صدى طيّباً لدى رامون، فما كان من هذا الأخير إلّا أن نهض عن كرسيهِ دفعةً واحدةً ثم تناول زجاجة الشامبانيا من عنقِها وقذفها تجاه أخيه الذي بالكادِ استطاع إخفاء وجههِ وأصاب عقبُ الزجاجة جبهتهُ فانتهى إلى السقوط على وجههِ إثر تعثّرهِ بقدمِ الطاولة. أليسيا أحاطتهُ بذراعيها لتحميه.

ظلّت الزجاجة ترتجفُ بيدِ رامون اليُمنى. أمرته كارميلا أن

يتركها في الحال. لكنّه خالف أوامرها واستمرّ قابضاً على الزجاجة ثم التفت إليها بعينين مغرورقتين بالدمع.

عند سماعِهما للصراخ، هرعت الطفلتان تتبعهما باولينا من غرفةِ المكتب حيثُ كنّ يشاهدن فيلماً، ليصطدمن بمهزلةِ محاكاةٍ بورجوازيّة ساخرة لشجارٍ شوارعيّ. حاول إرنستو دون جدوى أن يستأنِفهُ بالتهديد والوعيد والشتائم، لكنّ أليسيا منعت ذلك بتثبيتها له بمساعدة كارلوس على الكرسي، في حين قامت كلّ من كارميلا ولورا بالإمساكِ برامون محاولتين دفعه تجاه المطبخ.

«ادفع لي المال الذي تدينه لي»، قال إرنستو.

«اصمت!»، ترجّتهُ أليسيا.

بينما راحت كارميلا ولورا تُضاعفان تشديد قبضتيهما على رامون كي لا يفلت منهما.

«سوف تموت!»، صاح إرنستو مُتنبّئاً بالشؤم، «بكامِلِ وعيك بصدمةٍ من الأدرينالين، الكارما، كارماك ستقتلك أيّها المُعقّد!».

أليسيا حاولت إسكاتهُ بوضعِ يدها على فمهِ فعضّها عن طريقِ الخطأ. صراخهُ الحادّ اخترق سمّاعات أذن ماثيو الذي كان في غرفتهِ ولم يكن يعلم شيئاً عن المعركةِ الدائرة فنزل يركضُ تجاه الصوت ووجد الفتيات يبكين والسيّدات يطمئننهنّ وكارلوس يُحاول أن يجرّ عمّهُ إرنستو الذي لم يتوقف عن الصراخ نحو باب المخرج.

«اخرج من حيثُ تختبئ أيّها الوضيع المتوف لِنرَ من سيدفعُ تكاليف جنازتك!».

رامون سمعهُ من حيثُ كان مُحتجزاً من قِبلِ زوجته على مقعده في المطبخ بينما يخفّ لهاثهُ تدريجيّاً ويزدادُ رضاً عمّا أقدم على فعلِه منذ دقائق، كان مدركاً أنّهُ ارتكب لتوّهِ جرماً منصوصاً عليهِ في الفقرة ٢٨٩ من قانون العقوباتِ الفيدراليّ، لكنّهُ مع ذلك شعر بارتياحٍ فوق عاديّ.

بدأ صوتُ صراخِ إرنستو يبتعدُ بالتدريج حتّى تلاشى، أعلمت لورا رامونَ من الجانب الآخر لبابِ المطبخ أنّ الجميع قد رحلوا. كارميلا صبّت كأس ماءٍ وقدّمتها لرامون: لا شيء يُبرّر هذا التصرّف. على أن زوجها لم يكن غاضباً لأنّه عطِشٌ ولم يكن قد حان بعد موعد تناول الدواء. لكن كأس الماء هنا كانت فقط من أجل ملء فراغٍ لا يُحتمل، رامون شرِب رشفةً ثمّ رفع رأسهُ إلى الخلفِ وتتبّع ببرودةِ الماءَ المنساب في جوفه. عندما أنزل نظره تصادف مع نظرةٍ مُربِكةٍ من كارميلا:

«لماذا تنظرين إليّ هكذا؟».



الجزء الثاني

المـرضُ ليـس مُجـرّد مجـاز، والطريقـة الأكثر فعالية لمواجهتـه -الحالة المرضيّة بشـكلها الأسـلم- هي الطريقة التي قلّمـا تنصاع وكثَيراً ما تستعصي على التفكير المجازيَ.

سوزان سونتاج

(١٢)

وصلت عائلةُ ألداما إلى الحفلِ الباذخِ ذي التصميم فائق الرفعة قبل وقتٍ قصيرٍ من بدءِ مراسم الزفاف، والذي قدِموا إليه كتأديةٍ لواجبٍ تجاه والد العروس الأخصائيّ في علاجِ الأمراضِ النفسيّة الذي اعتاد إحالة العديد من مرضاه إلى خواكين. لم يقتصِد الطبيب في التكاليفِ على الإطلاق، فقد زُيِّنت الصالة بالستائر المعقودة والشرائط الحريريّة ومزهريّات الورودِ الأنيقة، فيما انتشر فريقٌ من الصحفيّين الملّين يجوبون القاعة ويلتقطون صوراً للمدعوّين المُتأنّقين ببدلاتِ السموكينغ وربطات العنق والفساتين الطويلة. بينهم من ظهر بين الحينِ والآخر بربطةِ عنق كتلك التي يضعها المُهرّجون، إحداهنّ ارتدت تنّورةً قصيرةً شديدة الإغراء، بينما كانت عائلةُ الطبيب ألداما تحترمُ التقاليد «الإتيكيت» الصارِمة، خواكين يمقتُ أيّ لباسٍ لا يُشكِّلُ رداء الطبيب الأبيض جزءاً أساسيّاً منه، تفصيلٌ يسمحُ لهُ بترسيخِ نفسهِ وراء عقدةِ التفوّق.

لم يكن ذلك مصدر التململِ الوحيدِ في حفلاتٍ كهذه، فأيضاً كانت المِشدّات المُزعِجة والبناطيل المُستأجرة بمقاساتِها الكبيرة أو الضيّقة وكعوب الأحذية المُرتفعة والجِياب الصغيرة والمكياج المُبالغ به وتسريحات النساء المُرتفعة والتعرّق المُتواصل ونعاس ما بعد الطعام، الذي أزعج غالبيّة المدعويّن المُلزمين على البقاء إلى نهايةِ الحفل، والذين اصطفّوا على امتدادِ القاعةِ وفقاً لترتيبٍ لا مرئيّ يتعلّقُ بصِلةِ القرابة؛ فكلّما ازدادت صلةُ القرابة مع العروسين، مُنحوا أفضليّة الجلوس في المقاعدِ الأقرب إليهما.

جلست عائلةُ ألداما في الصفّ ما قبل الأخير بمحاذاةِ الفرقةِ الموسيقيّة التي بدأت تعزف Marcha Nupcial ترنيمة الزفاف لِفيليكس مندلسون، بينما كان القسُّ والعروسان مع بعضِ المرافقين يتقدّمون في الممرّ الرئيسيّ. من خلالِ مستوى العزفِ استنتج خواكين أنّ أفراد الفرقة الموسيقيّة لا بدّ ينتمون إلى معهدِ الصمّ والبكم. حالما انتهى الاستعراض وبدأت مراسم عقدِ القِران شرد ألداما قليلاً يُفكّرُ بورمِ الساركوما المُخطّطة الذي أصاب رامون. وفقاً للاستعارة المُتخيّلة للدكتور لويس راميريز فإنّ خلايا هذا الورم تصرّفت على أنّها «خلايا اشتراكيّة حقيرة»، عمِلت بغيريّة استثنائيّة لصالِح جيرانها منتزعةً مكاناً لها في التجويفِ حيثُ تنبُت الأسنان، ثمّ عمِلت على تفكيك شيفرة كيمياء النموّ الأوّليّة والأوعية الدمويّة. وبفعلِ هذا المنهج الذي اتّبعتهُ، استطاعت الخلايا السرطانيّة أن تُكوِّن ورماً دائِريّاً سليماً في لسانِ المريض، وحاليّاً ما زال ذلك الورمُ ينشطرُ إلى أغشيةِ

مُتجانِسةٍ داخل طبقٍ بتري لاستنباتِ الخلايا، حيث يقبعُ لسانُ رامون.

«بسببي، بسببي، بسبب ذنبي الكبير»، ردّد المدعوون في ذات الوقت يضربون على صدورهم دون توانٍ.

بقي ألداما صامِتاً غارِقاً في تفكيره. بشكلٍ عامّ فإنّ DNA الخليّة الخبيثة يحوي على مئات من الطفرات غير ذات الجدوى، لكن لويس راميريز كان يعتقدُ بأنّ السبب لم يكن العدد الجينيّ الضخم، بل هو اضطرابُ حزمةٍ بعينها من الجينات الرئيسيّة تحديداً، ما يلزمُ لاستنساخ خلايا عشوائيّة لكن مُنظّمة في نفس الوقت. لو ثبتت صحّة شكوكِ خبير علمِ الأمراض فإنّ العوامل الوراثيّة لتلك الخلايا تُمثّل قائمةً من الطفراتِ الأساسيّة اللازمة لحدوثِ التسرطن. حماسُ راميريز يرجعُ مردّه إلى التداعيات الثوريّة المُحتملة لاكتشافٍ بهذا الحجم؛ العلاجُ العالميّ للسرطان! الكأسُ المُقدّسة لعلاجِ الأورام!

«هاليلويا! هاليلويا!»، ردّد المدعوّون الذين كانوا في غايةِ الانسجام، بينما كان القسّ يستعدّ لأن يقرأ المقطع الشهير من الإنجيل المُقدّس الذي يُقرا في هذهِ المُناسبة: بينما كان يسوعُ المسيح سائراً في طريقه -بدأ القسّ القراءة على طريقةِ الإنشادِ الرسوليّ والتي أخذت خواكين في الحال إلى سنينه الماضية في مدرسةِ ماريست الدينيّة- لمح رجلاً ضريراً فسألهُ تابعوه Rabí من ارتكب المعصية؟ أهو الرجلُ ذاته أم والِداه لكي يُولد ضريراً؟

تخيّل ألداما الرجل بعينيهِ المُبيضّتين جالساً إلى جانبِ الطريق الترابيّ يطلبُ صدقة فاغتنم المسيح الفرصة لكي يُظهِر قدراتهِ الشافية في طبّ العيونِ أمام تابعيه. بصق على الترابِ وعجنه بيديه حتّى أصبح عجينةً مُتماسكةً ثمّ ألصقها على عيني المريض. ولماذا يحتاجُ ابن الله ذو القدرةِ الإلهيّة العظيمة اعتماد مرهم يدويّ الصنع كي يُشفي واحداً من مخلوقاته! لربّما كان سبيلاً لإضفاءِ القليل من الدراما على المشهد. أو أنّهُ، في أفضلِ الأحوال، كان بمثابةِ السواغ للعناصر الفعّالة في اللعاب الشافي. لكنّ الإنجيل لم يُحدّد إن كانت العجينة قد وُضِعت فوق المُقلتين أم فوق الجفنين. ألداما كان يُفضِّلُ الاعتقاد بأنّ الطين لم يُلامِس العينين بشكلٍ مُباشر. بعد ذلك طلب يسوع من المريض أن يذهب ويغتسل في سلوام Siloé، وهي بركةُ نفقِ حِزقيا، ومرّة أُخرى بدت لهُ التعليمات تعسّفيّة: كانت للمسيحِ القدرة على شفائهِ خلال الفعلِ، أي خلال لصقِ العجينة على عينيهِ، لماذا إذن يُرسِل الرجُلَ الكفيف المسكين إلى البركة؟

ذهب هُناك واغتسل وعاد وهو مُبصِرٌ، حينئذٍ قال الجيرانُ وأولئك الذين رأوه وعرفوه ضريراً: «هذا الرجلُ ليس الرجل ذاتهُ الذي كان يجلسُ إلى جانبِ الطريقِ يتسوّل». وقال آخرون: «بل إنّهُ هو». ومنهم من قال: «إنّهُ يُشبههُ». بينما قال هو: «هذا أنا».. ألداما كان على يقينٍ بأنّهُ من غير المُمكِن لمِرهمٍ أن يُشفي عمىً خلقيّاً، وذلك يعودُ لكونِ قشرةِ الدماغ لدى المريضِ في هذه الحالة تفتقرُ لمراكزِ الاتّصال اللازمة لإيصالِ المعلومات عبر العصب البصريّ. ولا بدّ أنّ المريض، أمام اجتياحِ الأحاسيسِ المُتضارِبة، عانى نوبةً

من الصرعِ كنتيجةٍ رهيبةٍ لنزولهِ في البركة، لكنّ ذلك لم يحدُث فقد عاد الأعمى هادئاً من بِركةِ سلوام، ولكونه كان يوم سبت، فإنّ أحداً لم يكن لديهِ شيءٌ أفضل يفعله من مرافقة العجوز إلى الهيكل، وهناك رآهُ المُنافِقون الذين بالتأكيد لم يُصدّقوا المُعجِزة وأبعدوه عن المعبد لكونهِ آثماً، ثمّ وفي نهايةِ المطافِ عاد المسيحُ ليلتقي بالمريضِ ويكشف عن المعنى الإعجازيّ للآية:

«لدينونة أتيتُ أنا إلى هذا العالم، حتّى يُبصِر الذين لا يبصِرون، ويعمى الذين يبصِرون» (يوحنا ٣٩: ٩).

يا لها من طريقةٍ غير وديّة لاستخلاصِ علاجٍ طبيّ! دون أدنى شكّ كان لأبقراط والمسيح أن يُحدِثا تماساً كهربائيّاً إذا ما تناقشا حول هذا الأمر!

«هذهِ كلماتُ الربّ»، أضاف القسّ قبل أن يُغلِق الكتاب ويطبع قبلةً وحيدةً على غِلافه.

عاد ألداما للشرودِ مُجدّداً خلال القدّاس. كيف يا ترى ستكونُ جينات طفلٍ مولودٍ لشابّة يهوديّة وإلهٍ ذي قِوى خارقة؟ هل حقّاً أقدم الربّ المُقدّس على تلقيحِ مبيض ماريا أو أنه خلافا لذلك وضع داخلها بيضةً مُلقّحةً مُسبقاً Exnihilo (مخلوقة من لا شيء) خصّيصاً لها؟ الكنيسةُ الأرثوذوكسيّة سلّمت بأنّ ماريا كانت أُمّ الربّ، ومن أجلِ ذلك لم يقتصِر دورها على الحضانة وحسب، فلا بدّ أنّ الربّ قد لقّحها بنفخةٍ منويّة مُزوّدة بـ٢٣ صبغيّ من بينها الصبغيّ Y الذي حدّد نوع جنسِ المسيح. وأمّا الكروموسومات الثلاثة والعشرون

الأخرى التي اخترقت المبيض لدى ماريا كانت من بينها بالتأكيد جيناتٌ حدّدت لونَ البشرةِ والبنيّة الجسديّة لطفلِها ولون العينين وسماكة الشفتين وشكل الأنف. هل كان لمرضِ السرطان يا ترى أن يُصيب ابن الربّ؟ لا بدّ وأنّ الصبغيّات، التي ورثها عن والده والتي احتوت بروتينات مُثبّطة للأورام BRCA1 وBRCA2 وNF1 وp53، قد حصّنتهُ ضدّ أورامٍ سرطانيّةٍ محتومة. كان ذلك ليُمكّنهُ من تناولِ النقانِق وتدخينِ السجائر والاستمتاع على أسِرّة البرونزاج والتعرّض للنفايات الإشعاعية دونما خوف من الإصابة بأورامِ القلب والأوعية الدمويّة المُرتبطة بتلك المخاطِر المذكورة. يا لها من حياةٍ صحيّةٍ وسليمة تلك التي كان ليحظى بها المسيح لو أنّهُ لم يقضّ مضاجع العديد من الأعداءِ النافِذين.

قُوطِعت خيالات خواكين عندما بدأ الزوجان يتلُوان عهود الزواج، تعهّدت رجينا وخطيبها على الوفاء والحبّ الأبديّ. في لحظةِ بدءِ التناول والنبيذ بدأ هاتف ألداما المحمول بالاهتزاز داخل جيبه، ودون أن يُثير الانتباه ألقى نظرةً سريعةً على هاتفهِ ليرى اسم المُتّصِل فتعرّف في الحال على رقمِ السيّدة مارتينيز، لم يسبق لها أن اتّصلت في عطلةِ نهايةِ الأسبوع. توجّس من أن تكون حالة طارئة وقرّر أن يخرُج من قاعة الكنيسة كي يُجيب على الاتّصال. «هذا هو سِرّ إيماننا»، كان هذا آخر ما سمعه من القسّ قبل أن يغلق باب الكنيسة خلفه. لمّا أصبح خارِجاً، أخرج هاتفهُ المحمول من جيبه ليجيب إلا أنّ السيّدة مارتينيز كانت قد أنهت محاولة الاتّصال فبادر بالاتصال بها. قدّمت السيّدة مارتينيز اعتذارها لإقدامها على إزعاجهِ في يوم

سبت، لكنّ اتّصالها هذهِ المرّة يتعلّقُ بأمرٍ حسّاس جدّاً، ففي الليلة السابقة أقدم زوجها على الاعتداءِ على أخيهِ بقذفهِ بزجاجةِ شامبانيا. «لقد فقد عقله»، قالت واصفةً الحالة بِدقّة. تساءل ألداما أيّ نوعٍ من الشامبانيا يا ترى استعملهُ المريضُ لذلك الغرض.

«لقد حجزتُ لهُ موعِداً يوم الإثنين القادم مع مُعالِجةٍ نفسيّة أشادوا لي بها كثيراً»، تابعت السيّدة مارتينيز، «إنّها أخصّائيّة في الدعم النفسيّ للمرضى الذين يُعانون حالاتٍ مُشابهةٍ لحالتِه، تحدّثتُ معها عبر الهاتف وأوحت بالكثيرِ من الثقة، قالت لي بألّا أقلق وبأنّها ستُساعِدنا. لكنّ رامون عنيدٌ جدّاً ومُصرّ على أن لا يذهب، أمضينا طِوال النهار في محاولةِ إقناعه لكنّهُ يرفض بشكلٍ قاطع».

«لماذا أقدم على ضربهِ؟ سأل ألداما بفضولٍ واضِح».

«شقيقُ زوجي تجاوز حدودهُ في الشراب بعض الشيء وبدأ يتفوّهُ بالترّهات وفجأةً جُنّ جنون رامون وأقدم على ضربهِ في رأسِه. لو لم يكن بأضعفِ أحوالِهِ لقطع رأس شقيقه بضربتِهِ تلك».

«تُريدين منّي أن أتكلّم معهُ وأقنعه؟»، سأل ألداما.

«لا، تخيّل! سوف يغضبُ كثيراً بالتأكيد إذا علِم أنّني أخبرتُك بما حدث. في الواقع إنّ ما حدث هو أنّ السيّدة التي تُساعِدنا في المنزل أحضرت لهُ ببّغاءً كهديّة، وأنا أخبرته بأنّ بقاء الطير في المنزل غير مسموحٍ بهِ وذلك وفقاً للتعليمات التي أمليتها علينا حضرتك سابِقاً، وبما أنّ رامون ينزعجُ من أيّ شيءٍ مُؤخّراً، فقد انزعج منّي

وألحّ عليّ من أجل إبقاءِ الببّغاء ولكنّني رفضت، مُنذ قليل ناولني ورقةً كتبَ فيها أنّهُ يأمرني بأن أتّصل بالسيّدة لكي تُعيد الببّغاء إلى المنزل، وأنا بِصراحة ما زلتُ مُتأثّرةً بما حدث أمس ولم أُفكّر في الأمر ووجدتُ نفسي أقولُ لهُ: إذا أحضرنا الببّغاء إلى المنزل مُجدّداً هل تقبلُ بأن تذهب إلى موعِدك مع المُعالِجةِ النفسيّة؟ فوافق على ذلك. والآن ماذا عليّ أن أفعل؟ طوال ساعاتٍ أُفكّرُ كيف سأتصرّف وبما أنّهُ ذهب لينام خطر لي أن أتّصِل بحضرتك لكي تُجيبني حول إن كان من المُمكِن الاحتفاظُ بالطير».

ألداما كان مُتفاجِئاً من حماقةِ القصّةِ التي سمِعها للتو، فمِن جهةٍ صفّق لفورةِ غضبِ مريضِه؛ ضربُ سِكّيرٍ بزجاجةِ شامبانيا طريقةٌ عبقريّةٌ لتحقيقِ العدالة، مِن جهةٍ أُخرى أعجبتهُ فكرةُ أن الخادِمة أهدت سيّدها «طير ببّغاء» ثمّ لاحِقاً قامت زوجتهُ باستخدامِهِ كأداةٍ للمُفاوضةِ الزوجيّة.

«هل الببّغاء موجود في المنزل حاليّاً؟»، سأل الطبيب من أجلِ أن يكسب الوقت في التفكير في ما يعتقدُ بأنهُ الجزء المُهمّ من الحِكاية.

«كلّا، طلبتُ إليها أن تأخذهُ عشية البارِحة».

«حسناً، إذا كنتِ تعتقدين بأنّهُ بهذِهِ الطريقة سيُوافق على أن تُعايِنهُ الطبيبة إذن أبقِيه، لكن على أن تعرِضوهُ على طبيبٍ بيطريّ أولاً ويُحبّذُ أن يبقى في الخارج».

«أليس هذا خطراً على صحّة زوجي؟».

«المُهمّ الآن هو إبقاؤه في حالةِ رِضا ويلزمُ أن نكون يقظين».

«شكراً جزيلاً دكتور، لقد أراحني كلامك كثيراً».

«هيّا فلنفعل ما اتفقنا عليه».

ودّعا بعضهما البعض. عندما دخل ألداما إلى الكنيسةِ مُجدّداً كانت زوجته أستر قد عادت من المُناولةِ ومكثت في حالةِ الركوعِ على ركبتيها أمام مقعدِ البُدلاء تلعقُ جسد المسيح بلسانِها. اتّخذ لهُ مكاناً إلى جانِبها وظلّ تفكيرهُ مشغولاً بالسيّد مارتينيز، كان قد أنهى منذُ فترةٍ وجيزةٍ قراءة دراسةٍ في مجلّة The Lancet حول التأثيرات التي تطرأُ على الحالةِ المزاجيّة للمرضى الخاضعين للعلاجِ الكيميائي. إنّ تشخيصاً بالاكتئابِ كان يُفاقِمُ وبشكلٍ ملحوظٍ احتمالات عدمِ شفائِهم. الدراسة تُعطي أهميّةً كُبرى للحفاظِ على المعنويّات المُرتفِعة لدى تلك الفِئة وإذا كان تقديمُ ببّغاء كهديّةٍ يفي بالغرضِ فليكُن.

اختُتِم القدّاس بمقطعٍ لجورج هاندل بعنوان وصول ملكةِ سبأ، اختيارٌ يندرجُ تحت أعراضِ جنونِ العظمة التي تظهرُ عادةً لدى الخاطبين حديثي الزواج. في هذه المقطوعةِ لامس أعضاءُ الأوركسترا مُستوياتٍ من النشازِ تتناسبُ بِدقّة مع مستوى فرقة ماريياتشي ذات إمكانيّاتٍ مُتواضِعة. تخيّل ألداما الموسيقار العظيم يتقلّبُ غاضِباً في قبرِهِ في دير وستمنستر، ولو كان في متناول خواكين في تلك اللحظة زجاجة من الشامبانيا لقام بقذفِها مباشرةً في وجوهِ أولئك العازِفين لإراحةِ العالمِ من فظاعتِهم.

(١٣)

تحت ضوءٍ مُبهِرٍ بِقوّةِ ألف واط كانت عشبة الماريغوانا تُتابع عمليّة التركيبِ الضوئيّ لساعاتٍ إضافيّة. إنّها عشيّة يوم الإثنين، تيريزا تقومُ بتشذيبِ السيقان اليانعة بِتأنّ. كان جسدها مُتعرِّقاً بالكامل وقد كست يديها مادّة صمغيّة لزِجة، لكنّها تبتسمُ إذ يكفي أن تستنشق عطرَ العشبةِ ليُحدث لديها حالةً من الهدوءِ العميق. كان يوماً حافلاً بجلساتِ العِلاجِ الجماعيّ والمُعاينات الخاصة. في ذلك اليوم تعرّفت إلى رامون الذي شكّل صمتهُ القسريّ عائِقاً أمام التعاملِ معهُ بالطريقةِ التقليديّةِ للعِلاج. المقابلة الأولى نجحت من حيث أنّها مكّنت كارميلا من عرضِ تفاصيل حالةِ زوجها ليس إلّا. فوِفقاً لسرديّتها منذُ أن بُتِر لسانهُ وحتّى حادثة اعتدائهِ العنيف على شقيقه التي وقعت منذ ثلاث ليالٍ مضت ووفقاً للإطارِ العامّ لحالتِه؛ فإنّ زوجها شخصٌ نافد الصبر مُتحكّمٌ ونرجسيّ مع ثقةٍ عارِمةٍ بوجهاتِ نظرِه وسِجلٍّ حافِلٍ بالعواطف الفائِضة عن الحاجة. رامون كان قد قاطع زوجتهُ مرّات قليلة خلال حديثها عبر كتابةِ جُملٍ مُصاغةٍ باختصار عبّرت عن انزعاجِهِ في مُذكّرتِه، لكنّ

طريقة التعبير تلك اتضح بأنّها مُضجِرة، فأوّلاً كان عليهِ أن يصوغ نصّ الرسالةِ ثمّ أن يقوم بنقلِها إلى المُفكّرة ثمّ إلى مُحاوِرته مُنتظراً أن تقرأها، مُتيقّناً من أن إمكانيّة المُشاركة الحُرّة والتي تُعدُّ من دعائِمِ طُرقِ العلاجِ النفسيّ كانت مُستحيلةً في حالتِه.

تيريزا عرضت على رامون استراتيجيّةً غير مُعتادة تُمكّنُه من المشاركةِ في الحِوار داخل العيادة لكن عبر الدردشةِ على الأنترنت. تتلخصُ العمليّة باستخدامِ كلٍّ منهما لجهازِ حاسوب مُنفصِل وبهذهِ الطريقة يستطيعُ رامون أن يكتُب رسالتهُ عبر لوحةِ المفاتيح وتتمكّن هي من قراءتها وفقاً للترتيب الذي يُرسِلُها بِهِ بطريقةٍ شبهِ فوريّة. مع أنّ فكرة الدردشةِ وجهاً لوجه يُمكن لها أن تبدو مُتناقضةً مع حالتهِ، لكنّها أرادت من ذلك أن تبقى قبالتهُ لكي تتمكّن من التقاطِ الظواهر غير الشفهيّة للّاوعي لديه والردّ عليهِ بصوتها الحيّ والتدقيق في ردّةِ فعلهِ التعبيريّة.

على ما يبدو أنّ العرض لم يرُق لرامون، على عكسِ كارميلا التي أظهرت حماسَها للفكرة وراحت تُخطّط في الحال لأن تطلب من ابنها أن يُعيرهما جهاز اللابتوب الخاصّ بِهِ وأن يُدرّبهما على استخدامه. كانت كارميلا واثقةً من أنّ الأمر يتعلّقُ بجلساتِ علاجِ الأزواجِ المُعتادة، لكنّ تيريزا أوضحت لها لاحقاً حاجتها في المقام الأوّل إلى المتابعةِ مع رامون بشكلٍ منفصل.

السؤالُ الوحيد الذي كتبهُ رامون بمبادرةٍ شخصيّةٍ منهُ كان: «كيف ستكونُ مواعيدك؟»، ولم يُخفِ صدمتهُ عند سماعهِ لمقدارِ المبلغ

الذي تتقاضاهُ تيريزا عادةً لقاء الجلسةِ الواحِدة. كارميلا شرحت لها بأنّهم يمرّون بظروفٍ ماديّةٍ صعبة، فعرضت تيريزا أن تختصِر أجرها إلى القدرِ الذي يستطيعان دفعه، عند الانتهاءِ من مناقشةِ الأجرِ المُخصّصِ لجلساتِ العلاج أبرمتا موعداً للقاء يوم الإثنين التالي في نفس التوقيت.

عندما فرغت من تشذيبِ الأوراق، قامت تيريزا بقصّ السيقانِ التي تفرّعت منها براعم مُشكّلة عناقيد مُزهرة، كان عليها أن تفعل ذلك ببالغِ الحذر لتجنّبِ خدشِ أكثر الأجزاء الممتلئة بالمادّة الصمغيّة المُخدّرة، حيثُ ستُترَكُ هذه السيقان المقطوعة بعد أن تُعلّق على حبلٍ بشكلٍ معكوس لتقطر سوائِلها داخل كوّةٍ في الحائط على شكلِ مغارةٍ صغيرة لمدّة أسبوعين كاملين، ولمّا تيبس تكون الأزهار جاهزةً «للعلاجِ» حال وضعها في قوارير زجاجيّة. عمليّة تستغرقُ لإتمامها حوالي الستة أشهر وتتمخّضُ عنها كنتيجةٍ عشبةٌ ذات تأثيرات مُنشّطة وطعم خاص، ومن أجلِ ضمانِ توزيع عشبة الماريغوانا على جميع مرضاها الذين تأثّروا بشهادة مرضى سابقين ممّن قصدوا تيريزا باحثين عن علاجٍ بديلٍ لمقاومةِ أحزانهم؛ فقد كانت بحاجة إلى إنتاج كميّاتٍ أكبر مرّة بعد أُخرى. كان الطلبُ على المُنتجِ على وشكِ أن يتجاوز قدرتها على الإنتاج وأيضاً قدرة الشخصِ الذي اعتاد تزويدها بالتراب والسماد المُخصّصين لنباتِ القنّب. ذلك الشخص عالم أحياء من جماعة الهيبيز ويقطن في مدينةِ بوستلان جنوب المكسيك. كانت تيريزا على قناعةٍ تامّة بأنّ تداول الماريغوانا لن يستغرق سوى بضع سنوات حتّى يُصبح قانونيّاً، وكانت تعيشُ

على أمل أنّهُ عندما يتحقّق هذا سيُصبِح بإمكانها الكشف عن عملها ونقل هذا المشروع الاجتماعيّ الثمين إلى الآخرين. وإلى حين أن يحدُث ذلك، وجدت نفسها مُضطرّة إلى الاعتذارِ عن استقبالِ مرضى جُدد مُبيّنةً لهم أنّ عليهم أن يحصلوا على العشبةِ بِطُرقهم الخاصّة، مع أنّ ذلك يعني أنّهم سوف ينتهون إلى شراءِ منتجٍ متدني الجودة من سوقٍ مُدارٍ من قِبلِ حفنة من المُجرمين. أمضت تيريزا شهوراً طويلةً في البحثِ عن شريكةٍ لها لكنّها لم تجد من تتّصفُ بالأمانةِ وحفظ الخصوصيّة والتفرّغ والاهتمام اللازم لمُزاولةِ هذا العملِ الذي فوق كلّ ذلك يُعتبرُ جريمةً يُعاقِب عليها القانون. لذلك في الوقتِ الراهن كان عليها الاستمرار في العملِ وحدها.

نزلت لتستحمّ بعد يومِ عملٍ مُرهِق، كانت لحظاتها المُفضّلة في اليوم عندما تلِجُ حوض الاستحمام وتشعر بغمرةِ المياهِ الدافئة، بواسِطةِ إسفنجة الحمّام الطريّة بدأت تُوزّع الصابون على كاملِ جسدِها، اعتادت أن تبدأ من منطقةِ العُنق وتهبِطُ بالتدريجِ على الجلدِ الرخو ثمّ تمرّرها حول أثر الغُرزتين في صدرِها، وكأنّهما ابتسامتان ضريرتان حيثُ يوماً ما وُجِدتا حلمتين. راحت الرغوة تتكوّمُ على شعرِ عانتِها الذي ازداد كثافةً بمرورِ الأيّام. جلست تيريزا على مقعدٍ بلاستيكيّ مُنخفِض لتغسِل فخذيها، لم تكن على عجلةٍ من أمرِها بل كانت أُمّاً حنونةً على شيخوختها. عادت للتفكير بإدواردو مُدلّلها النفسيّ. فبعد مرورِ عدّة أسابيع على قرارها بعدمِ الخوضِ بالأمر، قررت يوم السبت بأن تسألهُ ما إذا كانت هنالك أيّة تطورات بخصوصِ إميليا زميلتهِ في الكليّة، فكان أن أجابها

إدواردو بانزعاجٍ بأنّهما قد اجتمعا ليدرسا حِصص اللغة اللاتينيّة، وأنّهُ لم يُمضِ وقتاً طيّباً معها. ولماذا؟ لقد قامت إميليا بعضّ سدادة القلم. تلك المُلاحظة الحِسيّة البريئة المُرتبطة برغبةِ الجنسِ الفمويّ لم تلق استحساناً لدى إدواردو -قولي لي أيّ نوعٍ من البكتيريا لن يكون متواجداً في تلك القطعة البلاستيكيّة التي أخرجتها بيدها من المقلمةِ ثم وضعتها على المقعد ثم أدخلتها في فمِها؟- ولم يعد لمحادثتها منذ ذلك الحين.

قرّرت تيريزا أن تُواجِههُ عبر ملامسةِ جذورِ الرهاب لديهِ؛ فسالتهُ إن كان قد حلم بإميليا في السابق. «لماذا تسألين؟»، قال مُستنكِراً، «بماذا حلمت؟». أصرّت هي مُرتكبةً بذلك فعل الخيانةِ للمبادئ الأكثر قداسة في مدرستها التحليليّة، «لا أريدُ أن أتحدّث عن الأمر»، قال مُضطرباً.

أومأت تيريزا برأسِها بكلّ احترامٍ مُدرِكةً بأنّهُ لن يكون بمقدورِ إدواردو احتمال انفلاتِ سيطرتهِ على ما كانت هي تتخيّل أنّهُ يحلم به، لكنه، في نهايةِ المطاف، اعترف لها بذلك، هو يحلمُ بها بالفِعل وبشكلٍ مُتكرّر؛ كانت هي تُريد قتلهُ ولكن عندما تُقدِم على قتله، هي من كانت تموتُ وليس هو، وتقريباً في غالبيّة الأحلامِ كان مُمدّداً على سريرِ المستشفى وكانت هي من تقطعُ الأوكسجين عنهُ وهي أيضاً من يختنق، هنا تكمنُ الغرابةُ في الأمر، عندما كانت تلفّ حبلاً حول رقبتِهِ كان وجهها يتورّمُ وتقفز عيناها من محجريهما ثم تفقدُ وعيها. فيُحاوِل أن يُنقذها لكن ذلك كان مستحيلاً عليه، كانت تستمرّ في خنقِ نفسها حتّى الموت. «لا تقتليني»، كان يترجّاها مع

أنّها هي من يموتُ كلّ مرّة. تيريزا استشفّت إمكانيّة احتواءِ هذهِ الأحلام لعنصرٍ شهوانيّ بل أكثر من ذلك فإنّه أيضاً ينتهي بالإيلاج. لم تمتلك الجرأة لاستنطاقِه، ازدواجيّة حُلمه السادو-مازوشيّة أثارت اهتمامها، فإنّهُ من النادرِ أن تُشبع هاتين الرغبتين معاً خلال الحُلمِ ذاته. لكن ما كان يُرجّحُ الكفّة نحو الإيحاء المازوشيّ هو الخوفُ والترجيّ ومُحاولة إنقاذها. لكن ما الذي عناهُ حقّاً تواجدُ إيميليا في الحُلم؟

إدواردو قدّم لها تفسيراً معقولاً للمعنى الذي عبّر بِهِ عن نفسهِ في كوابيسه، من وجهةِ نظرهِ أنّ محاولة إيميليا لقتلهِ مُتّصلة برهابهِ من العدوى، «لو أنّها كانت تُحاوِل تقبيلي في الحُلم لكان ذلك مُقزّزاً جدّاً». من جهةٍ أُخرى، اعترف بحبّهِ لها، كانت ذكيّة وانطوائيّة وبالغة الجمال، لا بدّ ستكون شريكةً رائعة، لكن بالمقابل، هو لا، لن يكون شريكاً مُناسباً، كان يمكِنُ لحالتهِ أن تسوء مُجدّداً في أيّة لحظةٍ، «إن تزوّجتُ بها فمِن المُحتمل أن تتسبّب لي بالأذى، بالمُقابِل سأتسبّبُ لها بأذى أكبر بكثير، لهذا كانت هي من يموت في الحلم. أنا قنبلةٌ موقوتةٌ، أعرِفُ بأنّ السرطان سيعودُ إلى جسدي ولا أريدُ أن يعاني أحد معي». مشاعرهُ النبيلة تجاه إميليا ثبّتت من قرارهِ بالبقاء دون زواج، أعزبَ ووحيداً طوال حياتهِ من أجلِ خيرِ الآخرين.

المغزى الكامِن في الحُلم كان يُمثّلُ استعارة التمتّعِ بالآخر، من وجهةِ نظرِ الرجل تُعدُّ صورة المرأة المرغوب بها الصورة الأمثل لتقمّصِ «الآخر الذي لا وجود لهُ» حسب قولِ لاكان، من جهةٍ أُخرى يُؤكّدُ المُحلّلُ النفسيّ الغامض بأنّ الجِسم مُصمّمٌ في الأصلِ

للتمتّعِ بنفسِهِ، أمّا الجسم المصاب بالسرطان فإنّ تمتعه يمكنُ أن يقتل صاحبه، في هذه الحالة فإنّ إدواردو سيعمدُ إلى تحطيمِ ذاتهِ تلقائياً. كانت إميليا تترجّاه ألّا يقتلها لكنّها أيضاً لم تكن تُريدُ العيش من دونه. بالتالي: هي العودة إلى سنواتِ اللوكيميا، ذاك الغرام المُتوحّش الذي استنزف جسد إدواردو، هذا ما عنتهُ خيالاته. لكنّ الجديد في الأمر أنّ السرطان عاد مُتخفياً بهيئةِ امرأة.

في صدرِ الرجلِ المازوشيّ عادةً ما يقبعُ قلبٌ كارهٌ للنّساء. كانت تلك الأحلام التي راودتهُ بانتظام تعملُ كآليّةٍ دفاعيّةٍ للّاوعي لديهِ ضدّ التهديد المُتجسّد على شكل إميليا في حياته، إنّ مُجرّد العيش بسعادة والتسليم للعلاقةِ العاطفيّة وخطورة التمادي في المغازلة يعني تخلّيه الكامل عن النظام الرمزيّ الصارم، والذي، وعلى الرغمِ من كونهِ عصابيّاً ورهابيّاً، إلا أنّهُ يُضفي معنى على حياة إدواردو والتخلي عنه يُشكّلُ مخاطرةً كبرى، لأنّهُ إذا ما أخفق في محاولاتهِ تلك لكسبِ وِدّ إميليا وإيجاد الهدف المرجوّ في شخصِها القادر على سدّ مكان فراغ الرغبة لديه، فإنّه حينئذٍ سيجدُ نفسهُ وحيداً في الهاوية وعند تلك النقطة سيُواجِه انهياراً نفسيّاً حادّاً.

الكوابيس المُفزِعة هي في الحقيقة استراتيجيّة ذاتيّة يائسة للنفس تسعى من خلالها لاستعادةِ الواقع، وبفضلِ تلك الكوابيس كان عقلُ إدواردو محميّاً ضدّ جنونٍ مُدمِّر.

تحتّم على تيريزا الإذعان لحقيقةٍ مفادُها أنّه لا بدّ سيمضي زمن طويل قبل أن يكون بمقدورِ إدواردو أن يُكوّن علاقاتٍ فعّالةٍ

وطبيعيّة. بكلماتٍ أخرى: سيبقى وحيداً، وحيداً تماماً، مثلها، لأنّ الأمر كان يعنيها هي أيضاً ويعكِسُ إسقاطات لرغباتها وخيالاتها المُتكرّرة بينما تستحمّ ليلاً بأنّ شخصاً ما سيُرافِقها على طاولةِ العشاء وسيذهبُ معها إلى السرير وسيحتضنها دون تحفّظٍ بسببِ غيابِ ثدييها. ليلةٌ سعيدةٌ يا حبيبتي. قال الصمتُ عندما أطفأت تيريزا الأنوار.

(١٤)

«لا تكن سخيفاً!»، قال بينيتو عندما رأى رامون مُقبِلاً يلفّ نفسهُ بعباءةِ البونشو[1] وكأنّهُ مرجٌ مُتنقّل من شتّى الألوان. أعرفُ مُسبقاً أنّي أبدو مثل تشافيلا ڤارغاس -فكّر رامون- لكن هذه الخِرقةُ البالية تحمي ركبتيّ من البرد، لهذا توقّف عن انتقادي الآن. كان رامون قد وجدها بينما كان يبحثُ عن ثيابهِ القديمة في الخزانة.

أهدتني إيّاها حماتي في عيد رأسِ السنة منذُ خمس عشرة سنة تقريباً، بالطبع فقد فعلت ذلك لتُغيظني بِها أنّها كانت تعتبرني من الهنودِ الأصليّين، أو مُجرد عاهِر، أو الاثنين معاً، لكنّ رأيها لم يكن يعنيني على الإطلاق. دمّر العلاجُ الكيميائي التوازن الحيويّ لِجسمي، جهازي الهضميّ، قضيبي.. كلّ شيء، كلّ شيء. ليأتوا الآن ويخرجوا لي بأمر أنّ الورم انتشر في هذهِ الرئة.. -مشيراً إلى

---

(١) البونشو: عباءة من الصوف دون أكمام كانت لباساً لشعوبِ الأنديز في العصِر ما قبل الكولومبيّ واستمرّت إلى يومنا هذا لكن بأشكال مُحدثة وتصاميم أكثر ملائمة لروح العصر.

رئتهِ اليُسرى- بُقعتان رماديّتان ظهرتا في صورةِ الأشعّة. أوّل ما سيخطرُ في ذهنهِ قولهم: أترى الآن أيّها المُغفّل؟ لماذا كُنت تُدخّنُ علبتين من السجائر يوميّاً؟ لكنّني تركتُ التدخين منذ عشرين عاماً يا بنيتو ثمّ إن هذا ليس من شأنهم.

لقد قال لي الطبيب مِراراً إنّ ما حدث لي أشبه بتلقّي رصاصة طائشة، أو بالأحرى كارثة طبيعيّة. حتّى أنّهُ لم يكن لديّ أيّ عامل مُسبّبٍ لِما حدث. يا لهذه المِحنة التي أصابتني من غير أن أكون مديناً بشيءٍ أو خائفاً من شيء[1]. والآن يُخطّطون لكيٍّ تلك البقع الرماديّة بالأشعة، ماذا أقولُ لهم؟ ألّا يتكبّدوا عناء فعلِ ذلك لأنّني قرّرتُ أن أُنهي هذا كلّه؟ تخيّل الغوغاء التي سيُحدِثونها، مؤكّدٌ سيصل الأمر بكارميلا إلى أن تُدخِلني مصحّاً للأمراضِ العقليّة. لا يا بنيتو الموتُ لا يُخيفني على الإطلاق، ما يُخيفني حقّاً هو عارُ تركِ أولادي في الشارع. ولنفترض أنّهم تمكّنوا من علاجِ تلك البقع الخبيثة لديّ، ماذا أنا بفاعلٍ بعدها؟ ما لا يفهمه أحد هو الوضعُ المُهينُ لحالتي، أنا تعوّدتُ العيش على الفِعل وعلى إعطاءِ صوتٍ للنّاس أمام القانون من أجلِ حمايةِ حقوقِهم وفرضِ المساءلةِ القانونيّة وفضّ النزاعات. أنا أُمثّلُ زبائني وأترافع بالنيابةِ عنهم في المحاكم، أمّا الآن فأنا مُجرّد أبكمٍ لا قيمة له. لا أستطيع فعل ما يتوجّبُ عليّ فِعله. الأمر بغايةِ

---

(١) من لا يدين شيئاً لا يخشى شيئاً el que nada debe nada teme: مثل شعبي متداول في أمريكا اللاتينية، هنا استخدمه الكاتب مجازاً للدلالة على أنّ رامون لم يُدن بشيء للحياة لذلك لم يكن يخشاها، لكنّهُ نال منها قدراً رهيباً من المصاب دون أن يكون قد ارتكب أيّ تقصير أو تهرّب من وفاءِ ما عليه.

البساطة؛ إذا لم يعد بإمكانك القيام بواجباتك فانسحِب، هناك من هم بانتظار أن تقف عن الكرسيّ كي يجلسوا مكانك ويتناولوا الطعام. أمّا أنا فقد أحضروا لي الحِساب مُبكّراً جِدّاً، نعم بالطبع آلمني ذلك، لا تظنّن بأنّي من حجرٍ، بكيتُ كثيراً عندما لم يرَني أحد، لكن الآن وكمرحلةٍ قادمة، يتوجّبُ عليّ أن أترُك إرثاً لعائلتي حتّى وإن كان مُتواضِعاً، هذا يشملك أنت أيضاً يا بينيتو لكي تحصُل على قفصٍ أفضل قليلاً من هذا.

لا أملكُ ولا بيزو واحد في جيبي، لكنّني أُفكّرُ بما عليّ أن أفعله. هُناك في الأعلى لديّ ساعة من الذهب الخالص، هي مكافأة منحتُها لنفسي عندما ربحتُ إحدى القضايا المُهمّة، مُخبّأة في الطابق العِلويّ ومقفول عليها في الخزانة، قطعةٌ ثمينةٌ يا بينيتو من زِنة اثنين وثلاثين قيراطاً. إنّها أكثرُ من كافية. الذهبُ أوّلاً ثمّ الرصاص.. سوف أُرسِل رسالة لأحد موظّفي المكتب كي يحضر إلى المنزل دون عِلم كارميلا. سأطلبُ إليهِ أن يذهب بها إلى السوق فيُثمّنها ويبيعها. سيكونُ مبلغاً وافياً من المال، بمثلهِ في الجيب يُمكن لي أن أبدا بالتحرّك. هناك ثلاثة أشياء يتوجّب عليّ فعلها: أوّلها دفعُ مصاريف السِجلّ وكاتب العدل، وأمّا ما يخصّ إكمال أوراقِ مُلكيّةِ المنزل فما عليّ سوى توقيع معاملةِ الطلاق وينتهي الأمر. ثانياً: قفصُك، بالتأكيد سيكون حجمهُ مُضاعفاً كي تكون على سجيّتك. ثالثاً، تكاليفُ دفني؛ أريدُ أن أترك لهُم ما يُغطّي كافّة التكاليف، بل أكثر من ذلك، لو كان الأمر بيدي لاخترت نعشي بِنفسي: أعطِني ذاك لو سمحت المصنوع من خشبِ كاوّبا (الكابلي). أيضاً لكنت اشتريتُ طقم السكاكين الذي

يعرضونه في إعلانات التلفاز وأهديتهُ إلى إلوديا من أجلِ إسعادِها وحسب. تعرف ماذا بِودّي أيضاً؟ أن أترُك رسالةً إلى المُغفَّلِ إرنستو لا ينساها في حياته كلّها، سأقولُ له فيها: أنت نذلٌ مُتنفعٌ ومستغلّ وأنا إن أُفكّر بالانتحار فليس بدافعِ التهرّب من دفعِ الدَين، بل لأنّي لن أحتملَ أن يُعامِلني الجميع كخيشةٍ عفنةٍ ومُهملة. أنا سأقتلُ نفسي من أجلِ حفظِ كرامتي، لو أنّك تُدرِكُ حقّاً ما يعنيه ذلك لقلت لي: رامون.. أتعرفُ شيئاً؟ انس أمر تسديد الدين، لقد فعلت الكثير من أجلنا! هذا المالُ هو دينٌ سابقٌ لك عندي، إنّهُ لك. لكنّك وللأسف لا تحتكِم على ذاك القدر من الأخلاق كي تُبادر به. إذن لا خيار عندي. لقد قمتَ بالاحتيالِ على نصفِ العالم والآن جاء دورك. لقد كنتُ شاهداً أساسياً على عمليّاتِ النصبِ التي ارتكبتَها وكما يقول المثل: لصٌّ يسرِقُ لصّاً[1].. هكذا أُنهي رسالتي. ما رأيك بينيتو؟ مع أنهُ سوف يُحاولُ استعمال هذه الرسالة كدليلٍ لصالحِهِ لكن إن أنا لم أعُد موجوداً وليست هناك أيّة أملاكٍ باسمي ليحجز عليها فليذهب إلى الجحيم.

خرجت إلوديا لتكنس الفناء مستغلّةً صحبة رامون فاستقبلها بينيتو بجملة «مُصّي لي بِلذّة»، جملة كانوا قد لقّنوه إيّاها في السوق كي يُردّدها في حضرةِ النساء.

«اخرس أيّها المنتوف!»، أمرتهُ إلوديا.

---

(١) مثل متداول في أمريكا اللاتينية: لصٌّ يسرق لصّاً يُعفى عنه لمئة عام:
Ladrón que roba a lardón tiene sien años de perdón.

رامون كان مستاءاً من تكرارِ تسمِيات إلوديا العشوائيّة لبينيتو في كل مرّة تُريدُ مناداته، فكانت تُطلِق عليه ألقاباً لا على التعيين مثل بيريكو، عصفور، غويرو، منتوف، ليبيرو، فاستغلّ المُناسبة ليكتُب لها ملاحظةً تقول:

الببّغاء يُدعى بينيتو على اسم الرئيس هواريس.. نادِه بهذا الاسم.

«يا لهُ من اسمٍ جميلٍ الذي منحته إيّاه حضرة الأستاذ، مرحبا بينيتو، اسمك بينيتو الآن، الاسم الذي منحك إياه بابا. حسناً بينيتو توقّف عن التلفّظِ بكلماتٍ نابِيةٍ وقُل لي ما اسمك هيّا: بي! ني! تو! هيّا بي ني تو!».

«لا.. هذا يكفي.. دعيه وشأنه!».

«لديّ قريبٌ يُدعى بينيتو، كان طيّباً جِدّاً، رحل عن القريةِ منذ فترة طويلة، لا تتصوّر كم أعان والدتي المريضة قبل أن نأتي بها إلى هنا لمساعدة حضرتك. كان يجلب لها الماء إلى المنزل وكذلك الطحين والبيض والحليب. ملاكي الحارس، هكذا لقّبته أُمّي. وقد كان كذلك بالفعل».

«لا يزال هناك أناس طيبون في هذا العالم»، فكّر رامون. بذاكرةٍ مُمتنّة باشرت إلوديا بكنسِ الفناء.

«ولكن أخته فيديليا، فليرحمها الربّ برحمته، ابنة عمّي الصغرى، تلك المسكينة كانت نهايتها فظيعةً للغاية. مسٌّ من الشيطان أصاب والدها. هذا ما أخبرني به بينيتو عندما ثمل في أحدِ المرّات وبدأ

بالبكاء، قال إنّ والده عندما يشعرُ بجسمهِ حامياً يهجع إليها ليلاً ويفعلُ بها أشياء مشينة، وبفرضِ أنّها لم تكن ابنته.. أليست مجُرّد طفلة! يا إلهي! كان يعشقُ الشراب تماماً مثل والدِ أطفالي، أتذكُره؟».

«كيف لا.. كان على وشكِ أن يقتلك ذلك اليوم..».

«وبين الحين والآخر تراهُ غارِقاً في النوم في أحدِ الشوارع أو متروكاً قربَ منزلِه الذي يبعدُ عن منزلنا مسافة قليلة خلف حقل الذرة، في المكان عينه حيثُ رآهُ بعض المارّة ذات ليلة مُستسلِماً للنوم وهناك تركوه لأنّهُ كان يتحوّلُ إلى نزِقٍ إذا ما حاول أحدهم جرّهُ من ذراعيه، وفي اليوم التالي، عند الفجر»، عند هذه النقطة من الحكاية توقّفت إلوديا عن كنسِ الأرضيّة وتبدّلت نبرة صوتها بأُخرى رقيقة وهامِسة: «قالوا إنّهم عثروا عليهِ مُمدّداً.. لكن.. دون رأس. في تلك الحقبة لم يكن قد سُمِع بعد عن شبكاتِ تجارةِ الأعضاء أو المُخدّرات.. كانت قريةً تنعمُ بالهدوء والأمان.. وإلّا أين يكون قد ذهب رأسهُ إذن؟ بعدها قالوا إنّ كلباً شارِداً جاءِ بالرأس! هل تُصدّق هذا حضرتك؟ وكان يلتهمه! هذا ما أشاعوهُ حينها وكانوا على وشكِ أن يذبحوا الكلب مُعتقدين أنّهُ من قطع رأس الرجل، لكن جارنا، إشبين عمّي وصديقه المُقرّب، أدلى بشهادتِهِ حول ذلك وقال إنه شاهد ابن عمّي بينيتو يخرج ليلاً حاملاً بيدِهِ الماتشيتي[1]

---

(١) الماتشيتي: سكينٌ طويل وعريض، يصل طوله إلى ٧٠ سم، يُستخدم لأغراضٍ منزليّة كقصّ العشب الاستوائيّ العملاق وقطع ثمار جوز الهند وتقشير جذور الجوكا واستعمالات زراعيّة أخرى، كما واستُخدِم لأغراضٍ حربيّة إذ يُعدّ من الأسلحة التقليديّة التي استُخدِمت خلال المقاومةِ الشعبيّة والثورات لدى شعوب أمريكا اللاتينية.

وساورتهُ شكوكٌ حول الوجهةِ التي يُمكن أن يقصدها في تلك الساعة المُتأخّرة وبيدهِ مثل هذهِ الأداة الحادّة خاصة وأنه عاد لاحقاً من دونها».

«يا لهُ من رجل بحقّ، احترامي له».

«ولهذا قبضوا على بينيتو الذي لم يتفوّه بحرف».

«إنّه أفضل ما يمكن فعلهُ في مثل تلك القضايا»، فكّر رامون، «عدم الإدلاءِ بأيّة اعترافاتٍ إطلاقاً».

«وماذا تعتقد بأنه حصل؟ لقد ذهبَت أختهُ واعترفت بأنّها هي من قتلت أباها وجلبت بيدها الماتشيتي المُلطّخ بالدماء ملفوفاً بِكيس، وهنا نفى ابن عمّي صحّة ما تقوله شقيقته واعترف بأنّهُ الفاعل، وظلّت هي على موقفها تُنكِر وتُصرّ أنّها الفاعِلة مُعلّلة ذلك بأنّها إن لم تكن القاتلة فكيف لأداةِ الجريمة أن تكون بحوزتها وليست بحوزةِ أخيها؟».

«ما يجب فعلهُ هُنا هو مُقارنة نسخةِ قصّة كلّ منهما لا أكثر»، فكّر رامون.

«ولماذا أحكي لك عن هذا؟».

أشار رامون إلى قفصِ بينيتو.

«آه.. أجل تقصد ابن عمي بينيتو؟ حسناً لقد احتُجِز الاثنان في المركز وقبل أن تأتي السلطات لاصطحابهما إلى المدينة طلب أهل القرية أن يُقابِلا القِسّ لعلّهما يعترفانِ لهُ بالحقيقة.. ومن يعلم ما قالاه

لهُ ذلك اليوم، لكن الذي اتّضح حينها أنّ فيديليا هي الفاعِلة وانتهى الأمرُ بأن اقتادوها إلى السجن.

زوجةُ عمّي المسكينة هي الوحيدةُ التي حضرت مأتم زوجها وكنت معها حينئذٍ، عندما همّوا بإنزالِ النعشِ إلى الحفرة سمِعت طرقاتٍ خفيفةً آتيةً من الداخل وكأنّ أحدهم يطرق الباب فبدأت بالبكاءِ والصراخ: ما زال حيّاً! أخرجوه! أخرجوه! صرخات إلوديا أقلقت بينيتو. وراحت تُطالِبهم بأن يفتحوا التابوت لكنّهم لم يفعلوا. أحدهم ظنّ بأن الرأس كانت تتدحرجُ في الداخل لكونِها منفصلةً عن الجسد فترتطمُ بجدرانِ النعشِ الخشبيّة. بعدها كان عليهم أن يُراقِبوا العمّة لأنّها أرادت الذهاب إلى القبرِ وفتحِ النعش، كانت واثقةً بأنّهم دفنوه حيّاً.

بينيتو، بعد خروجهِ من السجن، عقب انتهاءِ التحقيق معهُ، بقي حبيس غرفتهِ لا يُغادرها.. وبعد فترةٍ وجيزةٍ اختفى نهائيّاً. قالوا إنّهُ جمع أغراضهُ وهاجر إلى الولايات المُتّحدة الأمريكيّة.

أمّا فيديليا المسكينة، فلا أحد يعلمُ ما الذي أدمنتهُ في ذلك السجن إلى أن جاء يوم لم تتحمّل فيه جرعة زائدة. ماتت المسكينة في سجن سان لويس بوتوسي.

أيُمكِن أن ترفع قدميك قليلاً لأكنس مكانهما؟ هذا جيّد.. شكراً».

(١٥)

يوجدُ ما يُقارِب ٣٧ بليون خليّة داخل جِسم كلّ مريضٍ من مرضى خواكين ألداما، لديهِ أيضاً أعدادٌ مُشابهةٌ في جسمهِ، لكنّهُ غالباً ما أهمل التفكير بها. يكفي أن تندسّ خليّةٌ واحدة، واحدة فقط بين البلايين من تلك الخلايا الأخرى لإحداثِ السرطان. نظراً لحجمِ الأعداد الجنونيّ، لم يكن تواجد المرض وانتشاره من وجهةِ نظرهِ أمراً مُثيراً للدهشةِ في هذهِ الأرض المُزدحمة بالمُعمّرين، لكن بالمُقابل، الأمر الذي كان يُثيرُ استغرابهُ حقّاً هو الخروج إلى الشارع ورؤية الكثيرِ من الناسِ الأصحّاء، لأنّ الصحّة، على عكسِ ما يعِظُ بهِ أصحابُ مذهبِ الثرثرة، لم تكن حالةً من السلام والانسجام مع الداخل، بل في الواقع هي انتصارٌ آنيٌّ وعابرٌ على الفوضى، هي ذلك التوازن المُتوتّر كحبلٍ مشدودٍ فوق هاوية الاعتلاج، ذاك الذي يبثّونهُ في إعلاناتٍ مُتلفزةٍ على أنّهُ «صحّة» هو في الحقيقة منطقُ القرنِ الحاليّ، النرجسيّ، وهمٌ دعائيٌّ لبيعِ الڤيتامينات والسلطات والألبسة الرياضيّة، لكن هذي جميعها غير ذات نفعٍ أمام تعبيرِ الجسدِ عن علاقتهِ مع العالم كالأوبئةِ والسِلّ على سبيلِ المِثال في أزمنةٍ أخرى.

لقد كشف السرطانُ المهزلة الهائِلة للتوازن الطبيعيّ؛ فضح ثوب الملكِ المُزيّف، ذاك الذي هو في الحقيقةِ عارٍ ومكلوم. إنّ خلايا جسمِ الإنسان كما الأشخاص، خادِمات طائِعات، لكن أحياناً، خادمةٌ فتيّةٌ وشرِسة واحدة تتمرّدُ على القانون وتنشرُ نفسها وعندما تُصبح سُلالتها جيشاً كامِلاً تتحوّلُ إلى تهديدٍ للإمبراطورية وعندها يتمّ استدعاء الأخصائيين، طبيب الأمراضِ والجرّاح، من أجل اجتثاثِ التمرّد والقضاءِ عليه. كان هناك على سبيلِ المثال بليون من الخلايا تحملُ اسم رامون مارتينيز، من بينها سكنت مجموعةٌ مارِقةٌ في الرئةِ اليُسرى وتوجّب القيامُ بعمليةِ الاستئصال أو الحقنِ الوريديّ الدوريّ كلّ ما مدته أسبوعين مع جرعاتٍ علاجيّةٍ مُضاعفة.

لقد حان الوقت، فكّر ألداما، للبدءِ بالعلاجِ الكيميائي والأشعّة بشكلٍ يوميّ وِفق البروتوكول التجريبيّ. أحزنتهُ فكرةُ اضطراره للّجوء إلى علاجٍ على هذا القدر من التركيز والحِدّة، لكنّهُ لم يملِك خياراً آخرَ. حياةُ رامون مُهدّدة وكذلك بحثهُ الواعِد، جينات المريضِ يُمكنُ لها أن تتحوّل إلى «حجر رشيد» طبّ الأورام ومفتاح فكّ الشيفرة اللغويّة للسرطان ومنطِقه الداخليّ. في البقعتين السرطانيّتين الرئويّتين اكتشفوا في مختبرِ المعهد حُدوث طفرةٍ غير مسبوقةٍ في جين FOXO1[1] المسؤول عن الساركوما العضليّة المُخطّطة[2].

---

(١) جين forkhead box /FOXO1 هو بروتين مسؤول عن تنظيم التعبير عن الجينات المُشارِكة في نموّ الخلايا والانتشار والتمايز وطول العمر. العديد من خلايا FOX مُهمّة للتنمية الجينيّة وربطِ الكروماتين المُكثّف خلال عمليّات تمايز الخليّة.

(٢) الساركوما العضليّة المُخطّطة: شكل من أشكال السرطان سريع النموّ يتطوّر من الخلايا العضليّة الهيكليّة التي فشلت في التشكّل التام.

عادةً يعملُ هذا الجين، بين مهامٍ أُخرى يقومُ بها، على تنظيمِ التعبيرِ لدى الجينات المُشارِكة في نموّ خلايا الأنسجةِ الدهنيّةِ وأيضاً كقامِعٍ للأورام. ألداما كان يشكّ بأنّ هذا الخلل الجينيّ الذي طرأ على بروتين FOXO1 كان مسؤولاً بشكلٍ ما عن السمنةِ في عائلةِ مارتينيز، كما عن التكوينِ الغامِضِ لذلك الورم الطفوليّ. إنّ مثل هذا الاكتشاف يستحقّ مركزاً مرموقاً في أغلفةِ المجلّات العالميّة، كيف نُعنونِهُ يا ترى؟

طفرات الجين FOXO1؟

FOXO1 Mutations: A Common Link between Obesity and Rhabdomiosarcoma[1]

طفرات الجين FOXO1: صلةُ وصلٍ مُحتملة بين السمنة والساركوما العضليّة المخطّطة في الأصوات اللثويّة أو الصوامت؟

عليهِ أن يُفكّر بعنوانٍ أكثر اختصاراً وتأثيراً، ربّما: *السمنة والسرطان: رابط جينيّ؟* كان على يقينٍ بأنّ هذا الإعلان سيلقى أصداء مذهلة في أوساط الإعلامِ المكسيكيّ، مُرفقاً بعناوين رئيسيّة بخطٍّ كبير: أطبّاء مكسيكيون يكتشفون سبب السرطان داخل الجين المسؤولِ عن السمنة، أو، الشحوم والأورام.. علاقة سريّة!

---

(١) مقال نُشِر حديثاً في (National Library of Medicine)، يتحدّث عن الجين FOXOs وعلاقته بمرض السرطان بعنوان (Re-evaluating the role of foxos in cancer). (كما جاء في ردّهِ عن سؤالي لهُ عن الدراسة أو الأصلِ العلميّ لنظريّته الخاصّة الواردة في النص. (المُترجِمة).

مدفوعاً بتوقّعاتِه العظيمة أرسل ألداما رسالةً عبر الإيميل إلى أشهرِ طبيبِ أورامٍ في البلد يدعوه فيها للاشتراك في مشروعِهِ المُشترك مع لويس راميريز، «نحنُ على ثقةٍ تامّة أنّ لهذا النوع من الأورامِ السرطانيّة علاقة بطريقةِ تصرّفِ عامِلٍ مُحدّد من عوامِل النموّ في فئةِ الأنسولين». بعد أن عرض في رسالتِهِ مراحل تحليل العيّنة الجينيّة لعدّة سلالات، خلص بطريقةٍ لا تدعو للشكّ إلى أنّه «لم يسبِق لهُ أن صادف حالةً أثارت اهتمامهُ إلى هذا الحدّ.. وأعتقدُ بأنّهُ من الجديرِ أن نُخصّص لهُ بحثاً عاليَ المستوى من قِبلِ العلماء أمثال حضرتك».

ألداما كان على عِلمٍ بالأقاويل التي انتشرت في ممّرات المعهدِ الوطنيّ لأبحاثِ السرطان، أنّ اندفاعهُ ذاك هو نتيجةُ متلازمةِ الزهايمر وأنّهُ يُعوّضُ غياب العشيقة بالبحثِ عن جائزةِ نوبل وأنّهُ الدكتور دون كيخوته مع مساعدهِ الطبيب الشرعيّ سانشو الذي يُمسك -عبر فرضيّاتِهِ الركيكة- بعلمِ الجينات من ذنبِه! لكنّ الأقاويل لم تكن تهمّه. فكّر لو أنّ الحسد كان ڤايروساً سيكونُ بلا شكّ هو ڤايروس الهربس (الحلأ) فهو شائع وانتهازيّ قاتل للضعفاء لكنّهُ لا يضرّ الأقوياء.

(١٦)

شعرت باولينا بأنّها الوحيدة من بينِ أفرادِ أسرتها التي استشعرت خطورة خبرِ وجودِ بقعٍ سرطانيّة في رئةِ والدها، حسب ما قالتهُ أمّها فإنّ الطبيب قد تصرّف في الوقتِ المُناسب لكنّها لم تُصدّق ذلك، مواقعُ الأنترنت التي دخلتها كافةً تُظهِر أنّ الحالات التي شُخِّص بِها سرطان الساركوما، مترافقاً مع هجرةٍ للخلايا السرطانيّة من عضوٍ لآخر؛ سلبيّة للغاية. أسِفت لعدمِ تمكّنها من مرافقةِ والِدها إلى المُعاينات لكي تواجه الطبيب بالأسئلةِ التي لم تستطع والدتها الإجابة عنها. الشكّ شبيهٌ إلى حدٍّ كبيرٍ بالجوع إذ قادها إلى تناولِ الطعام بِشراهةٍ وما كان يخسرهُ والِدها من أرطالٍ كانت تكسبها هي بالمُقابِل. حاول أصدقاؤها إقناعها باستبدالِ حلوى المرينغي بالجزرِ والشوكولا بفاكهة هيكاما لكن تلك الأطعمة الخفيفة والغنيّة بالألياف لم تكن كافيةً لتهدئة التوتّر الذي كان يعتصِرها. أمّا بقيّة رفاقها ممّن يجهلون هُمومها العائليّة فلم يستغرقوا وقتاً طويلاً في تحويلها إلى هدفٍ لسخريّتهم. هم أنفسهم

من كانت سخريتهم حتى ذلك الحين تتركّزُ على جينارو الذي لقّبوه بـالخنزير الشجاع.

علاجُ باولينا ضدّ إدمانِ الطعام جاء بفعلِ حادثٍ مدرسيّ، فذات يوم، تملّكتها شهوة مُلحّة للكاربوهيدرات خلال حصّة درس الرياضيات التي كان يُقدّمها مُدرِّسٌ أخرق كانوا يُلقّبونهُ «ڤيلوسيدابتور» أي (خاطف السرعة) بسببِ طريقتهِ في المشي فارِداً ذراعيه وماطّاً رأسهُ إلى الأمام.

ذلك الصباح كانت باولينا قد نسِيت أن تملأ حقيبتها بالحلوى، لذلك لم يكن بِحوزتها ما يصلحُ لتفريغِ توتّرها إلى حينِ خُروجِها من الحِصّة فتشتري طبقا من التشيلاكيليز chilaqiles من الكافيتريا. كانت تتخيّلُ التناغم المجيد للخبزِ والتورتيلا المُقرمشة والصلصة مع الدجاجِ والكريما، تُراقِبُ الساعة مِراراً بينما كان الأستاذُ خاطف السرعة يُثرثِر حول الزوايا المُنفرِجة أمام السبّورة. خطّطت أن تختم الـLunch بقطعةِ «مافِن» بالشوكولا ومصّاصة بطعمِ حلوى التشيلي الحار. قرّرت أنّهُ من الحِكمة أن تُخبّئ نصف كعكةِ مافِن إلى موعدِ الانصراف، بهذهِ الطريقة لن يعود الجوع لتعذيبها خلال المسافةِ الطويلةِ التي ستقضيها في حافلةِ المدرسةِ قبل وُصولِها إلى البيت، حيثُ ستكونُ إلوديا قد جهّزت الطعام.

قبل انتهاءِ الدرس بخمسِ دقائِق أخرجت باولينا من حقيبتها المبلغ اللازم بالتحديد لشراءِ التورتيلا والحلوى، كانت تُريدُ الخروج من القاعةِ فور انتهاءِ الحِصّة لتجنّبِ الانتظار في طابورِ الطلّاب

الطويل على بابِ الكافيتريا. أحكمت قبضة يدها اليُسرى على النقود، ثمّ دوّنت الوظيفة المنزليّة في دفترها وهمّت بِدسِّ أغراضها في الحقيبة. عندما دقّ جرسُ الانصراف حاولت باولينا النهوض بحركةٍ واحدةٍ لكنّ خطأ ما في تقديرِ أبعادِها تسبّب بأن تعلق في المقعد ثم أن تفقِد توازنها وأن تتهاوى على أرضيّة الممرّ. وقع مِقعدها فوقها وارتطم أحد دفاتِرها برأسِها وانفرطت علبةُ أقلامِها على الأرض وتدحرجت الأقلام في جميعِ الاتّجاهات تحت المقاعِد.

«ماذا يحدثُ هناك في الخلفِ يا شباب؟» سأل الأُستاذُ خاطِف السرعة بينما تعالى كورالٌ من الضحكِ مُحتفِلاً بالموقِف.

حاولت باولينا أن تُساعِد نفسها على النهوض لكنّ ذلك لم يكن ممكناً بوجودِ اليدِ غير الفاعلة بسببِ النقود التي قبضت عليها والثمانية عشر كيلو غراماً من الوزنِ الزائد. أيضاً المِقعد المُستقرّ فوق ظهرِها.

جينارو استعرض شجاعتهُ المزعومة ووصل لإنقاذِها قبل أن تتمكّن ليونورا –صديقة باولينا المُقرّبة التي تجلسُ في الجهةِ الأُخرى من الصفّ– من أن تشقّ طريقها تجاهها. كلاهما ساعداها على النهوضِ وجمعِ الأقلامِ والدفاتر المُبعثرة. ظلت ليونورا برفقتِها بعد أن فرغت القاعة من الجميع.

«هل كانت السقطةُ مؤلِمة؟».

«لا... فقط عند الكوعِ قليلاً»، قالت باولينا بينما تلمّست ذراعها.

«أتُريدين الذهاب إلى غرفةِ المُمرّضة؟ أستطيعُ مرافقتك».

«لا، أنا بخير».

«هيا.. دعينا نذهبُ لنأكل شيئاً، الدعوةُ على حسابي»، عرضت ليونورا مواسيةً.

في داخلِ باولينا الغاضِب كان يُعاد عرض الواقعة وتتردّدُ وشوشات الضحكِ المُستهزِئة وكانت على وشكِ أن تنفجِر بالبكاء.

«لستُ جائعة»، أجابتها.

(١٧)

اقتحمت إلوديا الاستوديو وأيقظت رامون بإلحاحٍ من قيلولتهِ اليوميّة.

«سيّدي! أريدُ مساعدتك بشأنِ بينيتو.. لقد خرج من القفص»، قالت مُتوتّرة.

نهض رامون بِسرعةٍ لدرجةِ أنّهُ أُصيب بالدوارِ واضطرّ أن يتعضّد بالكرسيّ لِتجنّبِ السقوط، طلب إليها بالإشارةِ أن تُساعِدهُ على المشي. بيدين متشابكتين كمخطِوبين في الثمانين خرجا بعجالة ووجدا بينيتو مُتمركِزاً على أحد أغصان شجرة المران التي ملأت الحديقة.

«انظروا إليه»، فكّر رامون فخوراً بإنجازِ بينيتو، «لو كُنتُ أعرف بأنّك تملكُ مثل هذهِ العادة لعمّدتك على اسم ذلك المُهرّب.. ماذا كان اسمه؟ التشاڤو.. خواكين التشاڤو غوسمان.. لكن أنت مارتينيز بلا شكّ فقد أصبحت من العائلة».

«هيّا يا بينيتو.. إن نزلت من أعلى سوف أعطيك مكافأة»، صاحت إلوديا، «هل ترغبُ بالطماطم؟ انزل لأعطيك إيّاها».

«اتركيهِ وشأنهِ»، قال رامون في نفسهِ، «سينزِلُ وحده بعد قليل».

بدا على الببّغاء الفرح، كان مُتمركِزاً فوق غصنٍ ثخينٍ ومُتعرّجٍ يُناسِب قبضة إبهامهِ بشكلٍ أفضل بكثير من الحمّالةِ الرفيعةِ في قفصِ الكناري، ذاك الذي أمضى الأيّام بداخله. كما أنّ لون ريشهِ الأخضر الفاتح يتماهى مع لونِ أوراق شجرةِ المران الداكنة بكلّ طبيعيّة.

مُنزعجةً، تمتمت إلوديا بِعبارةٍ فاشيّة: «سأذهبُ لإحضارِ النبريش (خرطوم المياه البلاستيكيّ)، سيرى!».

أوقفها رامون وحثّها على أن تهدأ بحركةٍ باباويّة. «لا تقلق بينيتو.. أنا سأتولى السيطرة على هذهِ العجوز».

«لا تعرفُ مدى الرعب الذي أصابني عندما سمعتهُ يصرخ بتلك الكلماتِ البذيئة ورأيتُ القفص فارغاً».

كان رامون يودّ لو سمِع ما صرخ بهِ بينيتو مُحتفِلاً بهروبِه، في هذه الأثناء كان الطيرُ صامِتاً يتفحصها بِفضول.

«هل أتّصلُ بالإطفائيّة؟»، قالت إيلي.

«لا تتفوّهي بالحماقات»، فكّر رامون مُحرِّكاً رأسهُ من جهةٍ إلى أُخرى بصيغةِ الرفض ثمّ أشار إلى المطبخِ وتصنّع رغبتهُ بتناولِ عصيرِ الفواكه.

«أتريدُ طماطمَ؟».

«هذا بالضبط ما أريده، أحضِريه مُقطّعاً»، فكّر رامون وراح يُمثّلهُ لها عبر الإِشارة.

إلوديا اتّبعت التعليمات حرفيّاً وعادت بصحنٍ من الطماطم المُحزّز وعرضتهُ على بينيتو رافعةً إيّاهُ تجاه الشجرة بكلتا يديها كما لو كانت قسّاً من شعب الآزتيك[1] يُقدّمُ قلبه أضحيةً للآلهة. تفحّص بينيتو الطماطم بِتوجّسٍ لكنّهُ لم يتزحزح عن الغصن. رامون اقترب من إلوديا وطلب منها أن تُعطيه الطماطم، ثمّ طلب إليها أن تدعهُ على انفرادٍ مع الببّغاء. لمّا انصرفت من الحديقةِ ذهب رامون ليجلس إلى جانبِ القفصِ الذي فُتِح بابه. لن أضغط عليك، من البديهيّ أنّك ستُحاوِل الخروج من هذا القفص الصغير، كنت بلا شكّ تدرس التكنيك وتتدرّب عليه، لك منّي كلّ الاحترام. كما أنّ لك كامل الحقّ في البقاءِ في الأعلى، لكنّني أُحذّرك؛ هذا لن يكون سهلاً البتّة! في هذهِ الأدغال كثيرٌ من القِطط، يوماً ما إن غفِلت سوف تلتهمك دون شفقة، كُن حذِراً! شيء آخر، البرد، ليس لديك فكرة كم تنخفضُ درجاتُ الحرارةِ هُنا خارجاً وأنت الذي تنتمي إلى القفصِ لن تتحمّل، ها أنا أُخبِرك كي تُدهش لاحقاً. خُذ بعينِ الاعتبار أيضاً أنّهم على وشكٍ أن يُحضِروا لي المال لقاء بيعِ ساعتي الذهبيّة، عندها سوف أشتري لك القفص الذي وعدتك به. بل وأكثر من ذلك، أتريدُ شريكة؟ سوف أُرسِلُ لأشتري لك واحدة، الأجمل والألطف على الإطلاق، ما رأيك؟ انتهِز فرصة أنّي

---

(١) شعب الأزتيك: هُم الشعوب الأصليّة للأمريكتين الجنوبيّة والشماليّة، لغتهم تسمى ناهواتل.

سأحظى بهذا المال، لم يبق الكثيرُ من الوقت، منذُ عدّة أيامٍ كنتُ مكتئباً وهممتُ لأن أُخرِج مُسدّساً.. كنتُ على وشكِ أن أفعلها.. لكنّني تراجعت.

لهذا أقولُ لك التالي: إذا نزلت وتحمّلت البقاء في هذا القفص لمدّة أسبوع كحدّ أقصى.. سترى بعدها.. سيكونُ لديك منزلك الفاخر الخاص مع أنثى لك وحدك. سوف أتفهّمُ بالطبع إن رفضت عرضي، أتظنّني لا أعلمُ ما هو شعورك وأنت محبوس طوال اليوم؟ اسألني أنا عن ذلك! دع هذا جانباً، ماذا عن الجوعِ والدورانِ والأوجاعِ التي تُصيبني والرجفة في أفخاذي؟ يطلبون منّي أن أتحلّى بالصبرِ.. كيف لي أن أفعل إذا كنتُ غير قادرٍ على فعلِ ما أُحبّ؟ إذا كنتُ سأصبحُ عبئاً ثقيلاً على عائلتي؟ أنا مكاني في المحكمة وأن أتولّى فيها المرافعات.. ليس في المنزل!

عندما كنتُ في العشرين في عمري عملتُ سكرتيراً في مكتبِ الأستاذ فيجانويڤا. في أحد الأيّام دعاني إلى تناولِ الطعامِ في مطعمِ بيجين هاوس في الحيّ الورديّ، كانت تلك هي المرّةُ الأولى التي أجلسُ فيها على طاولةٍ عليها مفرش أبيض وفُوط قماشيّة، شعرتُ بأنّني ملِك «أحضروا له طبق تشامورو بلحمِ البقر»، طلب الأستاذ من أحد النُدل. كان طعاماً ملوكيّاً فاخِراً، حالما تحسّنت أحوالي عاودتُ زيارة المطعم للتمتّعِ بمذاقِ وجبةِ تشامورو اللذيذة مرّات عديدة، أمّا الآن فلم يعد بوسعي الذهاب، أتعرفُ ما معنى أن تعيش وأنت على يقينٍ من أنّك لن تتمكّن من تناولِ طبقِ تشامورو في مطعم

بيجين هاوس مُجدّداً؟ حالتي ليس لها حلّ لكنّ الأمر مُختلفٌ بالنسبةِ لك، انظر كم تبدو شهيّةً هذه الطماطم!

مُتجاهِلاً الطماطم الشهيّة قفز بينيتو من غصنٍ إلى آخر حتّى وصل إلى أعلى الشجرة حيثُ صاح بسعادةٍ غامرةٍ «كابرون»، ابتسم رامون ابتسامةً مِلؤها الفخر والحسد والحنين في آنٍ معاً، ناظراً إلى السماء حيث كان بينيتو، تخيّل نفسهُ مكان الطائر يُحلّقُ في ذاك العلوّ الشاهق فشعر بنفسهِ تافِهاً وضئيلاً ضمن المشهد وبالِغ الصغرِ أمام تكاليف الأطبّاء والأدوية وحجمِ ما يتكبّدهُ من عناءٍ وألم، شعر أنّهُ أكثر خفّة حتّى من نفسِه. بعدها بدأ يتخيّلُ المشهد الذي يُمكن لبينيتو أن يراهُ من الأعلى، غابة من خزّانات المياه، هوائيّات وأبنية مُحاطة بغيومٍ من الغُبار، البخار الأسود الذي يدعونه ضبخان (ضبابٌ ودُخان).. اسمٌ بشعٌ بلا شكّ تماماً كهيئته والذي تسبّب بحرمان المدينةِ من أجمل مناظِرها على الإطلاق، جبال بوبوكاتيبتل استاكسيواتل البركانيّة[1]، المرأةُ النائمة والعجوزُ الذي يُدخّنُ غليونه، الشريكان اللذان كانا يملآن الأفق بالطاقة الجِنسيّة.

---

(١) بوبوكايتبتل واستاكسيواتل أسطورةٌ مكسيكيّة تحكي قصّة المُحارِب بوبوكايبتل الموعود بالزواج من الأميرة استاكسيواتل إذا ما عاد ورأسُ عدوّ والِدها في يده، لكنّ خبراً كاذباً وصل إلى الملكِ والأميرة مفادهُ أنّ المُحارِب استاكسيواتل قد قُتِل في المعركة، فأصابها الحزن وماتت كسيرة القلب، لكن المُحارِب لم يمت وعاد فعلِم بمأساةِ الأميرة وحمل جسدها إلى الجبلِ وصنع لها سريراً من الزهور وأشعل جسدها ثمّ حوّلت الآلهة الجسدين إلى جبلين مُتجاوِرين تثور حِممها بشكلٍ دائم. في ما بعد أُطلِق على أحدهما المرأة النائمة وعلى الآخر العجوز الذي يُدخّن غليونه بسبب الدخان المنبعثِ بشكلٍ دائمٍ منه (وبسبب شكله الذي يبدو تماماً كذلك في الصورِ المُلتقطة).

عندما كان رامون طفلاً حلُم مرّات عدّة بالصعودِ إلى البركان ولمسِ الثلجِ الذي يعلوه والإطلال على فوّهةِ بركان بوبو (اختصاراً لِبوبوكاتيبتل) والتحديق في جوفِ الأرض برتقاليّ اللون. رامون كان قد خسِر مشهد البراكين كما خسِر براءته دون حتّى أن يلحظ ذلك منذ سنواتٍ عدّة خلت.

هبّت رِياحٌ قويّة هزّت أغصان شجرةِ المران، ما هي إلّا لحظات حتّى سُمِع صوتُ دبيبٍ مكتومٍ بين شُجيرات الحديقة، كان ذلك بينيتو، لقد سقط من على الشجرة. قفز رامون من كرسيه وانقضّ مُسرِعاً للإمساكِ به مُستخدماً الجزء الأماميّ من البونشو الذي يلبسه، ما أن عاد بينيتو إلى قفصهِ حتّى كان أوّل ما فعلهُ هو الإجهاز على الطماطم بأقصى ما استطاع. لقد أمضى ساعاتٍ دون أن يتذوّق شيئاً. ومن أجلِ تجنّبِ مُحاولات هروبٍ مُستقبليّة قام رامون بإحكامِ قفلِ بابِ القفصِ بِسلكٍ معدنيّ. «خلال أقلّ من أسبوع»، وعد رامونُ الببّغاءَ، «سأشتري لك قفصاً جديداً!».

(١٨)

«اليوم ليس لي مزاج للحديث»، قالت تيريزا في بِداية جلستِها مع المُحلّلةِ النفسيّة.

«ولماذا؟».

«أنا مُتعبة.. لكن.. ليس هذا هُو السبب، في طريقي إلى هُنا فكّرتُ بأنّهُ ربّما كانت جلستان أسبوعيّاً أكثر ممّا يجب»، أخذت فاصِلاً لتستجمِع ذاكرتها، «لم تعد حالتي كما كانت عليهِ عندما كنتُ أتردّدُ إلى عيادةِ روفاتو من يوم الإثنين وحتّى الخميس. خوان لويس روفاتو كان طبيباً نفسيّاً أرجنتينيّاً منفيّاً، ومعروفاً بِسعةِ اطّلاعهِ وحلقات علاج الدفاعاتِ الذُهانيّة التي أشرف على تنظيمها في مالينالكو، في تلك الفترة احتجتُ إلى التحدّثِ لساعاتٍ طويلةٍ وإخراج كلّ شيء وفهمِ ما اقترفتُه وإدراكِ ذاك الثقب الأسود بين السرطان والطلاق، كان قاسِياً للغاية عندما أيقنت.. بعد الجهد الكبير الذي بذلتُه.. أنّ الكلام لم يكن ينفعُ على الإطلاق».

«حسناً»، قاطعتها المُحلِّلة، «باعتقادي أنّ شخصيّة روفاتو وما أرادهُ من العلاقةِ معكِ كان لهُ تأثير كبير..».

«أجل، لكنّني في تلك الفترة كنتُ بحاجةٍ إلى تحليلٍ نفسيّ تقليديّ ومع الأسف خرجتُ منهُ مُتضرّرة. عندما عرضتِ عليّ أن نُتابع الجلسات ليومين أسبوعيّاً تردّدتُ، لكن لاحقاً قلتُ لنفسي: حسناً هي ليست مُعالِجتي النفسيّة وحسب بل أيضاً مُشرِفتي كذلك وهنالك ما يجب العمل عليه، وقد أتى الأمر بمفعوله، نحن سويّةً منذ..».

«كم؟.. سبع سنوات؟ أليس كذلك؟»، قالت المُعالِجة.

لقد تطوّرتُ كثيراً كطبيبةٍ نفسيّة، ويعودُ الفضلُ في ذلك إلى دعمكِ بكلّ تأكيد، يوماً بعد يوم كانت ثقتي تزداد بنفسي في ما يخصّ تعاملي مع مرضاي باستثناءِ حالاتٍ تعرفينها. أعتقدُ بأنّ الإشراف قد أفادني من أجلِ تخطّي نقصِ ثِقتي بِنفسي كمُعالِجةٍ نفسيّة، لكن بتحليلي الشخصيّ أعتقدُ بأنّني.. لا أعلم.. أعتقدُ بأنّني في نهايةِ المطاف أمضيتُ ثلاثين عاماً من عمري على كرسيّ العلاج، مع أنّني تصالحتُ مع نفسي ومع فكرةِ العيشِ وحيدةً أو ربّما لا.. على كلّ الأحوال ما زلتُ غير راضية، ألن يأتي الوقت الذي سوف تتحوّلُ فيهِ هذه المُحاضرة إلى وهم؟».

«كاملُ السِجلّ الرمزيّ للمريض يُمكِن أن يبدو وهماً!».

«تماماً!»، عقّبت تيريزا، «أحياناً أودّ لو أنّني أعيشُ أكثر في المُتخيّل، أن أجِد نفسي في صورِ شخصيّاتِ أناسٍ آخرين وأن أتعرّف عليهم وأن أسمعهم».

«ألا تعرفين مرضاكِ؟ لا تسمعينهم؟».

«لا، لا أفعل، هذا ما يحزنني. أنا طوال الوقت، خلال الجلسة، أبذلُ جهداً في ترجمةِ الرسائلِ الكامنة وربطِ ما يقولهُ لي المريض مع ما قالهُ لي في السابق من جهة، ومعِ ما يراهُ فرويد مِن جهةٍ أُخرى في كتابهِ الفلاني أو مع دراسةٍ أعملُ عليها على سبيلِ المِثال. بمعنى أنّ ما أقومُ بهِ مع المرضى هو التحليلُ لكن ليس الاستماع. بالطبع أنا أسمعهم لكن بشكلٍ مُشتّتٍ وخاطِف كما لو كنتُ طوال الوقت أقومُ بمقاطعتِهم داخل رأسي، الأمر ذاتهُ يحدُث لي عندما أكونُ وحدي، لستُ قادرةً على العيشِ بحالةِ سلامٍ مع نفسي إلّا عِندما أتعاطى الماريغوانا، لكن في أيّ وقتٍ آخر غير ذلك أنا دائمةُ التحليل، لهذا بالطبع علاقةٌ بِجلستِنا هذه».

«منذ متى ينتابكِ هذا الإِحساس؟».

«كنتُ أفكّرُ بالأمر.. أعتقدُ منذُ أن بدأتُ بِمُعاينِة رامون، المريض الذي فقد لسانه، إنّهُ لِمن المُدهِش رؤية كيف أنّ رجلاً مُنفتحاً وقويّاً ومزهوّاً بنفسهِ فجأةً أصبح لا شيء.. كان الصمت قد حوّلهُ إلى شخصٍ آخر تماماً. سألتُهُ إِن كان يشعرُ بالعِضوِ الغائب لكنّهُ نفى ذلك، ما كان يشتكي منهُ هو انعدامُ الراحةِ وحسب. إنّهُ نموذجٌ للشخصيّة البطرِيركيّة؛ الحياة بالنسبةِ إليهِ تحكُّم، كِفاحٌ ورخاء، إمّا تغلّب أو مُتعة، لا يعي بأنّهُ جسدٌ موجوعٌ ومريض، فجأةً لم يعد يعرف من يكون، بين الحينِ والآخر يخوض تجارب الخروجِ عن الجسد؛ يحلم مثلاً بأنّهُ يطفو ثمّ يصطدمُ بالسقف ويرى رأسهُ

يتدحرج في الأسفلِ وجسده مُمدّداً ينامُ وحده ويخشى أن يصحو من غيبوبتهِ فيدقّ عنقه عند السقوط. صار الجسدُ آخرَ. أُفكّرُ أحياناً بأنّه ربّما من أجلِ هذا وُجِدت نذورُ الصمت الرهبانيّة، البُوذيّون والنساك ورهبان الكارثوسيان. الصمتُ يفصلك عن الجسد، يا لها من مُفارقةٍ أليس كذلك؟ بأن يكون الكلام، غير المرئيّ هو تحديداً ما يصلنا بالجسد، أليس هذا صحيحاً؟ منذ أيّام وخلال جلسةِ العِلاج بدأ يكتبُ حول تلوّثِ الهواء IMECA (مؤشّر جودة الهواء في العاصمة) وطبقةِ الأوزون، إنّه مهووس بدرجةِ تلوّث الهواءِ في المدينة، يوميّاً يطلب من ابنتهِ أن تدخُل إلى الموقعِ الحكوميّ على شبكةِ الأنترنت ليتفقّد حالة الهواء. يخطرُ لي بأنّها كانت طريقته للتعايُش معها. ابنته كانت تُحاول أن تُعلّمه كيفيّة استخدام الأنترنت، لكنّه لا يُريد، أعتقدُ بأنّهُ يربط بين التكنولوجيا وعمليّة تقادم موتهِ بذاتها».

«كيف تربطين بين تلك الرغبة المُستحوِذة عليهِ وبين هذا الذي تعيشينه؟»، سألت المُحلّلة كي تتجنّب أن تسهو تيريزا عن نفسها.

«حسناً، أعتقدُ بأنّ هذا الصمت الذي يعيشه وعمليّة ثقبِ القصبةِ الهوائيّة التي خضع لها وما عثروا عليهِ مُؤخّراً في رئتيهِ مِن بُقعٍ سرطانية جديدة، لكلّ ذلك علاقة بِما أمرّ به. الخبر السيّئ المُتعلّق بانتقالِ الورم إلى الرئتين لم يبدُ وكأنّه أحدث أيّ أثر لديه على مستوى الوعي، هناك احتمالٌ بأنّه يُخفيه أو يُؤجّله عبر الانشغال عنه بأمرِ التركة، لكن أيضاً هناك أمرٌ آخر، وهو أنّهُ ربّما لم يعد يشعرُ بأنّ جسدهُ يُعبّرُ عنه، لذلك لم يعد يهتمّ. لم تظهر لديهِ أيّة ردّة فعل على المستوى العاطفيّ على الإطلاق».

«أتجدين نفسك في هذا الذي يعيشه؟».

«ماذا؟»، سألت تيريزا.

«أقصدُ علاقتك بالجسد!».

«لا أعتقد، لا أعرف، أو أنّني ربّما أجدُ نفسي في حالتِهِ على الأرجح لأنّه غير قادرٍ على الكلام فأنا أتكلّم أكثر بكثيرٍ من المعتاد لدرجة أنّي شاركتهُ بتفاصيل شخصيّة حول رحلةِ العلاجِ الذي تلقيّته وكيف أنّي خبرتُ العلاج الكيميائيّ وتساقُطِ الشعر والإحراجات وإلى آخره. في نفسِ الوقت لاحظتُ بأنّه لا يُعرِّف عن نفسهِ معي كمريض على الرغم من أنّه يتلقّى علاجاتٍ كيميائية فظيعة، يبدو لي بأنّه لا يعترف بأنّ هذه الأشياء تحدُث له، مع أنّها تتسبّب لهُ بالألم بالطبع، إنّه يُعاني معاناة جمّة».

«أنتِ تجدين نفسك في ما يُعانيه لكن بالمقابل هو لا..».

«أعتقدُ بأنّي أجدُ نفسي في حالتِهِ، لأننا وخلال جلسات العلاج الخاصة به نُصبح معاً مرضى ولِكوني أنا أيضاً سعيتُ في الماضي إلى هذا الانفصال الذي يشعر بِهِ هو الآن.. عن السرطان. المرض لا يعنيهِ على الإطلاق، لا يقولُ له شيئاً، إنّه يعتبره مُجرّد حادثٍ كما نزلة البرد، من هذهِ الزاوية أجدهُ تصرّفاً سلبياً للغاية، تخيّلي لو أنّك تُعذّبين نفسك بالسؤال عن السوء الذي ارتكبتِهِ وأيّ العواطف قُمتِ بكبتِها وكلّ ذلك بِرمّته؟ أعتقدُ بأنّ فقدانه للّسان، أيضاً، لكونه ليس مُتديّناً، حال ذلك دون إمكانيّة تحديدهِ للتعريفِ الكائن بين العقلِ والجسد والذي يتسبّب بألمٍ كبير، أنا نفسي عانيتُ الكثير بفعله، على

الرغم من أنّ حالتي نتجت عن عاملٍ وراثيّ واحتمال الإصابة كان حاضِراً بشكلٍ دائم، لكن ورغم ذلك، انتابني شعورٌ بأنّه كان ذنبي وخطأ منّي، بالمُقابل لم يشعُر هو بذلك، إذ أنّ البتر الذي تعرّض له كان سبباً في انحسارِ تلك الخيالاتِ النرجسيّة كافةً والتي تصِلُ الأنا بالجسد. أمّا في حالتي فالعكس تماماً: عندما استأصلوا لي الثديينِ عانيت من فقدانٍ تامّ للأنا وها قد مرّت سنوات عديدة ومازلتُ لا..».

صمتت تيريزا مُعتقدةً بأنّ مُعالجتها سوف تُنهي الجلسة عند هذه النقطة لكنّها كانت مخطِئة..

«أسمعكِ تتحدّثين عنهُ كما لو كان حكيماً مُستنيراً، لكن، في نفسِ الوقت، كرجلٍ يرتجِفُ خوفاً. هنالك أمر لا أجد لهُ تفسيراً؛ ألّا يُمكن أن يكون صمته قد أغراكِ بطريقةٍ ما وحال دون أن تشعري بالإحباطِ ممّا كان يمكنُ لهُ أن يقوله؟ عندما يصمت المرء يبدو وكأنّهُ لا يُجرّب المُتعة المُفرطة التي تُعذّبنا، تلك الأنا الأُخرى الكامِلة التي تُعيق تحديد الهويّة، بل أكثر فلهذا السبب بالتحديد يُفترضُ بنا نحن «اللاكانيّين» ألّا نتحدّث خلال الجلسات. ما يهمني الآن هو أن نُعالج سويّة، بصفتِنا معالجتين نفسيّتين مُتمرّستين، هواجسك حول وقفِ جلساتِ العِلاج، من كلا الجهتين، يبدو لي أن اضطّراركِ إلى الكلام بكثرة خلال الجلسة الخاصّة بهذا المريض أعادكِ إلى الإيمان بوعودِ الرغبة، كما يُتيحُ لكِ الصمت ترتيب اللقاء عبر الفراغِ الذي يفرِضه».

«أعتقدُ بأنّ هذا كلّه لن يفلح»، شدّدت تيريزا على ضميرِ الجمعِ لتجعل من هدفِ كلامِها أكثر غموضاً، «التحليلُ النفسيّ هو جزء من الحاجةِ إلى تحويلِ ما هو موجود في اللاوعي إلى حالةٍ لفظيّة، من أجلِ إبطالِ مفعولِ الكِناية لتلك الرغبات صعبة التحقّق، لكن، وِفق ما أراه، بإمكانِنا ببساطةٍ أن نسلك طريقاً مُختصراً لإنقاذِ هذا الفراغ باتّباع طريقةِ التشذيب، تشذيبٍ مع الحاجةِ إلى الإبقاءِ على الدردشة والتي نعي تماماً بأنّها بمفردها ليست كافية لتُنقذنا ممّا هو واقعيّ».

بأن تتحدّى فعاليّة هذه النظريّة والتي هي حجر الأساسِ لعملِها كانت تيريزا قد حشرت معالِجتها في الزاوية فجاءت إجابةُ هذي الأخيرة صريحةً وحاسِمةً:

«بالتالي، لماذا تُتابعين مُعاينة المريض إن لم يكن بحاجةٍ إلى علاجٍ نفسيّ؟ ألا تعتقدين بأنّهُ يُمكن لكِ في هذهِ الحالة أن تُساهمي في تقويضِ علاجِهِ كما حدث خلال مرّاتٍ سابِقة؟».

قصدَت في كلامها النسخة الكارِهة والنافِرة من الرجال التي طوّرتها تيريزا منذُ عمليّةِ استئصالِ الثديِن التي خضعت لها. حسب ما اكتشفتهُ مُحلِّلتها النفسيّة فإنّ هذا الكره بمثابة تكنيكٍ دفاعيّ من أجل تجنّب -وبطريقةٍ مُسبقة- أن يقوم رجلٌ ما بِرفضِ جسدها غير الكامل.

تيريزا كانت قد أبعدت أو استثنت الرجال من نطاقِ رغبتِها الجنسيّة (الليبيدو)، وكذلك قاومت قبول هذا التشخيص لحالتِها

والذي يقولُ وفقاً للتوضيح الفرويديّ الكلاسيكيّ: عندما تنتفي احتمالات أن تكون المرأةُ أُمّاً فإنّ الرجل -ذلك المُتزيّن تباهِياً بالقضيب- يفقدُ كامل قيمته. لسوءِ الحظّ أنّ مشاعرها كأُمٍّ تجاه إدواردو لم تكن تندرجُ تحت هذهِ النظريّة. رغم ذلك تيريزا لم تتقبّل يوماً بشكلٍ كاملٍ بأنّ الصعوبة التي تعترضها مع المرضى من الذكور ترجعُ إلى آليّة دفاعٍ نفسيّة. هناك احتماليّةٌ أخرى، الأبسط؛ أنّ المرضى الرجال كانوا حالات أكثر صعوبة للعلاج وذلك بسببِ آليّاتهم الدفاعيّة الذكوريّة المُتشدّدة ضدّ الانفتاحِ العاطفيّ تجاه امرأة، فالرجال لم يسبق لهم أن بكوا أو قبلوا أنّ امرأة يُمكن لها أن تتبوّأ مكانةً عُليا في الهيكلِ الهرميّ للسُّلطة أعلى من مكانتهم.. ولا حتّى في اللحظات الأكثر خصوصيّة خلال جلساتِ العلاجِ النفسيّ.

«تجربتي مع رامون مُختلفة تماماً عن تجاربي مع بقيّة المرضى هذه الفترة، لا يتعلّقُ الأمر بكونهِ رجلاً مُتعصّباً لرجولتهِ أو عاجِزاً عن التعبير عن مشاعره، إنّهُ كذلك بالفعل، هذا مِمّا لا شكّ فيه.. لكن مشاعرهُ في الواقع تمتازُ بالسطحيّة، ليست لها علاقة كبيرة بتهديدِ مرضِ السرطان على قدرِ علاقتها بإشكاليّةٍ أخلاقيّةٍ قاسية أو بالحزنِ الذي أصابهُ على الشخصِ الذي كانهُ في السابق. ما زلتُ أُعاينه لأنّهُ مع أنّهُ يبدو مستنيراً حكيماً»، أضافت تيريزا بنبرةٍ مُتأثرة، «لديهِ مُشكلة خطيرة، لكن ليست مع السرطان بل مع دافعِ الموتِ بحدّ ذاته، عندما تُفقدُ أدوات النطاق الجنسيّ (الليبيدو) وفي حالتهِ (الكلمة والنجاح المهني) فإنّ حافِز الموت يمكن أن ينقلب ضدّ الأنا، أظنّ أنّ هذا بالتحديد ما يحدثُ هنا. هو هادئ ومُطمئنّ لأنّه

يعلم بأنّه في اللحظةِ التي يُقرّرها سوف يقتل نفسه، أنا أريدُ أن أحول دون حدوث ذلك، لهذا أُتابع معاينتهُ حتّى الآن وليس لأنّ الأمر يروق لي!».

في سبيل التخفيفِ من العدائيّة التي سرت بين الطبيبتين غيّرت المُعالِجة الموضوع.

«كيف كانت طريقة تعاونك معهُ فيما يخصّ الماريغوانا؟».

قبِلت تيريزا بالهدنة.

«عرضتُ عليهِ الأمر بكلّ تهذيب ولكنّه لم يُعِر الأمر أيّ اهتمام، يعودُ ذلك إلى خوفهِ من الأحكام المُسبقة من جهة، ومن جهةٍ أُخرى فإنّ النزيف وآلام المعدة والاضطرابات والأوجاع كافّة التي يُعاني منها تُتيح لهُ إبقاء أمرِ إيفاء الدين لشقيقه مُعلّقاً. إنّه ينظر إلى معاناته الخاصّة كتعويضٍ يُحرّره من الالتزام الأخلاقيّ لدفعِ المال، هو إن لم يُقدِم على الانتحار حتّى الآن فلِكونهِ لم يُتمّ كامل حصّته من العذابِ الجسديّ بعدُ كي يتوقّف تأنيبُ الضمير الذي يتملّكه بسببِ ما يعتبره في أعماقِهِ عمليّة نصبٍ واحتيال. لهذا السبب هو مُستسلمٌ للعِقاب، لا يُقاوِمه، شكراً لله أنّهُ لا يملكُ المال ليدفع لشقيقهِ وإلّا لكان قد قتل نفسه منذ مدّة طويلة».

«كيف ستدخُل الماريغوانا في هذهِ الخطّة؟».

«البُقع السرطانيّة انتشرت في رئتيهِ ويُمكن للماريغوانا أن تُخفّف عنهُ الكثير إن كان في تسكينِ الألمِ أو في إزالةِ تلك البُقع، أعرِفُ أنّكِ

تظنّين أنّني أهذي حول الأمر، لكنّهُ يُساعد في الشفاء فِعلاً صدّقيني، لم أفقِد عقلي بعد».

«لو اعتقدتُ بأنّكِ مجنونة فإنّني بهذِهِ الحالة أخونُ أفكاري جميعها حول النفسِ البشريّة»، أجابت المُحلّلةُ بنبرةٍ صديقة.

«أعلمُ ذلك، لا تكترثي بما قُلتُه، هذا فقط لأنّي أشعرُ باليأسِ من هذا المُجتمع المُغالي في زيفه».

«لهذا السبب بالتحديد أنتِ لستِ مجنونة»، قالت المُعالجة مازِحة، «لقد ابتعدنا قليلاً عن موضوعٍ مُهمّ، كنتِ تُفكّرين بالقدومِ مرّة واحدة فقط أسبوعيّاً، هل في ذهنكِ كذلك أن تُعايني مريضاً واحداً أسبوعيّاً؟ حسب ما فهمتهُ منك أنّك مشغولة جدّاً هذهِ الأيّام».

«لقد منعتني أناي العُليا من فعل ذلك. ليس من السهل على المرضى، إذا ما بحثوا عن معالِجةٍ أُخرى، أن يعثروا على من تفهمهُم مِثلي، هذا ما يقولونهُ هُم أنفسهم عن تجربتهم معي».

«بإمكانِك دعوتهم إلى جلساتِ الدعم التي تُنظّمينها مع إلغاء مواعيدِ يومِ السبت على سبيلِ المِثال!».

تيريزا فكّرت بإدواردو، لم يكن بِوسعِ والدته إحضاره إلى حلقة العلاج سوى يوم السبت وهي لا تُريد أن تتخلّى عنه، ربّما من الأفضل أن تُحوّلهُ إلى معالجٍ نفسيّ آخر، يُمكن أن يكون روفاتو مثلاً، هو رجلٌ واسِعُ الاطّلاع، من المُحتملِ أن يتمكّن إدواردو حينئذٍ من أن يتّخذهُ كصورةٍ للسُّلطة التي يبحثُ عنها.

«لا أعلم»، أجابت بعد لحظاتِ صمتٍ طويلة، «أُفضِّلُ العطلة، منذ سنواتٍ لم أذهب في إجازة، لكن من سيسقي زرعي؟ في الواقع تلك النباتات تحتاج عنايةً أكثر ممّا يحتاجهُ زوج». تصنّعت المُحلّلةُ ابتسامةً لُمجاراتِها في النكتة التي قالتها للتوّ.

«بالأحرى»، تابعت تيريزا، «ما ينقصني هو إجازةٌ من نفسي، مِنّي كمُحلّلةٍ نفسيّة، كمريضةٍ أيضاً، كمُشرِفةٍ وكبُستانيّة، ككلّ شيء! أرغبُ بالذهاب إلى الشاطئ وامتهانِ النوم».

التزمت المُعالِجة الصمت بينما لجأت تيريزا للاستشهادِ بإحدى النظريّات الوجوديّة:

«وفقاً لسارتر فإنّ (الجحيم هو الآخرون)، هو على حقّ، المُشكلة أنّني أحياناً أكونُ ذلك الآخر، لذلك أنا الجحيم، أنا جحيمي بذاته».

مُجدّداً لم تكن هناك أيّة إجابة من المُعالجة ممّا دفع تيريزا لأن تقول بنبرةٍ تهكّميّة:

«الآن أشعرُ بأنّك لا تقومين بإنهاءِ الجلسة فقط لأنّي قلتُ إنّني لا أريد القدوم مرّتين في الأسبوع. السؤال الذي يطرح نفسه الآن بوضوح هو هل حقّاً عليّ القدوم مرتين أم لا؟».

تيريزا تقصّدت أن تضع مُعالِجتها في «مكان المعرفة» الغامض حول «إن كان عليها أم لا» تقليص عددِ مرّات مُعايناتها، لكن يتوجّب على المُحلّلِ النفسانيّ أن يرفض لعب هذا الدور الرمزيّ (أي دور العارِف بما يجول في ذهنِ المريض)، فالمعرفةُ لم تكن

في شخصهِ بل في لاوعيِ المريض الذي يخضعُ للتحليل النفسيّ (حسب لاكان)، من أجل ذلك صوّبت المُحلّلة الانتباه نحو تفصيلٍ في مُحاضرةِ تيريزا:

«ذكرتِ اليوم كلمة واضح عدّة مرات.. ماذا تظنين أنّها عنت؟».

«قصدتُ بأنّهُ واضح»، قالت تيريزا بينما رسمت ابتسامةً ساخِرة.

بالنسبة للمُحلّل النفسيّ لا يُمكن لشيءٍ ما أن يكون واضحاً، لكنّها كانت بحاجةٍ إلى شخصٍ يرى الأشياء بوضوح، مُحاور لا يُحلّل جميع ما تقول ولا يضعهُ موضِع المُحاكمة وأن يأخذ كلامها بشفافيّة.

تيريزا، والتي لم تعد ترغب بالاستماعِ من بابِ واجبِ المِهنة بل لكونها أرادت أن تفعلهُ بدافع الحبّ والفضول، لم تكن كثافةُ الجلساتِ ما أثار انزعاجها بل غياب نقيضها، أي تلك الكلمات الصديقة والعفويةّ والمجانيّة.

«متى سنلتقي مُجدّداً؟»، سألت تيريزا مُعالِجتها.

«يوم الثلاثاء.. كالمُعتاد».

(١٩)

عادت كارميلا إلى المنزلِ بعد أن علقت لمدّة ساعتين كاملتين في الازدحامِ المروريّ. كان الوقتُ قد تأخّر عندما دخلت المطبخ لتجِد باولينا تدرُس فيه، لامَتها لمواصلة الدراسة حتّى تلك الساعة المُتأخِّرة ثمّ تعشَّت طبقاً من رقائقِ الذرة والحليب واستغرقت بعض الوقت لِرفعهِ عن الطاولة، بعد ذلك صعدت الأدراج بخطواتٍ مُتهالكةٍ كخطواتِ مُتسلّق الجبال المُنهك، أسندت رأسها إلى بابِ ماثيو كي تتبيّن إن كان مستيقظاً، ثمّ تابعت طريقها لتجِد رامون يُشاهِد الأخبار، سألتهُ عن حالِهِ وطلبت إليهِ أن يُطفئ التلفاز ثمّ أخرجت من حقيبتها ساعة الذهب ووضعتها على السرير دون أيّ نوعٍ من أنواع الدراما.

«لماذا لم تُخبِرني؟».

نظر رامون باندهاشٍ إلى الساعة كما لو أنّهُ شاهد لِتوّهِ واقياً ذكريّاً بين أغطيةِ سريرِ ابنته، وطلب من كارميلا أن تشرح لهُ ما حدث.

«طلبتُ من ليوناردو أن يُفصِح لي عن سببِ مجيئِهِ لرؤيتك ذلك اليوم، لكنّ المِسكين لا يُتقِن الكذِب، لن يُصبِح محامياً أبداً». جلسَت على السريرِ ووضعَت يدها على ساقِ زوجها اليُسرى.

«ولماذا تُريد بيعها؟ أنت تعلمُ بأنّ بيعها لن يقضي حاجتنا من المال».

تناول رامون دفتره، قام بفتحِهِ عند صفحةٍ بيضاء وكتب:

«ليس من المُفترضِ أن تتدخّلي في شؤوني الخاصّة».

«ليس لديّ خيار آخر، أم ماذا؟ اليوم الذي أصلُ فيه حدّ بيعِ ما أملكهُ من حُليٍّ سيكونُ لأنّنا لم نعُد نجِد ما نأكله، حتّى ذلك الحين أُفضّلُ التفكير بأنّها لا تزال مكانها»، أشارت إلى الخزانة، «ويُمكن لها أن تُخرِجنا من مأزقٍ لاحقاً. ثمّ لم تقُل لي ما حاجتك إلى هذا المال؟».

«تحسّباً لليومِ الذي ستحتاجون فيهِ للمال، لا أريدُ أن أترك لكم التزاماتٍ وديوناً، أنتِ لا تعرفين ما الذي يُمكن أن يُقدم إرنستو على فعله».

«سوف ندفعُ لهُ المبلغ بالتقسيط، لن تتنازل لي عن حصّتك في البيت، ولن نُوقّع أوراق الطلاق، اتّفقنا؟ سوف تُنهي جلسات العلاجِ الكيميائيّ وستستمرّ بالشفاء، عليك أن تُردّد هذا في نفسِك: سوف أتماثلُ للشّفاء! يوماً ما سوف تُورّثُ هذهِ الساعة إلى ابنك -الولدُ سوف يبيعها، إنّهُ طفلٌ يحبّ التباهي- وسوف

نحكي لهُ عن اليوم الذي ذهبنا فيهِ لشرائِها وكم كنّا سعداء حينها.. أتذكر؟».

أومأ رامون بالإيجاب.

«رامون، أرجوك لا تبدأ ببيعِ ذكرياتنا في المزاد! خصوصاً دون عِلمي، لقد طفح بي الكيلُ من المُعاملة التي أتلقّاها في الخارج. إنّهم يُعاملونني كبلهاء (زوجة الأستاذ المسكينة التي لا تُتقِن المُرافعات) الجميع يقفُ ضدّي بِمن فيهم سكرتيرتك تلك، إنّها امرأة فظيعة وكارِهة للنّساء»، تأهّب رامون لدى سماعها تتلفّظُ بالشتائم، «أجل كما سمعت أنا لا أتحمّلُ تلك الشاذّة العجوز لكن بِما أنّي لا أملكُ رفاهية طردها من العمل عليّ أن أتحمّلها، بعدها يأتي ليوناردو يُجرجر ذيل الخيبةِ وتوجّب عليّ أن أستنطِقه».

«سوف أُرسِل له رسالة نصيّة: شكراً يا مأبون على حسن الأمانة»، قال رامون في نفسِه.

«وكيف تُريدني أن أشعر؟ ضع نفسك مكاني في حذائي».

تظاهر رامون بأنّهُ نادمٌ حقّاً على ما فعل وحاول مُصالحتها بالمزاح.

«لا تنزعجي لقد فهمتُ، أضعُ نفسي في حذائك، بل أكثر من ذلك أضعُ نفسي في أعلى كعبِ من كعوب أحذيتك، لكن دعينا نذهبُ إلى كاتب العدلِ من أجل صالِحنا معاً..».

«الأفضلُ ألّا تضع نفسك في حذائي وألّا نذهب إلى كاتب

العدل. أتذكُر كيف انتهى ذلك اليوم حين طلبت منّي أن أطلي وجهك بالمكياج؟».

دسّت إلوديا ساعة الذهبِ بين ثدييها ثم رسمت إشارة الصليب بحماسٍ فريدٍ لدى خروجها من منزل آل مارتينيز. كان رامون قد أقنعها أخيراً بأن تُساعده بعد قطعهِ وعداً لها بأن تنال جزءاً من المبلغِ المُحصّلِ من بيعِ الساعة كافياً لدفعِ ما ينقصها من أجرٍ مُتأخّر كما لشراءِ قفصٍ جديدٍ لبينيتو.

مهمّة إلوديا تلخّصت في السفرِ إلى مركزِ المدينة مُستقلّة المواصلات العامّة. لم يكن رامون يحتكِمُ على مبلغٍ كافٍ لإرسالها في سيّارة الأجرة لأجلِ العودة إلى المنزل قبل رجوع الأولاد من المدرسة. حثّت خطاها حتى وصلت محطّة الحافِلات، كانت تشعرُ باحتكاكِ المعدنِ البارد مع جلدها تحت حمّالة الصدر. بعث فيها الذهبُ فكرةً مُريبةً مفادها أنّ الجميع ينظرُ إليها وأن الجميع يعلمُ أنّ تحت قميصها توجد ساعة مُبهِرة وباهظةُ الثمن من الذهبِ الخالص. فجأةً وبينما همّت لتُناوِل سائق الحافلة أجرة الركوب، انفلتت القِطع النقديّة من يديها فانحنت لالتقاطِها بِحذرٍ شديدٍ مُحاولةً عدم حني جذعها كي لا تسقُط الساعة من مخبئِها ثمّ اتّخذت مقعداً جانب النافذة وتصنّعت النوم كي تُخفي توتّرها من اللصوص المُتخيَّلين الذين يتربّصون بِها.

وصلَت إلى محطّة الميترو سالمةً غانِمة، نزلت السلالم بحرصٍ شديدٍ خشية وقوعِ أيّ حادثٍ يُمكن لهُ أن يُهدّد سلامة الساعة.

غمرها شعورٌ -بالإضافةِ إلى توتّرها وهشاشتها- بأنّها أكثر جمالاً وابيضاضاً كما لو أنّ وجود الساعة داخلها كان يُقرّبها إلى الجمالِ المِثاليّ المنشودِ من قِبلِ المُعجبين. الذهبُ كان الحليّ المُفضّلة لدى الملوكِ والأساقفة وكذلك لدى المُهرّبين، كان جوهر الجمال الأقصى؛ إذ أنه أعجب الربّ كما أعجب الشيطان. استقلّت الميترو لتنزل أخيراً في ساحة زوكالو. احذري من النشّالين أثناء مرورِكِ في السوق. رامون حذّرها. اتّجهت إلى الشارع الرئيسيّ مقابل الكاتدرائيّة، مُرتجفةً من الخوف رسمت إشارة الصليب مُجدّداً ثمّ أخرجت الخريطة التي كان رامون قد رسمها لها لتُساعِدها على الوصول إلى متجرِ الصائغ حيثُ يجبُ عليها هناك أن تبيع الساعة. عاينت الرسم التخطيطيّ وبخطواتٍ ثابتةٍ اتّخذت الطريق الخاطئ وعند تقاطع شارعي البريد الأعلى Correo Mayor وجمهوريّة غواتيمالا أدركت بأنّها قد تاهت. لمحت عصابةً من الشباب المُدمنين -احتمال كبير أن يكونوا مبعوثي ملاك الموت- شعرت بالقشعريرة تسري في جسدها. إذا ما باشرتُ بالركض -فكّرَت- سوف يُمسكون بي، فظلّت مُتسمّرة في مكانها وشعرت بأنّ الذهب يصرخُ: «أنا هنا» في صدرها. حتى أن خاطراً راودها بأنّ دقّاتِ قلبها المُتسارعة سوف تتسبّب بعطل الساعة. مُتخشّبةً كجنديٍّ حارس انتظَرَت حتّى مرّت شلّة المُجرمين بها، لم يلتفِت أحد منهم إليها مُجرّد التفاتة. تابعَت فقطعَت ميلين محاولةً أن تستدلّ على المكان وقامَت بسؤالِ إحدى النساء فأرسلتها إلى طريقِ العودةِ في ساحة زوكالو عبر ممرٍّ مُختصرٍ حيثُ مرّ بها بائعُ مُثلّجاتٍ مُتجوّل كان على وشكِ أن يقتلها

رعباً. عندما وجدت نفسها مرة أخرى في الساحة الرئيسية، المكان الذي انطلقت منه، طلبت مساعدة شاب (غويرو) أشقر فاتح البشرة ظهر عليهِ اللطف، «المعذِرة»، خاطبت الرجل الذي اتّضح بأنّهُ سائح هولندي، «بأيّ اتّجاه هو طريق ماديرو؟». وعلى الرغم من أنّ السائح كان يتكلّمُ إسبانيّة ركيكة، فقد تمكّن من توجيهها بفضلِ بوصلةٍ يحملها وخريطة كبيرة لمركزِ المدينة.

وصلت أخيراً إلى متجرِ بيعِ المُجوهرات دون عقبات وطلبت التحدّث إلى مديرِ المتجر وأخبرتهُ بأنّها قادمة من طرفِ الأستاذ المحامي مارتينيز ثمّ سلّمتهُ بطاقة خطّ رامون فيها شرحاً تفصيليّاً لطبيعة علاقتهِ بمُلّاكِ متجر تيبيجاك ومُوضّحاً رغبته ببيعهم الساعة.

«أُخفيها في ثيابي»، همست إلوديا، «هل يُمكن أن أستخدِم الحمّام؟».

لمّا صارت وحدها في المرحاض الضيّق جلست إلوديا على مقعد الحمام وفكّت أزرار قميصها وأخرجت الساعة من مخبئها، كانت قد تبلّلت بفعلِ التعرّق فلم يكن منها إلا أن اقتطعت بعضاً من ورق التواليت وجفّفت به الساعة ثمّ خرجت.

طلب إليها الصائغ أن تنتظِرهُ أمام زجاجِ العرضِ بينما ينسحبُ لدقائق بغرضِ فحصِ جودة الذهب.

«إلى أين تذهب؟»، سالتهُ بِتوجّس.

«لأُقيّم القِطعة».

لم يكن رامون قد نبّهها لإمكانيّة حدوثِ مثل هذا الشيء.

«ألا تستطيعُ فحصها هُنا؟».

«كلا يا سيدتي، لا تخشي شيئاً سأعودُ في الحال».

هُنا بدأت إلوديا بالتخطيط لِما عليها فِعله في حالِ لم يعُد المديرُ سريعاً، أو إن خرج مُدّعياً حالةً طارئةً ومرّ من أمامها يتصنّع عدم معرفتِهِ بها، ما العمل إن كان يغشّها؟ لا بدّ أنّ ربّ عملها قد استنفد كافّة السبل ليطلب إليها مثل هذا المعروف الذي كان عليها أن تُنجِزه في سِرّيةٍ تامّةٍ بحجّة أنّ المال سيكونُ لأجلِ «مفاجأةٍ سارّةٍ يُعدّها للسيّدة»، القصّة أثارت استغراب إلوديا لا ريب في ذلك، لكنّها قبِلتها احتراماً لسيّدها ولكونها على عجلةٍ من أمرها لاستلام رواتبها المُتأخّرة التي وعد بتسديدها. الآن من ستُصدّق الشرطة يا ترى؟ مدير متجر مجوهراتٍ ثمينة أم مُجرّد عاملةٍ منزليّة لا تمتلك حتّى بيانات اعتمادٍ لتُمارِس حقّ التصويت؟ لن تخسر عملها فقط بل سيزجّون بها في السجن، يا إلهي! سِجن سانتا مارتا أكاتيتلا مع المُجرِمات والخاطِفات وحليقات الرأس بوشومٍ على أجسادهنّ من أفراد عصابات المافيا المُستعدات لاختطاف فلذات أكبادهنّ وابتزازهم وإجبارهم على دفعِ المال مقابل عدم أذيّتهم!

«أُقدّم لكِ مُقابلها خمسين ألفاً»، قال مُدير المتجر عند عودتِهِ إلى مكانِهِ خلف فاترينة العرض الزجاجيّة.

انفرجت أساريرُ إلوديا عندما سمِعت حجم المبلغ، كانت تعلمُ مسبقاً بأنّهُ سيدفعُ لها الكثير من المال لقاء الساعة لكن ليس

إلى هذا الحدّ، لكن.. كيف لها الآن أن تُخفي المبلغ الكبير داخل حمّالة صدرها؟

باذلةً جهداً في ألّا تُظهِر ارتباكها، أخرجت هاتفها المحمول وضغطت رقم الأستاذ، أجاب رامون على اتّصالها وقرع جرساً صغيراً بحوزتهِ ليُؤكّد لها بأنّه يسمعها.

راحت تُكلّمه بصوتٍ زاعقٍ كما لو كان بالإضافةِ إلى بكمه نصف أصمّ.

«ها أنا الآن برفقةِ صاحب المتجر». بدّلت فجأةً من نبرةِ صوتها الحادّة بأخرى هامِسة، يقولُ إنّ المبلغ هو خمسون ألفاً».

كان رامون قد اتّفق معها بأنّه سوف يضرب الطاولة بقبضتهِ مرّة واحدة كعلامةٍ على الرفض ومرّتين كعلامةٍ على القبول. إلوديا حفظت «الكود» ببساطة: «ضربة واحدة لا.. ضربتان نعم».

ضرب رامون ضربتين حازِمتين على الطاولة.

«إذن.. نعم»، قالت إلوديا.

عاودت سماع ضربتين.

«حسناً.. هل باستطاعتي الآن أن أستقلّ سيّارة أجرة؟».

ضربتان..

ودّعته إلوديا، وأنهى رامون الاتّصال.

في طريقِ العودةِ إلى المنزل راحت إلوديا تتخيّل ماذا ستفعلُ لو

احتكمت على مثلِ هذا المبلغ الكبير من المال: سوف تشتري غسّالة وفرنَ غاز وحذاءً أنيقاً وجهاز حاسوب جديد لأبنائها وسخّاناً لماء الصنبور وعدداً لا نهائيّاً من شرائِط تزيين الشعر، هوسها الأثير والوحيد.

مأخوذةً بتلك الحالة كما لو كانت تحت تأثير التنويم المغناطيسيّ بفعلِ مداعباتِ خيالاتها الشِرائيّة؛ نسِيت أن تدلّ السائق على المنعطفِ يساراً، ممّا اضطرّه إلى الالتفاف مُطوّلاً قبل أن يصل بها إلى المنزل.

كان رامون بانتظارها بصبرٍ نافد، فوق ذلك كان وصولها مُحبِطاً له للغاية، فعِوضاً عن تسليمِهِ المبلغ مباشرةً اضطرّت إلوديا إلى دخول المرحاض من أجلِ إخراج رزمة الأوراق النقديّة التي خبّأتها بين ثدييها. ما أن أمسك الأوراق النقديّة بين يديه، والتي كانت لا تزال دافئةً لالتصاقها مُطوّلاً بجسدِ إلوديا، حتّى همّ مُتلهّفاً يعدّها، منذُ مدّةٍ طويلةٍ لم يمتلك هذا العدد الكبير من الأوراق النقديّة، على تلك الأوراق كانت صور العشراتِ من وجوهِ خوانا إينس دي لا كروس وكذلك من وجوه الجنرال إغناسيو سارغوزا ينظرون إليه عابسين غير مكترثين بالابتهاج الذي أنار وجهه، بهذا المبلغ من المال يمكنهُ أن ينطُق مُجدّداً، سيكونُ قادراً على فرضِ وصيّته بجبروتٍ وعظمة.

(٢٠)

قرأ ألداما عدّة مرّات الجواب الصادم لمديرِ معهدِ البحوثِ الطبيّة الحيويّة UNAM والذي استهلّهُ بِزلّةٍ لا تُغتفر: أشار إليهِ بـ«الطبيب المحترم السيدة ألداما»، خطأ لو ارتُكِب بحقّ رجلٍ يشكّ برجولتهِ لجنّ جنونه، لكن المُزعِج من هذا بالنسبة لهُ كان أن مُراسِله لم يتكبّد عناء مراجعة رسالته قبل إرسالها وتصحيح هذا الخطأ الحاصِل في الغالِب نتيجة تعطيل التصحيح التلقائيّ المتعلّق بالتطبيق خاصّته. من ثمّ اعتذر العالِم المشهور عن تأخّره في الردّ بنكتةٍ رديئةٍ ذات طابعٍ مُتّصل بعملهِ في تجديد الأنسجة: «اعذرني إن لم أكتب لك قبل الآن، أحياناً علينا أن نختار بين تشريح سمندل المكسيك (عفريت الماء) وبين كتابة الرسائل الالكترونيّة!». ألداما كان ليستمتِع بفخامةِ التشبيهِ في ظروفٍ مُغايِرة، لكنّه في هذا الظّرف بدا لهُ دليلاً صفيقاً على عدمِ الأهميّة التي أولاها إيّاه مُحاوِره. بشكلٍ مباشر ودون ديباجات ديبلوماسيّة زائدة، أعلمهُ الباحثُ أن اهتمام «المعهد» الوحيد بِما يخصّ الخلايا السرطانيّة يتركّزُ بِجلّه على دراسةِ القسيمات الطرفية؛ الحُماة

المُتشددين للكروموسومات ونهايات الشيفرة الوراثيّة المُكلّفة بحمايةِ المعلومات الوراثيّة خلال عمليّة انقسام الخلايا، فكما تُساهم عمليّة اللمس والاحتكاك بالسطوح الأخرى بإتلاف أغلفةِ الكتب، فإنّ ازدحام الانقسامِ الاختزاليّ للخلايا يتسبّبُ بتآكلِ القسيم الطرفي والتسريع من شيخوخةِ الخلايا.

في حالاتٍ مُعيّنة، ينطوي نموّ الورمِ السرطانيّ على إعادةِ إحياء أنزيم النسخِ العكسيّ (تيلوميراز)[1] وهو الأنزيمُ القادرُ على تنشيط وإصلاح أجزاء القسيم الطرفي بعد كلّ انقسامٍ في دورةِ الخليّة، بهذا الشكل كانت الخلايا السرطانيّة تتحايل على التآكل الطبيعيّ وتُحافِظ على نفسها شابّة إلى ما لا نهاية.

على أنّ، عالِم الوراثة، وبتوصيفهِ لعملِ القسيمات الطرفية (أطراف الكروموسومات) بشكلٍ مُفصّل، قد أظهر عدم ثقته بالمعارف الفيزيولوجيّة لأخصائيّ الأورام ألداما، ممّا شكّل إهانةً إضافيّةً له أسوأ من سابقتها! وعلى الرغم من ذلك، أكثر ما أثار غضبه عند قراءةِ الرسالة كان اكتشافه بأنّ لويس راميريز، أخصّائيّ الطبّ الشرعيّ الذي كان قد شجّعهُ منذ البداية على التورّط في هذه الدراسة، قد استعملها من أجلِ تحقيقِ مصلحته الشخصيّة وحسب: «وبما أنّ الدكتور راميريز كان قد أعرب عن استعدادهِ

---

(١) التيلوميرازات Telomerase: بروتينات نوويّة ريبوزيّة (أي مُكوّنة من حمض نوويّ رموزيّ وبروتينات) وظيفتها الأساسيّة هي تحفيز إضافة سلسلة بتكرار مُحدّد إلى نهاية الصبغيّات (الكروموسومات) وهي أنزيم نسخٍ عكسيّ ينشط في الخلايا الجذعيّة حصراً ومعظم الخلايا السرطانيّة ولكنه غائب في بقيّة خلايا الجسم.

للانضمام، مباشرةً من مُختبره الخاص، إلى البحوثِ التي نُجريها على القسيمات الطرفية مُستخدماً لذلك الغرض خطّ الخليّة لدى مريضهِ وخلايا أخرى يتمّ العمل عليها، فنحنُ متأكّدون أنّ ذلك سيعود بفائدةٍ كبرى إن كان لمعهدِهِ أو لنا».

هكذا إذن! راميرز الوضيع قد «أعرب عن اهتمامه». لم تكن قط الخلايا السرطانيّة في الساركوما العضليّة محطّ اهتمام راميريز، ما كان يطمعُ بهِ كان سلالةً من الخلايا التي تُفرِز التيلوميراز بالضبط كما كانت تفعل خلايا الساركوما لدى رامون، غير ذلك، بما فيه مساهمة ألداما كانت كلّها مجرّد شكليّات مُؤقّتة.

اختتم عالِم الوِراثة رسالتهُ بمحاكمةٍ مُقتضبة:

«لن يكون بِوسعنا إثبات ولو صِلةٍ وحيدة بين الأائِل (مفردها أليل، النسخة البديلة للجين) الجين FOXO1 وبين السمنة الوراثيّة وعمليّة نموّ ورمٍ سرطانيّ غير اعتياديّ. بصراحةٍ تامّة، لا أظنّ أنّ فرضيّاتك نافعة».

هكذا وبالإضافةِ إلى إحساسهِ بأنّه خُدِع من قبل راميريز، شعر ألداما بِحرجٍ من سذاجة أفكارهِ العِلميّة والتي وُضِعت موضع استخفافٍ وتحقيرٍ من قِبلِ باحثٍ يفتقرُ إلى اللباقة. في نهاية المطاف أصاب الثرثارون الحقيقة بقولِهم إنّهُ اخترق مجال علم الوراثة بدافع الخرف، وحاكم غروره بنفسه: على الأطبّاء الالتزام بعدمِ الإخلالِ برسالتهم الأبقراطيّة بامتناعهم عن انتظار الحصول لقاء أبحاثهم على أرباحٍ معنويّة وأوسمة شرف.

ذاك النعيم الموازي المُتمثّل بإنقاذِ الأرواح مُقابل تحصيل الثروات، كان هاجساً مغرياً لغالبيّة أخصائيي طبّ الأورامِ لكن ليس هو، وكتعبيرٍ عمّا شعر به حيال تلك الدراسة العِلميّة استدعى مقطعاً للقدّيس أوغسطين كان يستنجدُ فيهِ ربّه: مُتأخّراً أحببتُك، أيّها الجمال الجديد القديم جدّاً، مُتأخّراً أحببتُك. مُتأخّراً أحبّ المِجهر والمطياف، متأخّراً أحبّ أناقة المسارِ اللولبيّ للحمضِ النوويّ، متأخرّاً تأثّر لديّ ترصُّده الطفرات الأساسيّة التي تشرح بعمقٍ أسباب الحياة، ليس لإمكاناتها الفائقة في إحداثِ الأورامِ فحسب، بل لما تكتنِفهُ عمليّة التطوّر ذاتها على مرّ العصور، منذ المرق البدائيّ (ألكسندر أوبارين- نظرية أصل الحياة) وحتّى الكائن الحيّ الذي يمشي على قدميهِ ويعتقدُ بِتفوّقهِ على الطبيعة ذاتها.

تقبّل ألداما بهدوءٍ ورزانة أنّهُ لن يتمكّن مُطلقاً من معرفةِ السبب وراء السرطان الذي أصاب رامون مارتينيز، سلالةٌ غريبةٌ من الخلايا العضليّة استطاعت تجاوز ثمانيَ مراحل عنيفة ومُدمِّرة من العلاجِ الكيميائيّ وشهرين من جلساتِ الأشعّة. كانت خلايا سرطانيّة طولانيّة قد سخرت بدورِها أيضاً من ألداما فغطّت الرئتين بغشاءٍ طحلبيّ وأحاطت الفقرات القطنيّة لعمودِهِ الفقريّ بشعابٍ مرجانيّة.. ومن يدري في أيّ مكانٍ آخرَ ما زالت تنتشرُ في هذهِ اللحظات.

عندما نقل ألداما خبر انعدامِ سُبُلِ العلاج من أجلِ الشفاء، وأنّ البقع السرطانيّة ما زالت تنتشرُ وتتفشّى دون توقّف، ظهر على

المريض الارتياح كما لو أنّ العلاج الكيميائي كان نافعاً، لاقتناعه، في حالته هذه، أنّ التشخيص الأقرب إلى الراحة هو الرحيل.

السيّدة مارتينيز، على عكسه، جاءت ردّةُ فعلِها على شكلِ أسئلةٍ ساخِطة، اتّخذت، علاوةً على طلبها للمعلومات، شكل الاتّهام بتقصيرِهِ وعدمِ كفاءته. كيف يُعقلُ أنّه وبعد رحلةِ علاجٍ دقيقةٍ ومُتعِبة وطويلة أن يتأسّف الطبيب بينما يُشيرُ إلى المناطقِ المبيضّة في صورِ الأشعّة السينيّة حيثُ تظهرُ أماكنِ انتشار السرطان؟

حاول ألداما أن يشرح لها أنّه لولا خضوع زوجها للعلاج الكيميائي لما تمكّن من المقاومةِ حيّاً لأكثر من شهرين، وأنّه بالرغم من الساركوما غير الاعتيادية، ظلّ المريضُ على قيدِ الحياة لعامٍ تقريباً بعد تشخيصِ حالته. العلاجُ كان ناجحاً جدّاً.

مُستغلّةً الظرف، بادرَت السيّدة مارتينيز بسؤاله بنبرةٍ متحديّة حول ما إذا كان قد أُحرِز تقدّمٌ ما بِخصوصِ البحوثِ الجارية على الخلايا السرطانيّة الأصليّة. كان الأمر مُجرّد خدعة، كم ودّ لو يعترف لها بذلك، لأجلِ استخدامِ أنسجة زوجها ضمن مشروعٍ حول شيخوخةِ الخلايا. هذه الأبحاث الدؤوبة عن نبعِ الشباب الدائم للخلايا الموروثة سوف تظهرُ ثمارها بعد سنوات طويلة، عندما لا تعود تنفع زوجها ولا تنفعني بشيءٍ أنا أيضاً، أنا الذي على وشكِ أن أُقدّم استقالتي وأن أنتقل إلى النسيان.. أنا الذي عاينتُ مئات المرضى وأشفيتُ الكثير منهم، لكن.. سيكون لدي فائِض من الأصابع إذا ما قرّرتُ إحصاء عدد من يتذكّرني بامتنانٍ بينهم.

أجابها بأنّ البحوث على الخلايا كان لها نفعٌ كبير في هندسةِ العلاجِ الكيميائيّ، فبفضلِها، أكّد مُجدّداً، بقي المريض على قيدِ الحياة لمدّةٍ تزيد عن السنة.

دون أيّة أسئلة إضافيّة بدأت السيّدة مارتينيز بالبكاء، واساها المريضُ بعذوبة. كانت قد سنحت للطبيب ألداما فرصةُ مراقبتها عن قُرب، تعامل ألداما مع عشراتِ العائلات وعرف كيف يحكم على شخصيّتها، إذ أنّها وطوال رحلةِ العلاج، أثبتت أنّها امرأة مُنصِفة. الكثيرُ من مرضاه من المُتزوّجات كُنّ دراماتيكيّات وفي بعض الأحيان مُتسلّطات تعمّدن إثارة الفضائح، ورغم الظرف السيّئ أردنَ أن يكُنّ مركزاً للاهتمام.

لكن هي لا؛ فقد رافقت زوجها بتحفّظٍ وتهذيبٍ خلال عشراتِ الجلسات وانتظرَتهُ مرّات عديدة لساعاتٍ طوال خارج قاعةِ العلاج ووقفَت في طوابير طويلة إن كان للتبرّع بالدمّ أو لجلبِ نتائج التحاليل المخبريّة أو لتسليمِ عيّنات من البول لتحليلها. لم تظهر يوماً كامرأةٍ مُتدينّة أو مُغاليةٍ في تفاؤلها، بل غلب الطابع العلمانيّ المُفرِط على تصرّفاتها، لقد تصرّفت وفق طريقةٍ يُمكن الحكم عليها بأنّها نموذج للتمدّن والتحضّر بلا شكّ. كان انزعاجها مفهوماً: لقد وضعت أقصى إمكانيّاتها، كلّ ما بِوسعها تقديمه من جهتها، لكنّ الطبيب خذلها، وبرغم ذلك لم يكن لزاماً عليها أن تعتذر لهُ كما يعتذرُ مدراء الفنادق لنزيلٍ غير راضٍ عن الخِدمة.

الطبّ مِهنةٌ بدائيّةٌ تعتمدُ على الحدسِ بنسبةٍ كبيرةٍ، لا يُمكن

أن ننتظر منهُ نتائجَ بالغة الدقّة أو الكمال. الكثيرون يرون أن التطوّر العلميّ سينتهي إلى ترويض السرطان وتحويلِ طبّ الأورامِ إلى تخصّصٍ مُبسّطٍ وهيّنٍ إلى درجةٍ يُصبحُ معها معادِلاً لطبّ الأسنان وسيكون بوسعِ المرضى أن يتوجّهوا إلى جلساتِ علاجِ الورمِ النجميّ في الدماغ بالتململِ ذاته الذي يُصاحِبهم عند اضطرارهم إلى مُعاينة طبيب الأسنان لاستئصال ضرسٍ مكسور. لكن ألداما خمّن بأنّ ذاك الرخاء العالميّ المُتطوّر سيستغرقُ وقتاً طويلاً ليجعل من جنّةِ علمِ الأورام المُتخيّلة تلك حقيقةً ملموسة!

(٢١)

كوليرو[1]! كوليرو! بدأ الببّغاء بالصراخِ عندما استنتج أنّ رامون على وشكِ الدخول إلى المنزل.

إلوديا، الوحيدة التي تشهد النبوءات اليوميّة للببّغاء كانت تنقلها تباعاً إلى رامون وبالطبع لم تمتنع عن ذلك هذه المرة.

«كنتُ أغسلُ الثياب في الطابق العِلويّ عندما سمعتُ صراخ بينيتو، قلتُ مُحدّثةً نفسي بأنّ الأستاذ لا بدّ على وشكِ الوصول ونزلتُ بسرعةٍ لأُحضِّر لك كأساً من شرابِ البرتقال واللوز لكوني توقّعتُ بأن تعود عطشانَ بسببِ الطقسِ الحارّ».

«أُقدّرُ لكِ ذلك»، فكر رامون، وخرج ليتفقّد بينيتو، الذي بدورهِ احتفل بقدومهِ بصرخاتٍ أحدّ من سابقاتها. القفصُ الجديد أظهره كما لو أنّه أحد ببّغاوات بستاكيداي المُلوّنة طويلة الريش في فندقٍ هوليوديٍّ: أربعة أمتارٍ مُربّعة في الحجم، ستّة مشاجِب من

(١) كوليرو – culero: تعني الدخيل أو المُتسلّل، تطلق أيضاً على المُهرّبين الذين يستخدمون فتحة الشرج لتهريبِ الممنوعات.

خشبِ الكاوبا (الكابلي) بارتفاعاتٍ مُختلفة ودرجٍ معدنيّ يقود إلى الشرفة مع أرجوحة مُثبّتة، بحيرةٌ وجزيرةُ نخيلٍ بحجمٍ مُصغّرٍ ومُوزّع أوتوماتيكيّ للطعام وغطاء ليليّ عازل للحرارة ودرجٌ نظيف في الممرّ. بلا شكّ فإنّ زوجاً من ببّغاوات الآرا الاستوائيّة يمكن لها العيش بأريحيّة تامّة في مثل هذا المنزلِ الفخم الذي احتلّ القِسم الأعظم من طاولةِ الحديقة.

«ألا تخجلُ من نفسك؟»، سأل رامونُ بينيتو، «حياتك الآن لم تعد كحياةِ الرئيس خواريس بل باتت أقرب إلى الحياةِ الباذِخة التي عاشها الامبراطور ماكسيمليانو؟ كان إنسانيّاً؟ وبماذا يفيدُ هذا؟ لماذا تحشر أنفك في هذا يا حشريّ؟». كلمة حِشريّ Metiche كانت -من بين كلمات أخرى- ضمن القاموس الأثريّ الذي بدأت مفرداتهُ تغزو عالم المونولوج الداخليّ لرامون، ذلك الإرثُ اللغويّ للّغة الأمّ لم يكن قد كشف عن نفسهِ سابقاً في حديثِ ابنه. لكن أمواج الصمت الثقيل رفعت غطاء الذاكرة وأخرجت إلى الضوء بضع كلماتٍ منسيّة مثل أهبل chambón، السكّان الأصليون triques، الزوّادة Merienda، السحليّة الصغيرة Lagartona colación، الوجبة الخفيفة. وفقاً لنظريّة تيريزا فإنّ نبش هذه المفردات كان دليلاً على أنّ عقلهُ شنّ مراجعةً للماضي بغرضِ البحثِ عن فلسفاتٍ تُساعِده على تبيّن وضعه الحالي، جلّ ما نتمنّاه في هذه الحياة -كانت قد شرحت لهُ المُحلّلة النفسيّة- هو معرفة السبب.

راح رامون يحكي لصديقه:

اليوم أخرجوا جهاز القسطرة من صدري، بما أنّهم سيُوقِفون العلاج الكيميائي فلم تعُد لهُ حاجة بعد اليوم. أرادت الطبيبة المُختصّة تخفيف الآلام الناتجة عن العلاجِ الكيميائي بأن تُبقيهِ مُعلّقاً لكي تتمكّن من مَدّي بالمُسكّنات اللازمة، لكنّي طلبتُ منها أن تُزيلهُ بحجّة أنّه يتسبّبُ لي بالحكّة. لا أريد أن أموت بأنبوبٍ مغروزٍ في صدري. ينتابني شعور لا يُمكنني وصفه إذا ما تخيّلتُ الأمر.

لا أُخفيك، ألمُ الساقين فظيع، لأنّ الورم يضغطُ على عصب العمود الفقري، زِد على ذلك التهاب العصبِ الوركيّ الذي أُعاني منه، بعد قليلٍ سيضعون لي كمّادات ماء ساخن لتخفيفِ الالتهاب، لا تتخيّل كم عانيتُ عندما كنّا في طريقِ العودة في السيّارة، مع كلّ مطبّ أحسستُ بخصيتيّ وكأنّما تُنتزعانِ من مكانِهما.

أتساءلُ ماذا كانوا يفعلون في عصورِ ما قبل التاريخ إذا ما ظهر لديهم ورم خبيث. بحثتُ برفقة ابنتي، عبر شبكةِ الأنترنت، عن معلوماتٍ حول إمكانيّة وجودِ مرض السرطان قبل آلاف السنين، اتّضح أنّهُ وُجِد بالفعل وأنّ الديناصورات أيضاً قد أُصيبت بهذا القرف، أيضاً في أيّامنا هذهِ يُصابُ فرس النهر بسرطانِ البروستات بسببِ المياهِ المُلوّثة. لا أعرفُ أين على وجهِ التحديد، لكنه متواجد ضمن الولايات المُتّحدة الأمريكيّة.

هل تعلم أين تتركّزُ النسبة الأعلى للسّرطان؟ تيري تقول في كندا، بسببِ الانتشارِ الواسعِ للمواد المُصنّعة. بالنسبة إليها فإنّ كلّ ما هو طبيعيّ مُرحّبٌ به بما في ذلك سمّ العقارب. تقول إنّهُ

مفيدٌ جدّاً. العشبة كذلك، أقصد الماريغوانا، إنّها على حق، يا لهُ من شعورٍ حسنٍ ومريح ذاك الذي تُخلّفُه، إنّها الحقيقة، ويا للمُفارقة! الطبيبة يا بينيتو تصِفُ لي خليط الأفيون الذي هو في نهايةِ المطاف الخُزعبلات ذاتها التي يتداولها الشباب، لكنّ والحقّ يُقال فإنّها تُؤخذُ وِفق وصفةٍ طبيّةٍ وبِمقادير مُعيّنة وتُكلّفُ المرء عيناً من وجهِهِ (دلالةً على غلائها). تيري أخبرتني أنّ الماريغوانا لا تُكلّفها شيئاً وبأنّهم يُهدونها إيّاها من أجل المُساعدةِ وحسب. لكن من يُهديها إياها؟ ولأجلِ ماذا؟ هناك شيءٌ غريبٌ في الأمر.

تذكّرني: لا أحد يُهديك شيئاً في هذهِ الحياة، لكنّها أشادت بها كثيراً حتّى قبلتُ في نهاية الأمر. أخرجَت جهازاً شبيهاً بالراديو وعِوضاً عن اللاقط ثبّتت أنبوباً رفيعاً وطلبت مِنّي أن أستنشق وأسحب مِنهُ كما لو كان سيجاراً. ليس دُخاناً، قالت هو بُخار.

لم أشعر بأيّ شيء على الإطلاق، طلبتُ أن أُعيد الكرّة وفعلَت، ما هي إلّا خمس دقائق فقط ولن تُصدّق ما حدث: توقّف كلّ شيء وانتصب عِضوي، كنتُ قد نسيت كُليّاً كيف يكونُ إحساس الانتصاب. كان غريباً ما حدث. بعد ذلك زال ألمُ ظهري الشديد فجأةً، لا ألم على الإطلاق. في تلك الأثناء كنتُ قد غدوتُ نصف سكران، شعرتُ بالتنميلِ في وجهي وبحركاتي البطيئة. أُقسِم لك بأنّي شعرتُ بجسدي حامياً وتملّكتني الرغبة، بالطبع ليس تجاه الطبيبة، تلك المرأة المسكينة، بل رغبة مُجرّدة ولم أعد أشعرُ بالألمِ في عِضوي الذكريّ، «كيف تشعُر؟» سألتني. ما فعلتهُ كان رفع إبهامي: جيّد جدّاً!

لو أنّ أحدهم قال لي قبل عشرين عاماً بأنّي سأُصبِح مُتعاطيّاً لكان جوابي: هل جُنِنت؟ يستحيل أن أفعل ذلك. لا يُمكن، لكن.. انظر إليّ الآن..

سألَتني عن أمرٍ ما، لا أذكرهُ الآن، خفضتُ نظري تجاه لوحةِ المفاتيح كي أُجيبها ولاحظتُ أنّ أزرار لوحة المفاتيح تتكلّم. غريبٌ جدّاً، بقيتُ للحظاتٍ مذهولاً أتأمّلها ثم أدرتُ وجهي فرأيتُني أنا مُتمدّداً على السرير براحةٍ تامّة. أحضرت لي كوباً من الحليبِ وقالت: «اشربه». كارميلا كانت بانتظاري خارجاً وكانت الطبيبة قد أخبرَتها بأنني غفوتُ قليلاً لأنّي شعرتُ بِتوعّكٍ طفيف، خرجتُ بعدها مُتصنّعاً الجديّة وكارميلا لم تلحظ شيئاً على الإطلاق.

قالت إنّ بإمكانها اعطائي القليل منهُ لأستعملهُ في المنزل، أتتخيّل ذلك يا بينيتو؟ نتعاطى هنا في المنزل؟ لا يُمكن.. يستحيل أن أسمح بأن يقبِض عليّ أبنائي مُتلبّساً أُدخّنُ الحشيش.. ولا بأيّ حالٍ من الأحوال، أيّ مثالٍ سوف أُخلّفهُ لهم إذا كانت الذكرى الأخيرة لوالِدهم هي رُؤيتهُ كمُدمِن؟ كلّا. على أنّني في الأسبوع القادم عندما أذهبُ إلى زيارتها في منزِلها سأطلبُ منها مُجدّداً.. وأحسبها ستكونُ المرّة الأخيرة.

لقد أتممتُ أمر التنازلِ عن حِصّتي في المنزل، لم يبقَ الآن إلّا إنجاز مُعاملةِ الطلاق. الآن وقد تقبّلت كارميلا أخيراً بأنّني سأرحل، لم تعُد تُعانِدني، سألَتني ذات يومٍ إن كنتُ أريدُ مِنها أن تُكلّم إرنستو وتُخبِره بِما قالهُ الطبيب، لكنّي قلتُ لها إيّاك أن تفعلي

مهما كان الداعي لذلك، لا أُريد لهذا المُغفّل أن يعلم عن أيّ شيءٍ حتّى لاحِقاً. فليذهب إلى جنازتي باكياً ماله!

حسناً، كارميلا لم تُوافِقني الرأي في هذا الشأن وانتهزتُ الفرصة لألِحّ عليها مُجدّداً من أجلِ إتمامِ أوراقِ الطلاق. لا تُريد لأنّها تشعر بالعار، ماذا سيظنّ الآخرون بها. من هُم؟ سألتُها، تقولُ إنّ هذا سيبقى مُسجّلاً إلى الأبد، حسناً، أجل في شهادةِ الوفاةِ ستُوثّقُ الحالة الزوجيّة، لكن ما يهمُّ ذلك؟ من سيدري بذلك؟ «الأولاد» قالت. حسناً، إذن اشرحي لهم. قلتُ لها. ليس لدينا ما نُخفيه.

هي لا تُريد أن تفعل، لأنّ ماثيو، كما قالت، على وشكِ أن يرسب في صفّه.. والبنت لا تريد أن تأكل! إنّها مكتئبة. خُذيها إلى الطبيب، قلتُ. ومن أين لي المال؟ أجابت. أعتقدُ بأنّ تيري يُمكنها أن تُقدّم لنا الدعم دون مُقابِل، هذه المرأة نبيلة، سنطلبُ إليها أن تُساعدنا في توضيح أمر الطلاق لهما، «كفّ عن التحدّث في هذا!»، صاحت بي. لكنّني أريدُ أن أذهب وأنا مُطمئن. كتبتُ لها. «وماذا عنّي أنا.. كيف ستكونُ صورتي أمامهم؟» سألتني. لو كان بإمكاني الكلام لبقيتُ صامتاً في تلك اللحظة.. أفهمُها جيّداً يا بينيتو. لكن في حال استطاع إرنستو رشوة القاضي واستصدار أمرٍ بالحجز.. سوف يُشرِّدهم. ذلك المال الذي أقرضني إيّاه لم يكسبه بطرقٍ شريفةٍ، لقد جمعهُ من النصب والاحتيال على عملائِه ومُوظّفيه. لقد دافعتُ عنهُ مرّاتٍ عديدةٍ في هفواته، إنّهُ رجلُ مافيا، هذا الحيوان.. ولستُ اشتراكيّاً أو أيّ شيءٍ من ذاك القبيل، لكن، على أحدهم أن يُلقّن أمثال هذا الإقطاعيّ الحقير درساً.

كان بينيتو يتأرجحُ بِقوّة، كما لو أنّه يُصادِق على خططِ رامون.. يهزُّ برأسِهِ مرّةً تلو الأخرى.

(٢٢)

رنّ هاتفُ ألداما عند الساعة الحادية عشر ليلاً، يوم الإثنين، كان قد انسحب إلى مكتبهِ عقب تناولِ العشاءِ لأجلِ سماعِ الموسيقى. كأسا النبيذِ اللتان شربهما دفعتاه لأن يبحث بين إسطواناتهِ عن مقطوعةِ «الحفلة التنكريّة» Masquerade الشهيرة لآرام خاتشاتوريان، المؤلّف الموسيقيّ الروسيّ. حدثُ إجهاضِ بُحوثِهِ الوراثيّة أعاد إليهِ على الأقلّ ساعاتهِ الليليّة الثمينة التي كان يصرفها على شغفه والتي كانت الجزء الوحيد من الوقتِ الذي بإمكانهِ التحكّم بهِ بشكلٍ حرٍّ بكلّ ما تعنيه الكلمة.

«اعذرني لاتّصالي في هذهِ الساعة المُتأخِّرة»، قالت السيّدة مارتينيز، «لكنّني اضطررتُ للبقاءِ حتّى ساعةٍ مُتأخّرةٍ في المكتب وعند وصولي إلى المنزل وجدتُ زوجي بحالةٍ سيّئةٍ جدّاً مُمدّداً على الأرضِ إلى جانب السرير..».

أحسّ ألداما بحنينٍ عميقٍ لجهازِ النداءِ الآلي Beeper (البيجر) الذي كان شائع الاستخدام في نهاياتِ القرن الماضي، يُفيدُ في

استقبال الرسائل الإلكترونيّة، قبل اكتساحِ الهواتِف المحمولة كان إذا أراد أحدهم الاتّصال به فإنّ عليهِ أوّلاً أن يمرّ عبر عاملٍ آليٍّ ينقلُ الرسائل تباعاً، ثمّ يطلب اسم المُتّصل ورقم هاتفهِ ويُرسِل المعلومات للشخص المُراد الاتّصال به.

«دكتور لقد عاد النزيف ماذا نفعل؟». «تقيؤ وإسهال لا أدري إن كانت حالة طارئة». «نتّصل بك من المستشفى، لقد توفّيت السيّدة إبانيّز آتي سارا».

لم يسبق للمرضى أو الأقارب أن عبّروا عن مقاصِدهم بذلك الوضوح والإيجاز مثلما فعلوا في حقبةِ الـBeeper الذهبيّة.

«أخبريني ماذا جرى؟».

«نهض ليذهب إلى المرحاض لكنّه لم يستطع أن يخطو ثلاث خطوات، كما أتاهُ ألمٌ مفاجئ في الظهر ولهذا لم يصِل إلى الحمّام في الوقتِ المناسب.. كان عليّ أن أُبدّل له ثيابه، ثمّ بعد ذلك أن أُوقِظ ابني كي يُساعِدني في رفعهِ إلى السرير. أعطيتهُ مُسكّن (ترامادول) لكن ذلك لم يكن كافياً لتخفيف ألمِه».

«هل أعطيتِه قرصاً واحداً فقط؟».

«نعم.. كانوا قد أعطوه قرصاً عند الظّهيرة، إضافةً إلى عقار (دولاك) المُضاد للالتهاب».

«لا بأس، أعطِه الآن جرعةً إضافيّةً من مُسكّن (ترامادول) واطلبي من الصيدليّة عقار (سيلبريكس) من عيار ٢٠٠ ميلغرام.

عندما يصلك الدواء من الصيدليّة أعطهِ إيّاه مع جرعةٍ من عقار (دورميكوم)، أرجو أن يكون هذا كافياً لجعلهِ ينام».

«هل بإمكانك أن تُعيد لي اسم الدواء؟».

«سي.. لي.. بريكس.. تُكتبُ بحرف X. راجِعي عيادتي غداً عقب الساعة العاشرة وأخبِري سكرتيرتي بأنّك جئتِ من أجلِ لُصاقاتٍ مُخفّفةٍ للألم، هي ستُملي عليكِ إرشادات الاستخدام».

«شكراً جزيلاً.. سأكونُ هناك في الغد».

«حسناً، وقولي لزوجكِ ألّا يشغل باله، سيرى بأنّ تلك اللصاقات فعّالة للغاية في تخفيفِ الألم».

توادعا وأنهيا المُكالمة.

ألداما ظلّ يُفكّر بأنّهُ ما أن تُغطّى الأعصابُ بالأفيون ستهدأ وتتوقّفُ عن إثقال الوعي بإشاراتٍ ومعلوماتٍ غير منتهيةٍ حول الحالةِ الكارثيّة للبلاد! هذا ما يعنيه الألم؛ معرفة، لهذا وُجِد جلّادون، فراغهم الداخليّ كبير وتفاهتهم بالِغة، بل إنّ إدراكهم لذلك ومعرفتهم به كانت تروقُ لهم. لهذا السبب أيضاً هنالك الكثير من مُدمني الهيروين: عالمهم كان عسيراً لدرجةِ أنّ وسيلة المعرفةِ الوحيدة لديهم كانت عبر الألم.

أحبّ لو يستطيع مُصارحة السيّدة مارتينيز؛ أنّ زوجكِ يعرفُ حقّ المعرفةِ ما يجري، لهذا السبب يُعاني ولهذا السببِ يصرخ. هل سبق لكِ أن شاهدتِ لوحة الانتحار الجماعيّ أحد أعمالِ الرسّام

داڤيد سيكيروس الموجودة في متحف الفنّ الحديث في نيويورك؟، أنصحكِ بالاطّلاع عليها لأنّها تعكسُ تماماً ما يحدث داخل زوجكِ في هذهِ اللحظات.

صامتاً، صبّ كأساً من الويسكي، كان الوقتُ متأخّراً جدّاً على المضيّ بالتفكير بأمرِ المُعاينة أو استئناف جلسة استماع موسيقى الوقّاد خاتشاتوريان. يجبُ الاسترخاء.. ماذا أفضل من أجل ذلك من سوناتا ٨٢[1] لِيوهان سيباستيان باخ بأداءِ لورين هانت ميزوسوبرانو، هذه الأخيرة قد تُوفّيت إثر إصابتها بسرطانِ الثدي الوراثيّ عام ٢٠٠٦ ثمّ تُوفّيَ زوجها المؤلّف الموسيقيّ بيتر ليبرسون لاحقاً عام ٢٠١١ إثر ورمٍ في الغددِ اللمفاويّة.

الموسيقى المُرتبِطة بالسرطان كانت تثيرُ نوعاً من الاهتمام الخاصّ لدى ألداما. سبق أن خصّص الكثير من وقتهِ للاستماعِ إلى أعمالِ يوهانس برامس الكاملة والذي من المُحتملِ بأنّهُ تُوفّيَ إثر سرطانِ الكبد أو البنكرياس.

عندما علم ألداما بإصابةِ كلاوديو أبادو الموسيقيّ وعازف الأوبرا ومديرها بسرطان المعدة قام بشراءِ جميعِ أعمالهِ، وطفق يبحثُ عن تباينات بين التسجيلات السابقة واللاحقة على مرضه.

كذلك فقد أرسل بطلب العملِ الأوبراليّ Metastasis للمؤلّف الموسيقيّ اليونانيّ إيّانيس كيناكيس خصّيصاً من لندن والذي تبيّن

(١) سوناتا ٨٢: مقطوعة كنسيّة كتبها سيباستيان باخ من أجل الاحتفال بتنقية مريم. عُزِفت للمرّة الأولى بشكلٍ علنيّ عام ١٧٢٧.

لاحقاً بأنّهُ إنتاج فنّي رخيص من نوع الموسيقى «العشوائيّة». رفع اسطوانة خاتشاتوريان من الجهاز ووضع سوناتا غنّتها لورين هانت، غلب الطابع الأوبراليّ على صوتِ المُغنيّة بشكلٍ لا يتطابقُ وطابع باخ الموسيقيّ. لقد جسّدت هانت دون شكّ وبشكلٍ مقنع الدراما النفسيّة لـ Simón سيمون[1]، الشخصيّة الإنجيليّة التي مجّدتها المقطوعة الموسيقيّة، أيُمكِن أن يكون السرطان، الذي أودى بحياةِ والِدتها وأختها في فترةِ اشتغالِها على تسجيلِ الأسطوانة، قد أسبغ على صوتِ مُغنيّة الأوبرا الميزوسوبرانو نوعاً من النضج المثاليّ اللازم لمثلِ هذا العمل الذي استند إلى مقطعٍ إنجيليّ بعذوبةٍ نادرة:

اقترب سمعان من الطفل وبدأ يردد أنشودته الشهيرة:

«الآن يا ربي تحقّق وعدك
يمكنك أن تسمح لعبدِك أن يموت بسلام.
لأنني رأيت الخلاص
الذي بدأتُ بتجسيده
أمام أعينِ جميع الأمم.
النور الذي سينير الصالحين
والذي سيكون شرف شعبك بني إسرائيل».

(١) Simón: شمعون أو سمعان الأكبر، عاصر يسوع الناصريّ وأتى ذكره في إنجيل لوقا (لوقا ٢: ٢٥:٣٥) عندما أحضروا له يسوع الوليد إلى معبد القدس لعرضهِ على الرب، كما ذُكِر أنّه امتلك روحاً نبويّة إذ «كشف له الروح القدس بأنّه لن يرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب» (٢٥:٧).

خوسيه وماريا أخذا الطفل يسوع لعرضه على الرب في المعبد حيث رأى العجوز سيمون فيه المسيح حاملاً إياه بين ذراعيه فأنشد: «لقد اكتفيت» Ich Habe genug. كان مزيجاً اختبره ألداما جيداً؛ فيض الكيل والامتنان.

Ich habe den heiland, das hoffen der frommen,

Auf meine begierigen Arme genommen.

حظيتُ بالمخّلص أملُ الصالحين أضمّه بين ذراعي الشوق

Ich habe genug لقد اكتفيتُ.

وبينما راح صوت لورينا هانت يروّض اللغة الألمانية الخشنة، طفق ألداما يدندن المقطوعة الرائعة:

Nun wünsch Ich, noch heute mit Freuden, von hinnen zu Scheiden.

لهذا، اليوم، بفرحٍ سأغادر هذا المكان.

سيمون كان قد أصبح كهلاً وقد تعب من ثقل السنين الذي كان يزداد قبل الانشراح العليل الذي جلبه مجيء الطفل يسوع، لقد غنّى كما لو كان يقول: «يسوع، أتركُ العالم بين يديك لأنصرف إلى النوم».

Iche habe genug لقد اكتفيتُ.

ألداما تلذّذ بدوران الأسطوانة وبكأس الويسكي. صمتٌ مطبق. ثم استؤنِفت الموسيقى بتوهّج حثيث:

Ach! möchte mich von meines Leibes Ketten Der Herr erretten

آه! كم أتمنى لو يخلّصني الرب إلهي من عبوديّة جسدي.

كانت هذي الكانتاتا أو الأنشودة أيضا محاضرة تمهيدية للموت، توقّف قصيرٌ، كأس أخرى من الويسكي، لتبدأ الدورة النهائية:

Ich freue mich, auf meinen Tod ...

يسعدني موتي آوه! أتمنى أن يكون قد وصل، سأهرب من هذا الألم الذي يسجنني في هذا العالم.

وحدَه معجبٌ بمذهبِ الكنيسة اللوثريّة كان لينظم مثل هذه الموسيقى الاحتفالية لمحفلٍ مهيبٍ كمحفل الموت، وأية طريقة أفضل لوعظ مريض ميؤوس من شفائه من الموسيقى المقنعة ذات المغزى. ألداما أراد لهذه الكانتاتا بهذه النسخة بالتحديد أن ترافقه في لحظات حياته الأخيرة.. عندما أنشد سيمون العجوز ضامّاً يسوع بين ذراعيه، كان الطفلُ يجهل مستقبله، نهايته مصلوبٌ على الصليب، ولو كان قد علم بها لكان صرخ فزعاً. ألداما يذكُر من التعاليم المسيحية بأن يسوع كان يعلم بالفعل بمصيره، على الأقلّ في الليلة التي سبقَت إلقاء القبضِ عليه في بستان جثسماني، لكن لماذا لم يهرب إلى الجليل كما فعل العديدُ من أتباعه المتمرّدين لاحقاً؟ لقد مثّل شغف المسيح، على نحو ما، وبالنظر إلى المحطات المؤلمة الكثيرة في حياته؛ مساراً للدراسات العليا في علم التشريح، فقد وصل إلى اختبار الكثير من الألم إلى الحدّ الذي استطاع به أن يحلّ

معضلة الموت. آلامٌ عظيمة، معرفةٌ عظيمة: من هنا استطاع في اليوم الثالث أن ينهض من القبر، مرتاحاً، ثم يرحل. لماذا لم يبقَ يناضلُ جسداً وروحاً من أجل تحقيقِ الخلود على الأرض؟ لربما تكشّف له خلال اختباره للألم بأن الخلود قضيةٌ خاسرة، وأن أحداً ليس على استعداد للمعاناة -للمعرفة- اللازمة لكي يتخلى عن كونه إنساناً ويبدأ بالتصرف على أنه الله.

«لقد اكتفيت»، لا بد وأن يسوع قد فكّر بذلك بلُغةٍ آرامية قبل أن يختفي.

«نأسف لإعلامكم بأن البشر قد انتشروا في كل من الكونغو وسيبيريا وغابات الأمازون»، لكن من يا ترى سيكون عالم الوراثة الأشهر في العالم حينئذٍ؟ تساءل ألداما قبل أن يُطفئ الضوء ويخلد إلى النوم.

Ichi hebe genug

(٢٣)

عقب انقضاءِ أسبوعينِ كاملين دون الاجتماعِ برامون، تلقّت تيريزا أخيراً رسالةً منهُ: «ما زلتُ أُعاني من مشاكلَ في منطقةِ الفخذين.. ليلة سعيدة.. هل يُفيدُ ما كنّا قد تناقشنا حوله في معالجةِ الالتهاب؟ أ. ر. م».

أجابتهُ هي في الحال بأنّهُ يفيدُ بالفعل، وبأنّها بكلّ سرورٍ ستُوصل لهُ «الدواء» إلى منزلهِ في اليوم التالي. كانت مُعتادةً على استخدام تعابير مُنمّقة للدلالة على الماريغوانا في حديثها مع مرضاها، ذلك لكونِ الغالبيّة العظمى منهم لم يشعروا بالارتياحِ عند تداولهم لكلمةٍ مُحمّلةٍ بالكثير من الخُرافات والعار والأحكامِ المُسبقة الشائعة، هي تُحبّذُ الاسم العلميّ Cannabis Sativa أي القنّب المزروع. كان يبدو لها اسماً أنثويّاً ومُبتكراً كونها ربطت بين تعبير Sativa بالجذر Satisfacción بمعنى الاكتفاء وكذلك الحكمة، وهُما باعتقادِها حالتان ذهنيّتان بينهما ارتباطٌ وثيق.

بما أنّ رامون لم يكن في حالةٍ تسمح لهُ بتدخينِ «صاروخ

حشيش» أو باقتناءِ جهاز التبخير، قرّرت أن تصنع لهُ أقراصاً من الكعك المعجون بعشبةِ الماريغوانا، يُمكن للأقراصِ أن تُطرّى بالحليبِ وأن تُؤكل دون إثارة انتباهِ أفرادِ عائلته إذ لم يكن في نيّته إعلامهم بتفاصيل العِلاج الجديد.

ومن أجلِ البدءِ بعملِ العجينة قامت تيريزا بإذابةِ لوحٍ من سمنة رانشيرا في قدرٍ معدنيّ وأضافت مِلعقتين من أوراقِ الماريغوانا المفرومة قِطعاً صغيرةً، لمّا سالَت السمنة خلطت المكوّنات حتّى تَكوّن خليطٌ أخضرُ فستقيّ اللون وكثيف. ثم في وعاءٍ مُقعّر خفقَت صفار بيضتين مع بياضٍ واحد وكوبٍ ونصف من الدقيق وملعقة من الخميرة، بعدها أضافت نصف كوب من السُكّر وآخر من بودرة الشوكولا لغرضٍ وحيد؛ إخفاء اللون الغريب المُحدث في العجين. أخيراً أضافت السمنة الزراعيّة Sativa. عندما جهُزت العجينة شكّلت بيديها خمسة عشر قرصاً من الكعك، ثم صفّتها في صينيّة معدنيّة وأدخلتها الفرن المُسخّن مُسبقاً بدرجة ١٨٠ مئويّة لتلوّحها الحرارة مدّة خمس عشرة دقيقة. أغراها منظر الكعك لدرجة أنّها لم تستطع مقاومة إغراء تناول قطعة منها. جلست برفقةِ كتابٍ عن فنّ الرسم الواقعيّ تاركةً لنفسها الاستمتاع بتأثيراتِ الكعكِ البصريّة. بعد تصفّحِ الكتاب لفترةٍ قصيرة، مارست العادة السريّة في نفسِ المكان ووصلت إلى نشوةٍ مترافقةٍ مع حالةٍ أقرب إلى الصرع؛ كلّما أغمضت جفنيها كانت ثمارُ المانغو والليمون والدرّاق في كلّ مكان.

أفاقت في الصباح التالي تُعاني صداعاً خفيفاً، شبيهاً بما يُخلّفهُ

شرب الكحول، تكلّفت بعض الجهد للتهرّبِ من مواعيد الجلسات الصباحيّة لتخرج بعدها وعقب تناولها وجبة الفطور مدعومةً بكوبٍ من الإسبريسو متوجّهةً إلى منزل رامون. استقبلتها عاملة المنزل بتوجّسٍ كما لو كانت إحدى مُفتّشات الصحّة التي جاءت لِتحكم على نوعِ الرعاية التي تقدّمها للمريض وأرشدتها إلى المكتبِ حيث كان رامون يُشاهد التلفاز برفقة ولديه المراهقين، اللذين، على ما يبدو، تكبّدا جهداً كبيراً لأجلِ إلقاء تحيّة لطيفة عليها.

أحاطت بالطبيبة هالةٌ من الفتور المتأصّل كتلك التي تُميّز فلاسفة العدم أو حرّاس المتاحف الوطنيّة. طلب رامون منها عبر الإشارات أن يتركاهُ على انفرادٍ معها، كان قد جهّز بضعة أسطرٍ كتبها مُسبقاً في دفترِه، طلب إليها أن تقرأ:

أُقدّرُ لكِ مجيئك هنا، كما أخبرَتكِ زوجتي عبر الهاتف، حالتي لم تعُد قابلة للعلاج. السبب وراء طلبي لذلك الشيء منكِ مُجدّداً هو أنّني شعرتُ بتحسّنٍ كبيرٍ لدى تجربتهِ في المرّةِ السابقة، بشكل خاصّ لاحظتُ تحسّناً عند المشي، لأنّه، كما تعلمين، يُكلّفني الكثير من العناء مؤخّراً، الأدوية التي وصفوها لي تُفيد لإطفاء الألم بحدّ ذاته لكنّها لا تُزيل الانزعاج. لا أدري إن كنتِ تفهمين ما أقصد. في النهاية أردتُ أن أشكركِ بشكلٍ شخصيّ لحسنِ نواياكِ واهتمامكِ الكبير. كان شرفاً عظيماً لي التعرّف بكِ.

تيريزا أجابتهُ بأنّهُ لن يستطيع التخلّص منها بسهولة. ابتسم رامون شاعراً بالإطراءِ من هذا المزاح.

«لنرَ ما سيكون رأيكَ بهذا الكعك»، اقترحت هي، «سوف يكفيك لمدّة أسبوعين، بعدها أحضرُ لك المزيد، ما رأيك؟».

عينا رامون طلبتا إليها ألّا تكون ساذجة وعقّبت هي بأنّ لهذا الكعكِ تأثيرات لا يُمكن الشكّ بأمرِها ثم غيّرت الموضوع.

«ألا تُعرّفني على ببّغائك؟».

نهض رامون بصعوبةٍ وخرجا معاً إلى الحديقة. انتزع منها الببّغاء بعض الضحكاتِ بتعابيرهِ المُخلّةِ بالآداب، ثمّ بدأت تسترجعُ ذاكرتها بصوتٍ عالٍ مُتحدّثةً عن أن جدّتها امتلكت في الماضي طير ببّغاء شبيهٍ إلى حدٍّ كبير ببينيتو، أضافت بأنّها هي أيضاً من علّمها خبز الكعك. في هذه المرحلةِ من علاقتها بالمريض لم يعُد يهمّها أن تُحافِظ على الصورة الغامِضة للمُحلّلةِ النفسيّة، نظريّة الموتِ الرحيم لم تكن لها علاقةٌ بالعلاجِ النفسيّ، إنّما هي وسيلة معيّنة في الحِداد واختصاصٌ للمواساة يحتملُ الخوض إلى حدٍّ مُعيّنٍ في الخصوصيّة.

عادا مُجدّداً إلى المكتب، هناك طلبت إليه أن يكتب شارحاً لها عن كيفيّة تعاملهِ عاطفيّاً مع الألم. رامون عبّر عن عدمِ فهمهِ لما قصدته فسألَتهُ إن كان قد طلب إلى أفرادِ أسرتهِ أن يغمروهُ بالاهتمام وأن يُدلّلوه أو إن كان يُسِرّ إليهم بما يشغله أو يُدلّلُ نفسه بأيّة وسيلةٍ أُخرى.

«لقد مرّوا بوقتٍ عصيبٍ جدّاً حتّى الآن مع كلّ ما يحصل، أنا استسلمت. هذهِ لم تعُد حياةً تُعاش، سوف يرتاحون حين أرحل».

«لا يا رامون»، قالت بجديّة، «سوف يشتاقون إليك وسوف يفتقدونك كثيراً، أتعرِفُ ما سيُعينهم على الاستمرار؟ الشعور بأنّهم قضوا لحظاتِ تواصلٍ معك وأنّهم وصلوا إلى معرِفتك حقّاً وأنت إلى معرِفتِهم. أعرفُ بأنّك تشعرُ أنك حِملٌ ثقيلٌ عليهم وأنّهُ من الأفضل أن.. حسناً يكفي سأتوقّفُ هُنا. لكن لا يزال لديك شيءٌ مهمّ للغاية لتفعلهُ من أجلهم، ودِّعهم، أجل ودِّعهم على مهلٍ ودون عجالة، علّمهم كيف يُودّعونك، على الرغم من أنّه لا أحد يُجبرنا بضرورةِ ذلك، لكن علينا أن نفعله، هذا السلوك يُعلّم أيضاً، جدّتي علّمتنا إيّاه، قبل رحيلها، أرسلت بطلبِ القسّ وطلبت الحلوى المُفضّلة لديهِ من أجل استقباله وأهدت كلّ واحدٍ منّا هديّة وقالت لكلّ واحدٍ منّا قولاً مُميّزاً. كانت بحقّ ندوةً عظيمةً إذا ما نظرنا إلى كيفيّة تنفيذها. كنت قد ذكرت بأنّ ما يهمّك هو أن تترك لهم إرثاً حسناً، أليس كذلك؟ بهذهِ الطريقة يمكن تربية الأطفال أيضاً، بتلقينهم كيفيّة اللقاء وكيفيّة الوداع، علّمهم، لا يمكن ترك الأطفال وبحوزتهم نصف محاضرةٍ عن الحياة وحسب، نصف ما يحتاجونه من المعلومات، من أين لهم أن يعرفوا لاحقاً.. فكّر بالأمر مليّاً وأرسِل لي رسالةً كي أعرف إن أعجبك الكعك. اتّفقنا؟».

كان الحوار أشبه بجولةِ لعبةِ شطرنج فوق رقعةِ اللانهاية، فالكلمات كانت بيادِقَ لا حصر لها، والأسئلة كانت أعداداً لا تُحصى من الفِيلة، والأحصنة كوُعود، والقلاع كإهانات.

كان هنالك ملكٌ مهمّ جدّاً، يصلحُ لأجلِ الاختباء وحسب من «كش ملك» قاضية. كان كلعبةِ مونوبولي شاسِعة وكلّ طريق

من طرقِ الهروبِ يفضي إلى الـ«لا». وكانت هنالك ملكةٌ قويّةٌ ونبيلة تلاعِب الحياة مع كلّ حركة، لم يكن هناك أعذب من الـ«كش ملك» خاصّتها؛ الـ «نعم».

(٢٤)

ساعدت اللصاقات والكعكِ المعجون بالماريغوانا على تهدئة هيجانِ الألمِ لدى رامون قليلاً، راح تدريجياً، مُثقلاً بالعقاقيرِ المُسكّنة ومُشوّشاً بفعلِ كلماتِ تيريزا، يُرجئ إجراءات الموتِ التي خطّط لها مُسبقاً، أخذ يفقدُ سيطرتهُ على ساقيه، كما انتابتهُ نوباتٌ من الكحّة المُتقطّعة تُشبِه طقطقة حبّات الذرة إذا ما وُضِعت في فرن المايكروويف.

عندما دخلت كارميلا إلى المنزل دافعةً أمامها كرسيّاً مُتحرّكاً فارِغاً، تخيّل رامون شبحهُ جالِساً عليه حزيناً وشفّافاً. كانت رؤيةً مُهينةً. لن أجلس على هذا الشيء المُقرِف. فكّر. وبالفعل لم يفعل. من انتهى إلى إجلاسه على الكرسيّ هو أنطونيو ابن إلوديا، الذي ومقابل إكراميّة بخسة وافق على التكفّلِ كلّ صباحٍ بحملِ الأستاذ من السريرِ حتّى الحمّام ومنهُ إلى الطابقِ السفليّ حيثُ سيُقعِده على كرسيه المُتحرّك وعند الظّهيرة سيعود لتطبيقِ نفس الخطواتِ بطريقةٍ معكوسة.

بالمقارنةِ مع أكياسِ الإسمنت التي كان يحمِلها أنطونيو مذ كان يافعاً في ورشاتِ البِناء، فإنّ رامون يُعدّ حِملاً ضئيلاً وخفيفاً. كانت السعادة المرسومة على وجهِ الشاب بينما ينقلُ رامون من مكانٍ إلى آخر تُضاعِفُ من شعور عدمّ النفع والعدميّة الذي راح يراود رامون منذ مدّة.

لقد فكّرتُ بالأمر. قال رامون لبينيتو، لا وجود لطريقةٍ أُخرى مضمونة مئة بالمئة، عليّ أن أُطلِق الرصاص على نفسي. بهذه الطريقة انتحر أحد المُوكّلين لديّ: غرِق في الديون وخانتهُ زوجتهُ مع مُدرّب التِنِس ثمّ تُوفّيت ابنتهُ في حادثٍ على الطريق السريع فأغلق على نفسهِ باب مكتبهِ وأطلق النار على نفسه.

سوف أكتبُ إلى كارميلا: خُذيني إلى المكتب.. أريدُ أن أجلِس في مكتبي. لن أقتل نفسي هنا كي لا يضطرّوا إلى الانتقالِ من المنزل بسببِ الذكرى الحزينة. سوف أذهبُ إلى مكتبي ومعي حقيبتي مُدّعياً رغبتي بنقلِ بعضِ الملفّات، عِندها سأُخفي المُسدّس وأطلب إليهم تركي بِمفردي في غرفة المكتب، هناك أمام شهادةِ المُحاماة وصُوري المُعلّقة على الجدارِ سأفعلها.

أريدُ أن يكون ليوناردو حاضِراً عندما يجدونني، أريدُ أن يسمعوا دوي العيارِ الناريّ قبل أن يجدوني، هذا مُهمّ كي لا يتسبّب المشهد بصدمةٍ قاسيةٍ لهم، لأنّهم إذا ما تخيّلوهُ قبل أن يروه ستكونُ الصدمة أخفّ تأثيراً. سوف ألبس شيئاً على رأسي، غطاء مِخدّة ربّما أو كنزة لكي لا يروا منظر رأسي المُشوه. لكن المُعضِلة تكمن في

الوصولِ إلى المِفتاح لفتحِ الدرج الذي يُوجد بداخلِه المُسدّس، خبأتهُ في مكانٍ على سقفِ الخزانة، بالطبع ليس بإمكاني الآن الوقوف على مقعدٍ كي أُنزِله. القانون الكريه ينصّ على أنّ المُساعدة على الانتحار جريمة يُعاقبُ عليها بالسجن من مدّة تتراوح بين السنتين إلى الخمس سنوات، هذا وحسب في حال كانت المساعدة غير مباشرة أمّا إن كان اشتراكاً جماعياً مباشراً، أقصد إن قام أحد بحقنِك بمادّةٍ ما على سبيل المثال أو أطلق عليك النار برغبتِك.. ستكونُ العقوبة أسوأ بكثير. لكنّني أتساءل.. في حال وقّع الشخص على اعترافٍ خطّي منهُ يشرح نيّته بالانتحار بكاملِ وعيه وإرادته.. ما شأنُ الدولة إن ساعدك أحدهم؟ لا أفهم حقّاً!

مُجدّداً وقع اختيارهُ على إلوديا. في أحد الصباحات طلب رامون تركهُ وحيداً في غرفتِه مُتذرّعاً بعدمِ رغبتِه بالنزول، حالما غادر ولداه وزوجته المنزل رنّ الجرس الصغير:

«ماذا تُريد»، سألت إلوديا لاهثةً جراء الجهد الذي بذلتهُ لتصعد السلالم ركضاً.

رامون كتب التعليمات بشكلٍ مُسبق:

«خذيني إلى غرفةِ الملابس من فضلك، اصعدي فوق المِقعد المُنخفِض وناوليني المفاتيح من الجانب الأيمن للخزانة. لا تذكري الأمر للسيّدة، لقد رأيتِ حالها عندما عرفت بأمرِ الساعة».

«لا تقل لي بأنّك تنوي بيع شيءٍ آخر في السرّ!».

رمقها رامون بنظرتِه الحادّة فأطاعته. صعدت فوق المِقعد

وبدأت بالبحثِ عن المفتاح بيدها. فجأة سُمِعت خشخشةٌ خفيفة جراء اصطدام المعدن بالخشب -ها قد وجدَته- فكّر رامون. لكن إلوديا تابعت تحسّس السطح كما لو أنّها لم تجِد شيئاً.

«ليس هنا»، قالت إلوديا بنبرتِها الفاشِلة التي عادةً ما تصدرُ عنها عند الكذب.

لقد سمِعتُ رنّة المفاتيح للتو! فكّر رامون.

إلوديا استدارت ناحيتهُ لتجِد أمامها شخصاً يستشيطُ غضباً ويُشيرُ إليها بذراعٍ محمومٍ أن تُتابع البحث.

«انظر كيف تلطّخت راحتي بالغبار»، قالت هي مُتصنّعةً الخبل. بعد قليل سوف أحضُر لتنظيفِ السطح.. لا بد أنّهُ سيظهرُ حينها.

أصرّ رامون، لن تنزل من هناك حتّى تُنزِل لي مفتاح الخزنة، سمعتُ بأذني صوت خشخشتهِ للتوّ.. كيف تقولُ هذا! يا لها من امرأةٍ كاذِبة.. أنزليه الآن. أعرفُ أنّ المفتاح هناك في الأعلى!.. سمعتهُ للتوّ!

«ومن أجلِ ماذا تُريده؟»، سألت إلوديا.

«وما دخلكِ أيّتها المرأة المتطفّلة الوقِحة، تابعي البحث.. استديري وابحثي مجدّداً.. هيا!».

«اهدأ سوف نعثرُ عليه»، قالت إلوديا بينما باشرت البحث مُجدّداً بعجالةٍ مُبالغٍ بها، «لا يوجد سوى قمصان هنا، أليس من الممكن أن تكون السيّدة قد غيّرت مكانه؟».

رامون نفى ذلك بحركةٍ من رأسه وأشار إلى أذنهِ تعبيراً منهُ بأنّهُ سمِع رنين المفتاح.

«هل تُريدُ منّي أن أتّصِل بها على هاتفها المحمول؟».

«أيّتها المُغفّلة.. يستحيلُ أن تعلم زوجتي بالأمر. لقد سمِعتُه، إنّهُ هناك في الأعلى.. لن تتجرّئي على خداعي!».

«اسمع سوف تحترقُ طبخة الفريهوليس.. اسمح لي أن أذهب لأخفض حرارة الغاز تحت القِدر.. أرجوك».

«لا تُراوغي.. لن تخرجي من هنا حتّى تُسلميني المفتاح. امرأة خائنة! تابعي البحث هيّا! لِنرَ من سيتعبُ أوّلاً».

«أقولُ لك لا بدّ أنّهُ وقع!».

«هذا كذِب، سوف أُحضِرُ الدفتر وأكتبُ لها بأحرفٍ كبيرةٍ: لن تخوني ثقتي أليس كذلك؟»، نزع رامون الفرامِل وبدأ بتحريكِ العجلةِ إلى الخلف. إلوديا سارعت بالنزول عن المِقعد.

«إلى أين تُريدني أن آخذك؟».

«أحتاج إلى دفتري».

ساعدتهُ ليقترب من الدُرج حيثُ ترك دفترهُ وقلمه.

«سوف أذهبُ بسرعةٍ لأطفئ الغاز»، قالت إلوديا بينما كان رامون يكتب، «سأعودُ في الحال».

أمسك بها رامون من مِعصمها، «لن تذهبي إلى أيّ مكان».

«لا تتصرّف هكذا!».

«لا تكذبي عليّ.. ماذا قالت لكِ زوجتي؟».

«حول ماذا؟»، قالت إلوديا مُتوتّرة بفعلِ الكذِب حتّى بدأت تتعرّقُ بِغزارة.

«هناك في الأعلى توجد المفاتيح.. سمعتُ رنينها لِتوّي».

«لا بدّ أنّهُ شيء آخر، ربّما شيء يخصّ السيّدة حرّكتْه بينما مررت يدي».

«أقسِمي لي أنّكِ لم تجدي شيئاً».

«القسم خطيئة، سأُتابع بحثي مُجدّداً الآن، لكن دعني أُطفئ الشعلة تحت قِدر الفاصولياء، لا تكن شرّيراً.. سوف تحترق».

«تذكّري ما فعلتهُ من أجلِك ومن أجلِ عائِلتك، إنّك تخونيني الآن.. أرجوك.. لا تفعلي هذا الآن في هذا الظرف، انظري إلى حالتي..».

«كيف لا أتذكّر، أنا مُمتنّة لك كثيراً، إنّهُ فقط..»، كانت على وشكِ أن تنفجر بالبكاء، «إنّهُ غير موجود يا سيّدي.. لم أجده.. لم أجده».

«أأنتِ مُتأكّدة من أنّكِ بحثتِ في الزوايا جيّداً؟ المساحة ضيّقة في الأعلى، تعرفين ما أعنيه».

غيّر رامون من استراتيجيّته، أطبق راحتيه في وضعِ الاستجداءِ

مُترجّياً ومُظهِراً ضعفه، أجهشت إلوديا بالبكاء ثمّ مسحت دموعها بطرفِ مريلتها.

أشار رامون مُجدّداً باتجاه الخزانة بتعابير مثيرة للشفقة.

«لِنرَ، هيّا»، قالت إلوديا مهزومة.

صعدَت المِقعد مُجدّداً وعادت لتتحسّس سطح الخزانة بكفّها والدموع قد أعمت عينيها وسيلان أنفها يغسل شفتيها. توقّفت يدها في المكانِ الذي كان قد سُمِع منه رنينُ المفتاح في المرّة السابقة، رامون عرف بأنّه هناك، انتظر أن تلمس أصابعُ إلوديا القطعة المعدنيّة، في تلك اللحظة كان الشيء الوحيد الذي احتاجهُ من أجلِ أن يُخرِج المسدس وأن يُنهي حالة الرجاء المُخجِلة.

«أسرعي.. هاتيه».

سحبت إلوديا يدها المفتوحة فارغة، خفضت ذراعيها وهبطت من على المِقعد تبكي وترتجفُ من الإحراج دون أن تتجرّأ على النظرِ في عينيه.

«ليس موجوداً.. أُقسِم لك بأنّهُ ليس هنا».

(٢٥)

كانت باولينا تُصاب بالذعر كلّما لمحت والدها يغطّ في النوم ورأسه ملتوٍ بوضعيّةٍ غريبةٍ، ومنذ أن بات مُتّصلاً ليلاً نهاراً إلى جهازِ التنفّسِ الاصطناعيّ بات عليها التمحيص في علاماتٍ أكثر دقّة؛ ارتعاشة الجفون على سبيلِ المثال، اللون المُحمرّ للأظافر، نبض الشِريان في الرسغ أو عند العُنق.

بهذا الشكل تعلّمت الفتاة مُراقبة والدها برعبٍ وتوجّسٍ إلى حدٍّ أن ذلك كان يتسبّبُ في إلهائها عن دروسها المُملّة مُحاولةً رسم ملامحِ وجهِ والدها أو يديه.

في صباح يوم أحد، بعد أن غادرت كارميلا إلى عملِها، دخلت باولينا لترى والدها فوجدتهُ نائماً في السرير تنتشرُ حوله قطعٌ من الكعك المُبعثر في كلّ مكان. اقتربت منهُ بحذرٍ وبدل أن تتفحّص علامات الحياةِ لديه وقع نظرها على الكعكِ وفُتِحت شهيّتها فمدّت اليد السارِقة وأخذت قطعةً من العلبةِ المعدنيّة.

أقراصُ الكعكِ بالشوكولا كان لها طعم نبات أبيزوتا العطريّ،

لا بدّ وأنّها وصفة من الأعشاب الطبيّة. متجاوزةً المذاق الغريبِ للكعك، تناولت باولينا قِرصاً آخراً، لم يكن مذاقهُ غريباً كالأوّل، بدأت تشعرُ بخِدرٍ خفيفٍ في اللسان ونوعٍ من الانتعاش وكأنّها تناولت مشروباً غازيّاً بارداً. بعد مرورِ حوالي العشرين دقيقة بدأت تشعرُ بالدوار، اعتقدت بأنّ هذه الإزعاجات هي عقابٌ لها على سرقةِ الكعك وبدأت تختبرُ ندماً مزّقها ببطء وشعرت بإمكانيّة حدوثِ تقيّؤ للخطيئة في أيّة لحظة.

خطر لها أن تذهب لمناداةِ ماثيو كي لا تشعر بأنّها وحيدة في مثل هذه الحالة من الألم، لكنّ شقيقها كان قد هام في نفسه وانغمس في أجهزته الالكترونيّة حتى تحوّل إلى ما يشبه الزومبي ولم يعد بإمكان باولينا التعرّف عليه. كانت قد طلبت من والدتها أكثر من مرّة أن تُلزِم ماثيو بأن يزيد من اهتمامه وأن يُخصِّص وقتاً أكبر للاعتناءِ بوالدها، لكن كارميلا كانت تُدافع عنهُ بحجّة عدم كفاءة الرجال العاطفيّة في هذا المجال.

مستاءةً بفعلِ علامات تعاطي القنّب، دخلت باولينا إلى الحمّام وغسلت وجهها بالماء وعندما نظرت إلى المرآة لاحظت بأن عينيها كانتا محمرّتين وتقدحان بريقاً وتاهت في تأمّل «تلك الأخرى» التي أمامها مُدقّقةً في قزحيّتها الكستنائيّة وتلك العروق الحمر فوق ابيضاض العينين.

لم يحدث قطّ أن رأت هذا العضو الغريب من قبل، ثم تفاجأت بطريقةٍ لا تفسير لها بأنّها تمتلك عينين وأنفاً واحداً فقط، لدى

التفحّص في شكلِ أنفها بدأت بالضحك. لماذا كان مُضحِكاً لهذه الدرجة؟ لم تعد تذكر السبب، لا بدّ أن الكعك كان فاسداً.

إنّني أهذي. ذهبت وأقفلت باب الغرفةِ على نفسِها وارتمت على السرير فسُمِع صرير نوابضِ السرير وكأنّها فئران هاربة. تخيُّل فئرانٍ تركض في الغرفة بدا لها مُسليّاً، ماتت ضحِكاً وراحت تهزّ حوضها لتفتعل الصوت، متتبّعة صوت الفئران المتراكضة، سلّمت نفسها لحركاتٍ خليعةٍ انتهت بما يُشبه نوبة تشنّج شيطانيّة.

منهكةً، توقّفت فجأة، ثم عاودت وانفجرت بالضحك، لم تكن قد استمتعت بهذا الشكل من قبل، ماذا يحدث لها؟ بماذا كانت تُفكّر؟ لم تعد تذكر، لكنّ شعورها كان جيّداً بالتأكيد.



(٢٦)

«هل ذهبتِ إلى السينما مُؤخّراً؟»، سأل إدواردو حالما تمدّد على سريرِ الفحص.

كان السؤال طائشاً ومُفاجئاً ونجح في أن يشغل تيريزا لبعضِ الوقت عن التفكير بألِمِها العميق الذي أصابها إثر وفاة صديقتها لورديس التي تعرّفت إليها في صالةِ العلاج الكيميائيّ، كانت هذه الأخيرة قد انتكست مُجدّداً عقب اختبارها لسنواتٍ عدّة من الحياةِ الخالية من تعقيداتِ المرض. لا أحد بمأمنٍ عن عودةِ المرض، بغضّ النظر عن كميّة التوت البريّ أو الليمون أو الرمّان التي كانوا يتناولونها. لكن شيئاً ما كان يحدُث مع إدواردو، مجرّد توجيههِ سؤالاً ذا طبيعةٍ شخصيّةٍ لمعالجتِهِ كان نقطةً فارقةً في رحلةِ التناقلِ وكان لا بدّ من استغلالها.

«في السابق كنتُ أذهب باستمرار»، قالت، «أحبّ السينما كثيراً».

تموضع إدواردو فوق السرير والتفت ناحية تيريزا.

«هل تعتقدين بأنّه مكانٌ نظيفٌ نسبيّاً.. بالنسبة لي؟».

المُهِمّة كانت إحداث تغيير في النفس، علماء الأخلاقِ الإغريق أكّدوا على أنّ الناس لا تتغيّر مُطلقاً. تيريزا كانت تسلّم بأنّ كلّ إنسان يتمتع بجوهرٍ غير قابلٍ للتبدّل، لهُ حظّةُ من روحٍ مُتقلّبة، روح Alma بالمعنى الدنيويّ المادّيّ كما هي ماهيّة الألومنيوم بالنسبة لأنبوبٍ من مادة البولي أثيلين على سبيل المثال. لكنها تعتقُد بإمكانيّة تغيّرِ العادات والأفكار والعواطف. إن Alma إدواردو النفسيّة كانت وحدةً متكامِلةً، أبعد من الـهُو والأنا والأنا العُليا، الثالوث الفرويديّ المُقدّس. لقد قام فرويد بتحديدِ المسارِ بنفسه:

الأنا يجبُ أن تكون حيثُ تتواجد الهُو وخلف الأرضِ المُتنازعِ عليها من قبل الحالات الثلاث للشخصيّة (الهُو والأنا والأنا العليا) يكمُن أساسٌ مستقرٌّ للإنسان يتجاوز جميع الظّروف والحالات وحرٌّ من الطفرات؛ بغضّ النظر عن الصدمات أو عن حالات الحُبّ أو الاطّلاع والقراءة التي ستُغيّر من طريقةِ التصرّف، فالروح Alma تظلّ ثابتةً في كيانه.

التحليل النفسيّ يُمثّل ببساطة محاولة البحثِ عن هذهِ الحقيقة الثابتة. وكما أبطالُ التراجيديا الذين ألهموا بمآسيهم فرويد، فإنّ على كلّ فردٍ منّا أن يتواجه مع نفسهِ يوماً ما، وأن يتعرّف عليها، ويصل إلى الكشف والاعتراف. ومن أجلِ أن يكون ذلك ممكناً، كان من الضروري الإيمان بوجودِ الجوهر. وتيريزا لم تجد كلمةً أكثر نقاءً من Alma لتسمِيتها.

«هل ستذهبُ إلى السينما؟».

«لا أعرف»، قال إدواردو، «لم أدخل إلى السينما منذ أن أصابتني اللوكيميا، أي منذ عشرةِ أعوامٍ أو أكثر، اعتادت أُمّي اصطحابي أيّام الجُمعة».

لم يكن إدواردو يذكُر والدته إلّا حينما كان يُريد أن يذمّ إحدى تصرّفاتها الخاطِئة، لكن ليس هذه المرّة، في الواقع، ودون أدنى شكّ، كان الأمر يتعلّقُ بجلسةٍ حاسِمة.

«أيُّ الأفلامِ تريدُ مشاهدتها؟».

«فيلم سوريّ كانت إميليا قد نشرتهُ على حسابِها على فيسبوك، قالت إنّه من أجملِ الأفلام التي شاهدتها حتّى الآن، وإنّها تتوقُ لرؤيتِهِ مُجدّداً، أرسلتُ إليها برسالةٍ عبر INBOX وأخبرتُها بأنّي أنا أيضاً أودُّ رؤية الفيلم. لم أكن قد سمعتها تتحدّثُ عنهُ سابقاً. كان جوابها: لنذهب! قلتُ لها إنّي سوف أكون خارج المدينة في عطلةِ الأسبوع واتّفقنا أن نذهب إلى السينما في عطلةِ الأسبوع القادم. بمجرّد التفكير بالأمر.. ماذا لو كانت تنتظرُ منّي أن أُقبّلها هناك على مقاعدِ القاعة؟ في ذلك الجوّ كيف سأتمكّنُ من التنفّس؟ ماذا لو طلبت بوب كورن؟ مؤكّدٌ سوف ينتابني شعور بالقرفِ لدى رؤيتها تأكلهُ بأصابِعها وإن قبّلتُها سأشعرُ بقرفٍ شديد! أعرفُ ذلك.. لن أستطيع تجنّب ذلك».

«من ماذا بالتحديد سيتولّدُ لديك شعورُ القرف؟».

«من.. ليس مِنها.. لا أعرِف.. من نفسي».

الحقيقةُ تكمنُ هنا، يتردّدُ صداها في الكلماتِ حيثُ إدواردو يجدُ نفسه أخيراً وجهاً لوجهٍ أمام مرآةٍ صافيةٍ تعكسُ صورتهُ عن نفسه، كان مذهولاً. تيريزا انتظرت بصمت، تُفكّرُ بأنّ الشفاء يكمنُ هنا بالتحديد: أن ننظر إلى أنفسنا في المرآة، إنّها هي حاجةٌ ضروريّةٌ من أجلِ أن نتمكن من تغيير مظهرِنا، في هذه الحالة، الأنا هي صورتنا النفسيّة الحقيقيّة، من هنا جاء اعتماد فرويد الكبير على المأساة الكلاسيكيّة كوسيلةٍ للاعترافِ التي تربطُ البطل بِقدرِه. تيريزا كانت تذكر لحظة الاعترافِ الخاصّة بها حين حصلت المُكاشفة والتي لم تكن على سريرِ العلاجِ إنّما على سريرٍ في أحد الفنادق برفقةِ عشيقها، عندما قالت إنّها لا تُريد أن تكون امرأةً جيّدة. وفي الليلة ذاتها طلبت الطلاق من زوجِها. انقباضٌ في الصدرِ ذكّرها بالاكتئابِ الذي تبع ذلك، الوصمةُ الاجتماعيّة، السرطان وتبادلُ الاتّهامات المُبتذل. أمر يقينها بأنّ الورم كان ذنبها، بحسب فيلهلم رايش[1]، كان قيحَ روحِها. كم كرِهت نفسها وهي تقرأُ لهذا الثرثار، كم شعرت بالقرف، على غرارِ ما يشعرُ بِهِ إدواردو الآن.

«ولماذا تشعرُ بالقرفِ من نفسك؟».

«لا، أقصد، من كلّ ما يُمكن أن يعلق بي في المكتبةِ الوطنيّة للأفلام، من المُؤكّد أنّها أكثر اتّساخاً من قاعةِ السينما العاديّة. قرأتُ

---

(١) فيلهلم رايش Wilhelm Reich: (١٨٩٧-١٩٥٧) طبيب ومحلّل نفسّي نمساوي، يُعدّ من الجيل الثاني بعد فرويد. عُرِف بكونه أكثر الشخصيّات راديكاليّة في تاريخ الطبّ النفسيّ. ساهمت أعمال رايش حول موضوع الشخصيّة في تطويرِ أنا فرويد «الأنا وآليات الدفاع».

دراسةً حول المشافي العامّة في إنكلترا، كشفت أنّ نسبة الباكتيريا المُتواجدة في المتر المربّع الواحد منها تزيد بها نسبته ثلاثون بالمئة عن نظيرتها المُتواجدة في المشافي الخاصّة، على أنّ الباكتيريا المُتواجدة في المشافي الخاصّة أكثر مقاومةً للمضادات الحيويّة، هذا منطقيّ، لكن آليّة التنظيف تخلق الكثير من التساؤلات؛ كنتُ قد بحثتُ مُسبقاً إن كان الفيلم يُعرض في صالةٍ أُخرى لكن لا، ولا حتّى على شبكةِ الأنترنت، كونه الفيلم الأخير الذي تمّ تصويره داخل سوريا، قبل أن تبدأ الحرب، ليس فيلماً رومانسيّاً لِنقُل، إنّه يتحدّث عن طفلةٍ كفيفةٍ تتلو القرآن الكريم، يبدو أن مرتلي القرآن هم مشاهير الدين الإسلامي، حسب قصّة الفيلم فإنّ الطفلة لديها صوتٌ بديعٌ لدرجةِ أن اعتقاداً ساد بأنّ الله يحميها من القذائفِ كي لا تنقطع عن ترديدِ آياته. ولكونِ الأهالي يعتقدون بصحّة ذلك فإنّهم يجمعون الناس من أجلِ الاستماع إليها خلال القصف، لكن لاحقاً، تُقدِم جماعة من الإرهابيّين المُتشدّدين على خطفها ويفعلون بها أشياءً مريعةً ويُجبِرونها على الغِناء في ثكناتِهم بينما تنزِف دماً. هذا ما رأيتهُ في الإعلانِ الترويجيّ للفيلم.

سيكونُ من الغريبِ جدّاً تبادلُ القُبلِ خلال عرضِ فيلم كهذا، أليس كذلك؟ على أيّة حال.. لا أعلم، الأمر عندي سيان، ثم إنّي لا أُعجِبها، لقد قبِلت دعوتي لأنّها ترغبُ في مشاهدةِ الفيلم مرّة أُخرى ليس إلّا. لا شكّ سأخرجُ من هناك مُغطّى بالعثّ الذي سيعلق على كاملِ جسدي، سيلتهمني. سيكونُ من الجيّد لو يكون بإمكاني تعقيم المِقعد قبل أن تدخل هي إلى القاعة، لكنّنا لا بدّ سنلتقي أوّلاً

في الخارج، أليس كذلك؟ سيكون عليهم السماح لي بالدخول قبل نصفِ ساعةٍ من بدءِ العرض، لكن لا بدّ وأنّ فيلماً آخر يُعرضُ في تلك الأثناء».

اللحظة الحاسِمة كانت قد مرّت ولكن تيريزا لم تستغلّها، كان عليها أن تُقاطِع إدواردو قبل أن يلتجئ مُجدّداً داخل رهابه، لماذا لم تدخّل في الوقتِ المُناسِب؟ كيف سهَت عن ذلك؟ كان إدواردو كذلك الرجل الذي اعتقدَت يوماً بأنّها سعيدة إلى جانبه، مُجرّد رجلٍ آليٍّ عقلانيٍّ وُقود مُحرّكهِ دمُ طفلٍ مذعور، الطفل الذي كانا يحملانهِ عميقاً، مُكمّماً. لقد حان الوقت لأن تخون أساليب التحليل النفسيّ:

«ما اسم الفيلم؟».

««رُبّ ليلٍ ظفرتُ بالبدر»، أعرفُ بأنّ العنوان غريبٌ بعض الشيء، لكن الفيلم مُنِح جائزةً في مهرجان كان السينمائيّ».

«يبدو لي جيّداً..».

«لن أتمكّن من الذهاب. سيكونُ فظيعاً إن أصابتني نوبةٌ مفاجئة في حضورِ إميليا، عليّ أن آخذ معي كمّامتي في حال ساءت حالتي. إدواردو كان يقصدُ حالة الاختناقِ النفسيّ الذي تُصيبهُ والتي ساعدت جلسات العلاج مع تيريزا بِقمعِها. وماذا بعد ذلك؟ سأجدُ نفسي مُضطرّاً إلى الادّعاء بأنّني أُعاني من الربو، هذا أيضاً لا يبدو مُثيراً للجاذبيّة لِنقُل! إلى جانبِ أنّني قرأتُ مساء الأمس خبراً عن إحدى حيوانات الماباتشي (الراكون)، كان قد دخل هائجاً إلى إحدى قاعات السينما في دالاس وعضّ ثلاثة

أشخاص. واحد من بينهم لم يقبل أن يُحقن باللقاح، كان من الطائفة المورمونيّة أو ما شابه وكانت النتيجة أنّهُ تُوفّي بعد الحادثةِ بشهرين. رحتُ أشاهدُ أفلاماً قصيرةً عن حيواناتٍ مسعورةٍ وانتقلتُ منها لمشاهدةِ ڤيديوهاتٍ تعرِض أناساً يهذُون وأفواههم تزبد، يموتون عطشاً بسببِ رهابهم من شربِ قطرةِ ماء. بقيتُ مستيقظاً أمام جهازِ الحاسوب حتّى الساعة الخامسة صباحاً. يبدو أنّ القوارِض تحمِل سلالةً من الڤايروسات التي لا ينفع معها اللقاح. لسان حالها يقول: ستموتُ غصباً عنك. ما خطب هذه الڤايروسات؟ إنّها ليست حيّة في الأصل.. كيف لها أن تقتل؟ كيف يُمكِن لنا أن نعيش في عالمٍ كهذا؟».

«لماذا لا تذهب أوّلاً وتلقي نظرة على سينما المكتبة الوطنيّة من الخارج، لِنرَ كيف سيكون شعورك؟».

هزّ إدواردو رأسهُ رافِضاً..

«لا أستطيعُ المُجازفة».

«هل أنت خائفٌ من أن يعضّك الراكون؟»، قالت واثِقةً من أنّ لحظة نسفِ الانتقالِ لديهِ بالديناميت قد حانت. رمقها إدواردو كما لو أنّ ڤايروس السعار كان قد بدأ يفعل فعلَهُ في دِماغه!

«أُمّي تدفعُ لكِ من أجل أن تتفهّميني وليس من أجلِ أن تسخري مِنّي مثلها!».

«أحاوِلُ أن أفهم..».

انتفض إدواردو واقِفاً وبدأ بِطيّ الغِطاء الذي تلحّف بِهِ خلال استلقائهِ على سريرِ العِلاج.

كان بإمكانِ تيريزا أن تقول لهُ بانفعالٍ ساديّ: «تُخيفك الجراثيم لأنّك تشعر بالقرفِ من نفسِك، تقرفُ من صلعتِك الطفوليّة ومن شُحوبِك الذي بِلون الجثّة، من أُمّك التي تلبسُ الكمّامة والقفّازات. ينتابك قرفٌ من قضيبك إذا ما قذف رغماً عنك بينما تغطّ في نومِك. لا تُريدُ لها، كما لا تُريد لوالِدتك، أن تخصيك، أن تفرغك. أتعرِف على ماذا يُطلقُ لقب الماباتشي الهائِج؟ اسأل إميليا.. إنّه موجودٌ بين فخذيها!».

«شكراً»، قال بِتحفّظٍ، جاهزاً للمُغادرة.

«أتُريدني أن أرافقك إلى سينما المكتبة العامة؟ أرغبُ كثيراً بِمُشاهدةِ العرض».

رمقها إدواردو بنظرةِ حيرة كتلك التي كان يرمقُ بها والدتهُ عندما كانت تعودُ نصف مخمورة منتصف ليل الجمعة.

«أنا أدعوك على حسابي»، أضافت تيريزا.

وأخيراً تيريزا عادت لتختبِر، دونما التأثير الضبابيّ للماريغوانا، واحدةً من تلك اللحظات غير المُتوقّعة التي تُنقِذُ حياتها من اللاجدوى... ابتاعا تذاكر عرضِ الساعة الخامسة ثمّ تجوّلا لفترةٍ خارج الصالة وشاهدا مرور عشراتِ الأشخاص من الجمهور يحملون عبوات المرطّبات كبيرة الحجم وأكياس البوب كورن.

كان إدواردو ينظرُ إلى ساعتِهِ كلّ دقيقةٍ تقريباً، دقّت الساعة الخامسة، اقترب أحد المُوظّفين منهما وسألهما إن كانا ينويان الدخول لحضورِ العرض، تيريزا قالت بأنّهما يُفكّران في الأمر. استغرقا بالتفكير حوالي نصف ساعةٍ إضافيّة، تناهى إلى سمعهما صوتٌ جسورٌ ومُبهِجٌ قادِمٌ من الداخل. ثمّ انصرفا عند المغيب.

(٢٧)

كان إرنستو قد رشا السلطات. تُريد منزلي أيّها العاهِر؟ يا قابيل؟ تُريدُ منزلي يا حثالة الطبقة المالِكة؟

رامون أثلج صدرهُ بتمكّنِهِ من البصق في وجهِ إرنستو عندما قدِم مُؤخّراً ليُهدّدهُ في منزله. الطبيب وقّع أمر الإخلاء. الطبيب والقاضي معاً وقّعا القذارة ذاتها لأنّ إرنستو يدفعُ للطبيب ألداما لقاء معايناتِهِ وزياراتِهِ إلى المنزل.

قالت لهُ كارميلا: «شقيقك يدعمنا بدفعِ تكاليف الاستشارات، لم نعد نستطيعُ دفعها». هذا الأفعوان يفعلُ ذلك كاستثمارٍ لا أكثر لكي يستولي على مُمتلكاتِنا. لكنّ رامون لن يسكت وسيحمي نفسه، القضاءُ سيتحرّكُ ضدّ إرنستو بموجبِ البندِ الرابع من القانون، الفصل السابع، الحقّ في المسكن، ما رأيك بهذا أيّها الوغد؟ ما بعد قانون الحماية القضائيّة (أمبارو) تحكم البربريّة.

لن أدفع لك، وإفادةُ ألداما تُعدّ غير شرعيّة. أتعرفُ لماذا؟ لأنّ الدين تراكم منذ أن وُلِدنا من رحمِ المرأة ذاتها، لن تُخرِجني من

هنا أيّها الساقط.. ما زالت لديّ عشرة أيّام لتقديمِ الاستئنافِ أمام المحكمة.

كم الساعة؟ بحث رامون عن ساعتِه بين علبِ الدواء، لم تكن في مكانها، لا بدّ وأن إرنستو قد سرقها. كارميلا! أين ساعتي؟ عليّ أن أذهب إلى المحكمة. الحُكمُ سيستغرقُ وقتاً كافياً، عاماً على الأرجح.

أين وضعتُ ساعتي؟ أعلِميهم بأنّي سأتأخّر قليلاً. لقد استغرقتُ وقتاً طويلاً هنا. أنا في طريقي، شعرتُ بتوعّكٍ طفيفٍ لا أكثر، أنا في الطريق.

من أنت؟ أيّها القطّ الأحمق.. اتركني! ابتعِد.. لا تلمسني! كم دفع لك؟ ذلك القاضي اللعين، أرِني أمر الإخلاء، أين هو؟ أرني إيّاه. أنزلني! أيّها الحقير! اتّصلي بكارميلا كي تتقدّم بطلبِ الحماية.

«اهدأ»، ترجّتهُ إلوديا، «إنه ابني أنطونيو».

«فليُرِني أمر الإخلاء! اتركني وسأدفع لك. لديّ مال. كم تريد؟».

كانوا قد وضعوا سرير رامون داخل غرفةِ مكتبه، حملهُ أنطونيو ووضعهُ على كرسيهِ المُتحرّك وتوجّه بهِ إلى الفناء.

«سلّم على بينيتو يا سيّدي»، قالت إلوديا، «صباح الخير بينيتو، ها قد جاء الأستاذ رامون لكي يُسلّم عليك».

«انزعوا عنّي هذهِ الخردة.. لديّ الحقّ بالكلام».

«إنّه جهازُ الأوكسجين، دعهُ مكانه.. اتركه».

«ألا تُريدين منّي أن أُقيّده؟»، سأل أنطونيو.

«سيهدأ الآن.. لا أرغبُ بأن أراهُ مثل قطعةِ تامال مُربّطة».

«لا أريد تامالاً. أحضِري لي طبقاً من بوزولي الذرة الحمراء. أنت ماذا تريدُ أن تأكل؟ أنا أدعوك».

«كوليرو!».

«أترى! لقد نسي تماماً ما كان يقوله منذ لحظات»، قالت إلوديا لابنها، «هيّا اذهب إلى عملك».

تركا رامون وحده في حديقة الفناء يهذي نائماً، فجأةً نزع رامون قناع الأوكسجين. أيقظه بينيتو.

«كابرون!».

«كارميلا ساعديني!».

«كابرون! كابرون!»، بينيتو صاح مُتوتّراً.

إلوديا خرجت مُسرعةً لترى ماذا يحدث.

«والآن ماذا فعلت بينيتو؟ هل قمت الآن بـــ..».

كان رامون يهذي وعرفت هي أنّ عليها في هذهِ المرحلة أن تُحضِر الجِهاز البخّاخ وتقطر فيهِ بضع نقاطٍ من الدواء كي يستطيع التنفّس. كان قناع الأوكسجين مرميّاً على الأرض ورِئتا رامون ممتلئتين بالماء، عادةً يشفطون لهُ الماء المُتراكِم من رئتيهِ بواسِطة جهازٍ

ضخم. توجّب على إلوديا أن تصعد راكضةً من أجلِ إحضارِ الدواء وإلّا اختنق رامون، لكنّها، عِوضاً عن أن تفعل، انحنت جاثيةً قربهَ وهدّأت يديهِ المُتخبّطتين.

«كابرون! كابرون! كابرون!»، زعق الببّغاء.

اعتادت إلوديا كل ليلة أن تضيء شموعاً من أجلِ أن ينعم الأستاذُ رامون بالراحة.

«ألهِمني يا سيّدي وإلهي..».

فتح رامون عينيه مُستعيداً وعيهُ بفعلِ صدمةٍ من الأدرينالين.

«ساعدوني».

«أبانا الذي في السماء..».

لفّ إعصارٌ من الأضواءِ والأصوات المكان. رأى رامون بينيتو يُصلي باسم الأب والابن والروح القدس وإلوديا تزعقُ «كابرون» وكارميلا تتذوّق حساء النقانق.

«حقّق مشيئتك في الأرضِ كما في السماء..».

كان قلبهُ يدقّ بسرعةٍ كبيرةٍ كما لو أنّه صوتُ طبلٍ في الحالةِ الواعِية، ثمّ اكتسحته موجة من الإندورفين.

«سامحني يا إلهي..».

إلوديا تمسّكت بيدي رامون كي تُعيناها على تحمّلِ نظرةِ الربِ المهيبة الخام إليها. كم يا ترى كان حجم الخطيئة التي ترتكبها حتّى

ترتجف رعباً بتلك الطريقة. شعرت بحاجةٍ مُلحّة للتبوّل. عصرت عضلات حوضها. عرفت بأنّه وقبل الاتّصال بالسيّدة، عندما ينتهي كلّ شيء، قبل أن تكبس الأزرار الثلاثة في هاتِفها المحمول، عليها أن تتوقّف في محطّةٍ قصيرةٍ في الحمّام. جالسةً هناك على مِقعد المِرحاض، تتبوّل، بدأت بالتدّربِ على الجُملِ التي ستقولها لكارميلا: «سيّدتي، إلوديا تتكلّم..».

الشاهد الوحيد على حقيقةِ ما حدث كان بينيتو.

«كابرون!».

إلوديا ستُخبِر كارميلا بأنّها سمِعت صراخ بينيتو وبأنّها عندما خرجت إلى الحديقةِ وجدت الأستاذ بتلك الحالة، نائماً بسلام. سوف تشربُ كأساً من الماءِ قبل أن تتّصل بالسيّدة وتقصّ عليها ما حدث باكيةً، تتفوّهُ بالأكاذيب، مُقترفةً للخطيئة.

راحت إلوديا تُتمتِم صلواتها بينما رافقها بينيتو بزعيقٍ احتفاليّ مُبجّلاً حياة الفقيد.

«ابن الرب..».

«كابرون!».

«أنت الذي تُزيل خطايا العالم..».

«كابرون!».

«تكفي كلمة واحدة منك لشفاء روحي..».

«لا تمزح! لا تكن أخرقَ! كابرون!».

فتح رامون فمهُ كفرخِ حمامٍ جائعٍ يتوسّلُ طعام أُمّه[1].

انتهى

لننسى تشرين . 23

لننسى غزة والشهداء

(١) (فتح رامون فمه كفرخ حمام جائع) ربطٌ أرادهُ الكاتب بين الحدث الأوّل الذي بدأت به الرواية (فتح رامون فمه كقردِ البابون الغاضب) والحدث الأخير فيها.

رامون، محامٍ ناجح وربُّ أسرة، يختبر -عقب فقدانهِ للسانه بفعل مرضٍ غريب- نوعاً من التراجيديا الكوميديّة الصامتة.

كارميلا، زوجته، تبدأ نقاشاتٍ مع زوجٍ لا يستطيع الإجابة عن أسئلتها أو تبادل الحديث معها. باولينا وماثيو، ولداهما المراهقان، ينشغلان بهمومهما الخاصّة، فيما يُقرّر رامون اللجوء إلى تيريزا، معالجة نفسيّة تقوم بزراعة الماريغوانا في عُليّة بيتها. وسط هذا المُعترك يظهر بينيتو (ببّغاء) كفردٍ جديدٍ ينضمّ إلى أسرة آل مارتينيز، وللمُفارقة: يتمكّن رامون من التواصل معه بشكلٍ أفضل ممّا يفعله مع أحبّته المقرّبين.

الناشر

****

روايةٌ مؤثّرة وذكيّة، تحكي بأسلوبٍ فكاهيّ كيفية مواجهة عائلةٌ عاديّة للشّدائد والمِحَن التي تصيبها، كما نفعل جميعًا، بكلّ ما لديها من نقاط ضعفٍ وعيوب وظروفٍ خاصة وأيضًا بجرعات من الحبُّ والألم. روايةٌ تُثبت بأنّ حسّ الفكاهة لا يقف عائقا أمام عُمق الطّرح ولا يتعارض معه. كُتبت بذكاءٍ سرديّ مذهلٍ وبموهبةٍ أدبيّة استثنائيّة بالنسبة لمؤلف روايةٍ أولى.

أليخاندرو سامبرا، كاتبٌ وشاعر تشيليّ

الطّفرات تعدّ واحدةً من ضمن أفضل الرّوايات الصّادرة في أمريكا اللاتينية في السّنوات الأخيرة.

دانيل سالدانيا باريس، روائيّ وشاعرٌ مكسيكيّ



خورخيه كومنسال

الطفرات



9 789921 723588

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com